

6.4.2017

دوستويفسكي

الفقراء

ترجمة: د. سامي الدروبي

التنوير

دوستويفسكي

الفقراء

رواية



دوستويفسكي

الفقراء

الكتاب: الفقراء
تأليف: دوستويفسكي
ترجمة: الدكتور سامي الدروبي
عدد الصفحات: 216 صفحة
الطبعة الأولى في دار التنوير: 2016

الترقيم الدولي: 978-977-6483-83-5
رقم الإيداع: 2016/20062

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

الفقراء

1846

«المجد والشرف للشاعر الشاب الذي تحب آلهة وحيه سكّان السقوف والأقبية وتقول عنهم لأصحاب القصور المذهَّبة: هؤلاء بشر أيضاً، هؤلاء أخوتكم».

بهذه العبارة حيّا بيلنسكي، سنة 1946، قصة الفقراء. والحق أن حماسة الناقد الروسي الكبير في محلها: لقد ظهرت عبقرية دوستويفسكي الخَلّاقة في أول عمل من أعماله الأدبية، وهو لمّا يزل في السادسة والعشرين من عمره، ولئن لم تتفتح هذه العبقرية عن كامل مكنوناتها بعد، ولئن لم تصل إلى الآماد البعيدة التي ستصل اليها، فقد كشفت منذ أول عمل عن السمة التي ستظل تميزها: حبها وعطفها وحماستها للمغمورين المغلوبين على أمرهم. لأولئك الذين سيسميهم دوستويفسكي في عمل مقبل من أعماله «المذّلين» و«المهَانين».

ولئن تأثر دوستويفسكي في كتابة هذه الرواية بقصة «المعطف» التي كتبها جوجول والتي أثّرت في الأدب الروسي كله، ولئن

كان دوستويفسكي يقول هو نفسه: «لقد ولدنا جميعاً من معطف جوجول»، فما أعظم الفرق بين القصتين! فدوستويفسكي في قصته هذه يتمرَّد على روح الهجاء التي تتجلى في قصة جوجول. إنّ آكاكي آكاكيفتش، بطل «المعطف» إنسان يبعث في نفسك الضحك إلى جانب الشفقة. لقد كان طموحه كله أن يحصل على معطف. حتى إذا ضاع المعطف هوى إلى اليأس فالموت. وليس كذلك الطموح الذي يحرك ماكار دييفوشكين: فما يحرّكه هو الحب والرحمة والإيثار والتفاني. إن ماكار يضحي بنفسه في سبيل الفتاة المسكينة التي لا يكاد يراها، ولا يجرؤ أن يزورها مخافة النمائم، وما ينفكّ يرسل إليها هداياه الصغيرة متحمِّلًا الحرمان تلو الحرمان. وقد أقرأ دوستويفسكي بطله «معطف» جوجول، فأجرى لسانه بتعبير عن استيائه من هذه القصة الساخرة التي لا تراعي مشاعر الفقراء الخبيئة، بل تعرّيها أمام أبصار الناس. ثم أقرأه قصة بوشكين «ناظر المحطة»، فأجرى لسانه بتعبير الإعجاب بها، والرضى عنها. إنّ الحب العميق الذي يحمله «ناظر المحطة» فيرين لابنته الوحيدة، يشبه العواطف الأبوية الرقيقة التي يحملها ديفوشكين للفتاة البائسة فارنكا. والمصير الحزين الذي ينتهي إليه ناظر المحطة بعد أن خطف ابنته ضابط متكبّر غني فلم يرها أبوها بعد ذلك، تشبه مصير ديفوشكين الذي سيبقى وحيداً في هذا العالم، بعد أن ارتضت فارنكا أن تتزوج السيد بيكوف الرجل الثري الذي سبق أن أغواها، ثم تزوجها ومضى بها إلى أملاكه البعيدة. وتنتهي قصة دوستويفسكي بصرخة أليمة حادة تعلن أنه يستحيل أن تكون هذه الرسالة هي الأخيرة «مستحيل أن تكون هذه الرسالة هي الأخيرة!» ولكن القارئ يتنبأ بأن تلك الرسالة هي آخر رسالة، وأن ديفوشكين الذي بقي وحيداً سيندفع

إلى الإدمان على السكر، وسيموت حزناً وألماً، مثل «ناظر المحطة» بطل بوشكين. ولكن قصة دوستويفسكي أغنى كثيراً من قصتَيْ صاحبَيْه جوجول وبوشكين. هذه القصة المتواضعة التي تحدثنا عن حب بين شخصين تستحيل إلى لوحة تصوّر الظلم الاجتماعي في أقسى أشكاله.

البطلان كلاهما مضطهَدان معذَّبان مذَلّان مهانان، يوقع فيهما الأشرار أنواع الظلم، ويتحملان من الفقر ما لا يطاق. إن الفقر الذي يعانيه ماكار ديفوشكين يكشف له عن كل الفقر الذي يحيط به، وقد هم الرجل أن يشكو ويتذمر، وأن يتمرد ويثور متعجباً في سذاجة من العذاب الذي يقاسيه الخيرون في هذا العالم. واذا كان، لبساطته، يتراجع عن الشكوى والتذمر، ويرتد عن التمرد والثورة، مسلّمًا بالواقع، مذعناً لمشيئة القدر، فإن فيه شيئاً من «المتمردين» الذي سيصفهم لنا دوستويفسكي في رواياته المقبلة.

إن الوجوه التي نراها في هذا العمل الذي هو أوّل أعمال دوستويفسكي، سنقع عليها في أعماله الأخرى، إنها وجوه «الفقراء» نشاركهم عذابهم ونحيا حياتهم. ولكننا في هذه القصة ما نزال بعيدين عن الأغوار العميقة التي سينفذ إليها دوستويفسكي، وما زلنا بعيدين عن الأعماق الميتافيزيقية التي ستنزل إليها رواياته.

الفقراء

«الفقراء»

كتبت سنة 1844-1845، ونُشرت
في شهر كانون الثاني «يناير» سنة
1846، في «مجموعة سان بطرسبرج»
التي كان يصدرها نكراسوف.

.

يا لهؤلاء الكتاب القَصّاصين! إنهم بدلاً
من أن يقصّوا علينا شيئاً نافعاً ممتعاً،
مريحاً، يهتكون جميع أسرار الحياة على
هذه الأرض ويزيحون الحُجُب عن جميع
مبائس الوجود!... لو كان الأمر لي
لنهيتهم عن الكتابة! فكِّروا في النتائج التي
يؤدي إليها هذا! إن المرء يقرأ ما يكتبون،
فإذا هو، على غير إرادة منه، يأخذ
يتأمل.... وإذا بجميع أنواع الأفكار
العجيبة المستحيلة تغزو رأسه. حقاً لو
كان الأمر لي لنهيتهم عن الكتابة، أو لمنعتهم
من نشر ما يكتبون.

الأمير ف.ف. أودويفسكي

8 نيسان (ابريل)

عزيزتي فرفارا أكسييفنا، الصديقة الغالية:

كنت أمس سعيداً. سعيداً سعادة كبرى. كنت أفيض سعادة. مرة في حياتك على الأقل، أيتها العنيدة الصغيرة، رضيتِ أن تلبّي طلبي. لقد استيقظت مساء أمس في الساعة الثامنة تقريباً (وأنت تعلمين يا ماتوشكا، أنني أحب أن أغفو ساعة أو ساعتين عند عودتي من عملي) فأشعلت شمعة وهيأت ورقاً، وبريت قلماً، ثم إذا بي أُنهض رأسي مصادفة، فيأخذ قلبي يخفق في صدري سريعاً، سريعاً. لقد أدركت إذن ما كنت أتمناه، ما كان يتمناه قلبي البائس! لقد لاحظت حين أنهضت رأسي أنك شددت طرفاً من ستارة نافذتك فثبتّه بأصيص الأزهار، تماماً كما أوحيتُ إليك بذلك إيحاءً غير مباشر في المرة الماضية. حتى لقد خيّل إليّ أنني ألمح في تلك اللحظة وجهك الأخّاذ من وراء النافذة، وكأنك كنت تنظرين إليّ من غرفتك، وكأنك كنت تفكرين فيّ. وما كان أشد أسفي، يا ملاكي الصغير، حين لم أستطيع أن أميز قسمات وجهك الحلو العذب تمييزاً واضحاً! لقد كنت في زمن مضى أملك بصراً قوياً أنا أيضاً، يا ماتوشكا. ولكنها

الشيخوخة يا صديقتي اللطيفة... إنه ليحزن قلب المرء أن يدلف إلى الشيخوخة. إنني في هذه اللحظة مثلاً لا أرى رؤية واضحة. ولكن يكفي أن أعمل قليلاً في المساء، يكفي أن أكتب بضعة أسطر، حتى تصبح عيناي في صباح الغداة حمراوين، وحتى تسيل منهما الدموع، فأكاد أستحي أن أظهر للناس. ولكنني يا ملاكي قد رأيت ابتسامتك، ابتسامتك الصغيرة الفاتنة، رأيتها في خيالي، فكانت كالضوء في نفسي، وشعرت بذلك الانفعال نفسه الذي شعرت به يوم قبّلتك يا فارنكا، هل تذكرين ذلك يا ملاكي العزيز؟ حتى لقد خيل إليّ – هل تصدقين يا عزيزتي؟– أنك تهدديني بأصبعك من وراء النافذة. أهذا صحيح أيتها الحمقاء الصغيرة؟ يجب عليك حتماً أن تقصّي عليّ هذا كله مفصَّلاً في رسالتك القادمة.

ولكن قولي: ما رأيك في اختراعنا هذا بشأن ستارة النافذة، ألم تكن فكرة لطيفة في الواقع؟ لسوف أعرف، حين أعمل أو حين أضطجع، وحين أستيقظ أيضاً.. لسوف أعرف فوراً أنك تفكرين فيّ، وأنك لم تنسني، وأنك أنت أيضاً جيدة الصحة مشرقة المزاج. فاذا أسدلت الستارة عرفت أن هذا يعني أنك تقولين: «وداعاً يا ماكار ألكسييفتش، فقد آن أوان النوم». حتى اذا عدتِ فرفعت الستارة فهمت أنك تقولين: «نعمت صباحاً يا ماكار ألكسييفتش، هل نمت نوماً طيباً؟» أو فهمت أنك تسألين: «كيف حالك اليوم يا ماكار ألكسييفتش؟ أما أنا فإني بحمد الله في صحة حسنة، وكل شيء يجري عندي على ما أحب». هل رأيت كيف أحسنت تخيل هذا الاختراع؟ لا حاجة بنا إلى التكاتب من أجل التخاطب، أليس كذلك؟ وكانت تلك فكرتي، فكرتي أنا. فاعترفي أنني حاذق في مثل هذه الأمور، ألا ترين هذا الرأي يا فرفارا ألكسييفنا؟

يجب أن أقول لك يا عزيزتي فرفارا ألكسييفنا أنني قضيت ليلة رائعة، على خلاف ما أتوقع، فملأني ذلك غبطة وبهجة. إنّ المرء لا ينام نوماً طيباً في الليلة الأولى من إقامته في سكن جديد. فهو لا يشعر بالارتياح، إذ لا بد أن يكون أمرًا من الأمور على غير ما يحب أن يكون! ولكنني نهضت من فراشي في الصباح جَمّ النشاط شديد الفرح أشبه بصقر. إنها لمتعة حقا! وما كان أجمل الصباح في هذا اليوم، يا ماتوشكا، لقد فتحت النافذة في مسكننا: فكانت الشمس تسطع، وكانت الطيور تغرّد، وكان الهواء مفعماً بأشذاء الربيع. الطبيعة تعود إلى الحياة، فإذا كل شيء يفعل ما تفعله الطبيعة، ويجري على ما يريده الربيع. حتى لقد أخذت أحلم أحلاماً جميلة لذيذة؛ وكانت أحلامي تنصرف اليكِ يا فارنكا، فأشبهك بطائر صغير من طيور السماء خُلق فرحة للبشر وجمالاً للعالم. وحلمت عندئذ، يا فارنكا، أننا معشر الذين نعيش في هموم الحياة على الأرض ونضطرب من أعاصيرها، يجب علينا أن نحسد طيور السماء- وكانت سائر أحلامي من هذا القبيل، ومن هذا النوع؛ أعني أنني ظللت في أحلام اليقظة هذه، أعقد مقارنات عجيبة وأنشئ تشبيهات خارقة. إنَّ عندي، يا فارنكا، كتاباً يقول هذه الأشياء نفسها، ويستعمل ألفاظاً كهذه الألفاظ، واذا كنت أكتب إليك في هذه اللحظة، فلأن أحلامنا قد تبلغ هذا المدى من التنوّع يا ماتوشكا. نحن في الربيع، والخواطر التي توافيني ممتعة جداً تتدفق حياة وتفيض قوة، وتحمل إليّ معاني رقيقة مفعمة بالحنان، كل شيء يبدو لي وردياً. لذلك أكتب إليك هذا كله. والأصح أنني قرأت هذا كله في كتابي الذي يعبّر مؤلفه عن هذه العواطف نفسها شعراً فيهتف قائلاً:

ألا ليتني طير، ألا ليتني صقر

الخ..........

هناك أفكار أخرى كثيرة في هذا الكتاب. ولكن ما فائدة نقلها إليك الآن؟ الأحرى أن تقولي أنت أين ذهبتِ في هذا الصباح يا فرفارا ألكسييفنا. لم أكن قد تركت منزلي إلى عملي حين خرجتِ من غرفتك كطائر صغير من طيور الربيع، واجتزت فناء المنزل وقد بدا في وجهك ذلك الفرح كله. ما كان أشد سعادتي حين تأملتك في تلك اللحظة! آه يا فارنكا، لا تبكي، ولا تنتحبي. إنّ الدموع عاجزة عن دفع الشقاء. أنا أعرف ذلك بالتجربة يا ماتوشكا. لقد هدأت حياتك الآن كثيراً، وتحسنت صحتك بعض التحسن. بالمناسبة، كيف حال صاحبتك فيدورا؟ يا لها من امرأة طيبة شهمة!... اكتبي لي يا فارنكا كيف تعيشين معها الآن، وهل أنت راضية عن كل شيء. إن فيدورا شرسة بعض الشراسة، أنا أعرف ذلك، ولكن لا تعبئي ولا تحفلي يا فارنكا، واغفري لها، لأنها طيبة جداً.

سبق أن حدثتك عن تيريز هذه التي تخدمنا هنا، والتي تملك هي أيضاً قلباً طيباً، وتستحق الثقة. كنت شديد القلق بشأن رسائلنا، لا أعرف كيف أوصلها إليك. فإذا بالرب يرسل إلينا تيريز هذه من أجل سعادتنا. إمرأة ممتازة، رقيقة الحاشية، دمثة الطبع، وليست ثرثارة أبداً. ولكن صاحبة بيتنا لا يعرف قلبها الرحمة ولا الشفقة في الواقع. فهي ترهقها بالعمل وتعاملها أسوأ مما تعامل خرقة بالية.

ليتك تعرفين هذا المسكن المضحك الذي وقعت عليه يا فرفارا ألكسييفنا! يا له من مسكن! تعلمين أنني قد عشت حتى الآن حياة شديدة العزلة كثيرة الهدوء. وكان كل شيء عندي صامتاً صمتاً يبلغ من

الإطباق حد أنه لو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها. أما هنا فالصخب جهنَّمي: صراخ لا ينتهي... إنني لم أصف المنزل حتى الآن. هناك، أولاً، دهليز طويل، شديد العتمة والظلمة، كثير الوساخة والقذارة؛ فعلى اليمين جدارٌ عارٍ كل العري، وعلى الشمال غرف تتتابع تتابع الحجرات في فندق. هذه هي الغرف المؤجَّرة ورُبّ غرفة يسكنها شخصان أو ثلاثة أشخاص. أما الترتيب فما ينبغي أن يخطر على بال. نحن هنا في سفينة نوح. ولكن يجب الاعتراف بأن الأشخاص الذين يقيمون في هذه الغرف لطاف ظرفاء، وهم جميعاً على جانب من الثقافة والعلم. أحدهم موظف (مستخدم في إدارة تختص بالأدب) يملك ثقافة واسعة إلى أقصى حدود السعة، فهو مثلاً يتكلم عن هوميروس وعن براميثيوس وعن كثير من الكتاب أيضاً، لأنه يعرف كل شيء. رجل ذكيٌّ جداً. وهناك ضابطان لا يفعلان سوى أن يلعبا بالورق طوال الوقت. ثم هناك ملازم بحّار، وإنجليزي يعطي دروساً. اسمعي: سأحاول، من أجل أن أسليك وأسرّي عنك، أن أصفهم لك وصفاً لاذعاً في رسالتي المقبلة أي أنني سأصفهم لك على حقيقتهم تفصيلاً. أما ربة المنزل فهي امرأة عجوز قصيرة جداً، وسخة، تظل تتبختر طوال النهار بالبابوج وثوب المنزل، لا تعمل شيئاً غير تقريع تيريز من الصباح حتى المساء. وأنا أسكن في المطبخ، إني... لا... إليك كيف يجب شرح الآمر: هناك غرفة إلى جانب المطبخ (جدير بالذكر أن عندنا مطبخاً نظيفاً جداً مضيئاً ومريحاً) غرفة صغيرة، ركن صغير متواضع... أو قولي على وجه أدق إن المطبخ قاعة واسعة ذات ثلاث نوافذ وضعوا حاجزاً على طول جدارها فأصبح هناك غرفة جديدة، غرفة إضافية إن صح التعبير. هي غرفة واسعة جداً، مريحة جداً، لها نافذة، ولها كل ما يجب؛ كل شيء فيها جيد: ذلك

هو ركني. لا ينبغي يا ماتوشكا أن يبدو لك هذا غريباً، ولا تجدي فيه شيئاً غامضاً أو شيئاً من سر. لماذا أسكن في المطبخ؟ صحيح أنني أسكن الآن في هذه الحجرة، أقصد وراء الحاجز، ولكن لا ضير في هذا. إنني أعيش في هذه الحجرة منعزلاً، بعيداً عن الآخرين، أحيا حياة هادئة. وقد وضعت في الركن سريراً ومنضدة وخزانة وكرسيين، وعلّقت أيقونة. صحيح أنه من الممكن العثور على مساكن أفضل من هذا المسكن، وربما كان هنالك مساكن أفضل منه كثيراً. ولكن الراحة هي الأمر الهام قبل كل شيء. ومن أجل الراحة إنما جئت إلى هنا، إياك أن تتخيلي أنني جئت لسبب آخر من الأسباب. ونافذتك الصغيرة تقع أمام نافذتي تماماً، وفي الجهة الأخرى فناء العمارة، وهو فناء ضيق جداً أراك فيه حين تمرّين، فهكذا تصبح الحياة أكثر بهجة عند هذا البائس الشقي، الذي هو أنا. ثم إن الأجر أبخس كلفة. إنّ أجر أحقر غرفة هنا يبلغ مع ثمن الطعام خمسة وثلاثين روبلاً ورقاً. وذلك مبلغ باهظ بالنسبة إليّ. أما في ركني فإنني أدفع أجره سبعة روبلات. فاذا أضفت إلى ذلك خمسة روبلات فضة ثمن الطعام، بلغ المجموع أربعة وعشرين رويلاً، ونصف روبل، ولقد كنت أنفق قبل ذلك ثلاثين روبلاً مع حرمان نفسي من أشياء كثيرة. كان يندر أن أشرب شيئاً من شاي أما الآن فقد أصبحت أملك ما أشتري به شاياً وسكراً. إذا لم أشرب الشاي هنا شعرت بحرج كبير، يا عزيزتي. ذلك أن جميع المستأجرين أناس ذوو يسار، فيخجلني أن لا أشرب الشاي وأنا بينهم. فبسببهم إذن إنما أشرب شيئاً من الشاي يا فارنكا، حفاظاً على المظهر، ولولا ذلك ما فعلت، لأنني لا أحرص على الشاي نفسه حرصاً شديداً. لست من شاربيه المولَعين به. هناك عدا هذا بعض النفقات النثرية، لا بد من بعض النفقات رغم كل شيء...

وثمة نفقات أخرى لا مناص منها لحذاء أنتعله ومعطف أتدثّر به. فماذا يبقى بعد ذلك؟ هذا راتبي كله قد طار سريعاً. لست أشكو ولا أتذمّر. فأنا سعيد، وراتبي كاف. ثم إنني أتقاضى بعض المكافآت من حين إلى حين. والآن وداعاً يا ملاكي العزيز. لقد اشتريت لك أصيص عصيفرة، وغرنوقاً، ليس باهظ الثمن. أتراك تحبين زهرة البليحاء أيضاً؟ توجد بليحاء في مخزن أصص الأزهار. فاكتبي إليَّ اذا أردت أن أشتري لك منها. واذكري لي في رسالتك كل شيء تفصيلاً. بالمناسبة، أحب أن أرجوك أن لا تقلقي عليّ، فتظني الظنون يا ماتوشكا، لا تحملي سكناي في حجرة كهذه على غير محمله لا... لا... إنني لم أفعل ذلك إلّا نشداناً للراحة. الراحة وحدها هي التي أغرتني. ذلك أنني أدَّخر بعض المال يا ماتوشكا: اعرفي هذا. إنني أملك الآن بعض المال على سبيل الاحتياط. لا تخطئي في التقدير فتظني أنني مسكين بائس يمكن أن تقلبه بعوضة بلطمة من جناحها. لا يا ماتوشكا، لست بالرجل التافه الذي لا قيمة له... إن لي إرادة تليق برجل صلب العزيمة رابط الجأش هادئ النفس. وداعاً يا ملاكي الصغير. كتبت لك هذه المرة صفحتين كاملتين، وقد آن أن أمضي إلى عملي. أقبّل أناملك الرقيقة الجميلة العزيزة، وأظل يا ماتوشكا، خادمك الذليل الأمين:

ماكار دييفوشكين

حاشية: أتوسل إليك خاصة يا ملاكي الطيب أن تردّي على رسائلي ماضية في سرد التفاصيل إلى أبعد حد ممكن. وأبعث إليك مع هذه الرسالة برطل من المربَّب هنيئاً مريئاً، لا تقلقي علي، ناشدتك الله، ولا تغضبي. والآن وداعاً يا ماتوشكا.

8 نيسان (أبريل)

عزيزي السيد ماكار ألكسييفتش

هل تعلم أننا قد ننتهي إلى التخاصم والتشاجر؟ أقسم لك يا عزيزي الطيب ماكار ألكسييفتش، أنه يشقّ على نفسي أن أقبل هداياك. لأنا أعرف كم تكلفك هذه الهدايا، وأعلم مدى التضحيات التي تقدمها في سبيلي حارماً نفسك من أشياء لا غنى عنها. سبق أن قلت لك مراراً إنني لا أحتاج إلى شيء، لا أحتاج إلى شيء البتة، وإنني غير قادرة على أن أردَّ إليك إحساناً بإحسان، وأن أقابل جميلك المنهمر عليّ انهمار المطر بجميل مثله. ما عساني صانعة بجميع أصص الزهر هذه؟ هبني ارتضيت العصيفرات الصغيرة، فلماذا الغرنوق أيضاً؟ أيكفي أن تفلت مني كلمة واحدة، كما حدث في أمر هذه الزهرة، حتى تسارع إلى شراء ما جاء ذكره على لساني سهواً وغفلة؟ لا شك أنها كلفتك مبلغاً باهظاً. ولكن ما أروع هذه الأزهار بشكلها المتصالب ولونها الأحمر. ومن أين حصلت على هذا الغرنوق الأخّاذ الفتّان؟ لقد وضعت الأصيص وسط النافذة في أبرز مكان، ووضعت على أرض الغرفة مقعداً سأصفّ عليه أزهاراً أخرى: أنتظر أن أصبح غنية أنا أيضاً. إن فيدورا في ذروة السعادة. لكأن غرفتنا أصبحت جنّة حقاً... كل شيء فيها مضيئ نظيف. ولكن لماذا بعثت إليّ بالمربب أيضاً؟ ولقد أدركت منذ قرأت الأسطر الأولى من رسالتك أن هناك أشياء لا تجري على ما يرام. إنك تتكلم عن الربيع والأشذاء والطيور التي تغرد. لم يبق إلّا أن تنظم أشعاراً، وهذا ما قلته لنفسي وأنا أقرأ رسالتك. اسمع يا ماكار ألكسييفتش: أما عن ستارة نافذتي فانني لم يخطر ببالي قط أن أشدها، ولا شك

أنها علقت مصادفة حين كنت أزحزح أصيص الأزهار. أقول هذا من باب ذكر الواقع.

آه يا ماكار ألكسييفتش، مهما تقل من كلام، ومهما تكن طريقتك في إجراء حسابات مواردك من أجل أن تبرهن لي زوراً على أنك تستعملها في قضاء حاجاتك أنت، فلن تصل إلى إخفاء الحقيقة عني. إنه لواضح كل الوضوح أنك تحرم نفسك من الأشياء الضرورية في سبيلي. لماذا تقيم في مسكن كهذا المسكن مثلاً؟ إنك لا تترَك في هذا المنزل هادئاً مرتاحاً، بل تزعَج في كل لحظة.

ولا شك في أنك متضايق، ولا شك في أنك لا تتمتع بشيء من أسباب الراحة. أنت تحب العزلة، وها أنت ذا في خان يعجّ بالناس. كان في وسعك أن تعيش في ظروف أفضل كثيراً من هذه الظروف، بالقياس إلى راتبك. إنّ فيدورا تؤكد أن مسكنك السابق أفضل من مسكنك هذا كثيراً، وأن الثاني لا يقارن بالأول على أية حال. هل يمكنك حقاً أن تكون قد قضيت حياتك كلها على هذه الصورة، في العزلة والحرمان، بلا فرح يشرق في قلبك، بلا كلمة رقيقة من صديق، دائماً بين غرباء، في غرفة مؤثثة؟ لشد ما أرثي لحالك يا صديقي الطيب، هلا راعيت صحتك على الأقل يا ماكار ألكسييفتش! تقول إن بصرك يضعف: عليك إذن أن تتجنب الكتابة على ضوء الشموع. وفيمَ الكتابة أصلاً؟ لا شك أنّ رؤساءك قد أصبحوا يعرفونك ويعرفون حماستك لعملك ونشاطك في أداء واجبك.

أضرع إليك مرة أخرى: لا تنفق في سبيلي كل هذا الذي تنفقه. أنا أعرف أنك تحبني كثيراً، ولكنك لست غنياً... لقد استيقظت أنا أيضاً مشرقة المزاج في هذا الصباح. فكنت أشعر بأنني قوية الجسم سعيدة

النفس. وحين استيقظت كانت فيدورا قد بدأت تعمل منذ مدة طويلة. وقد جاءت بشغل لي أنا أيضاً، فخرجت أشتري حريراً، ثم شرعت أعمل على الفور. ولبثت الصباح كله أشعر بالغبطة والبهجة. ولكن ها هي ذي الخواطر السود الحزينة تعود فتستبد برأسي وتهصر قلبي.

ما عسى يقع لي يا رب؟ ما عسى أن يكون مصيري؟ إنه لأمر قاس على نفسي أن أجدني حائرة هذه الحيرة، قلقة هذا القلق، لا أرى أمامي مستقبلاً، ولا أستطيع أن أتخيل، ولو من بعيد، ما قد يحدث لي بعد. أما النظر إلى خلف، فلا شجاعة لي عليه. ما من شيء في هذا الماضي إلّا آلام مبرحة وعذاب شديد. إنّ قلبي ليتمزق تمزقاً متى تذكرت. إنّ عيني لا تملك من الدموع ما يكفي للبكاء إلى آخر أيام حياتي مما نالني به الأشرار من أذى، وما ألحقوه بي من ضرر.

المساء يهبط. يجب أن أستأنف شغلي. كنت أود لو أقول لك أشياء أخرى كثيرة. ولكن وقتي لا يتسع، لأن عليَّ أن أسلّم الشغل في تاريخ محدد، فلا بد من الإسراع فيه. صحيح أن الرسائل شيء رائع، وأنها تحسن إليّ وتسرّي عني. ولكن لماذا لا تجيء. لقد رأيت صاحبتك تيريز. أعتقد أنها مريضة جداً. أشفقت عليها ورقَّ قلبي لها فأعطيتها عشرين كوبكا. ها... نعم... نسيت: يجب قطعاً أن تكتب إليّ واصفاً لي حياتك ذاكراً كل ما تستطيع ذكره من تفاصيل. من هم الناس الذين يحيطون بك؟ هل أنت على وفاق معهم؟ أحب أن أعرف شيئاً عن كل هذا. سوف أرفع زاوية الستارة عامدة متعمدة في هذا اليوم. ثم إني أرجوك ألا تتأخر في النوم. إن كل شيء يبدو لي اليوم حزيناً عابساً داعياً إلى الشجن باعثاً على اليأس. وداعاً.

المخلصة لك

فرفارا دوبروزيولوفا

8 نيسان (أبريل)

سيدتي العزيزة فرفارا ألكسييفنا

حقٌّ ما قلتِهِ يا ماتوشكا، يا صديقتي العزيزة، حق ما قلته وا أسفاه: لقد كان يوماً مشؤوماً أضيف إلى أيام حياتي الشقية ومصيري البائس. نعم... لقد سخرت مني سخراً جميلاً يا فرفارا ألكسييفنا، سخرت مني، أنا العجوز المسكين. هي غلطتي على كل حال، وإني لأستحق أن ألام. ما حاجتي، وأنا في هذه السن وليس على رأسي من الشعر إلّا خصلة، ما حاجتي إلى الاندفاع في غراميات وإشكالات... يجب أن نعترف يا ماتوشكا أن الإنسان كائن غريب عجيب في بعض الساعات، غريب جداً، عجيب جداً. رباه رباه، أي شيطان يدفع الإنسان إلى الكلام أحياناً؟ ما جدوى هذا الكلام؟ لا يخرج من هذا الكلام شيئ، لا يخرج منه شيء البتّة، ولا يؤدّي إلّا إلى مواقف سخيفة حمانا الله منها ووقانا شرّها. لا ياماتوشكا، لست غاضباً، ولكنني أشعر بغضاضة حين أتذكر ما كتبته لك، وأحس بالخجل من اندفاعي في التعبير على ذلك النحو الغبي بذلك الأسلوب المصور. لقد مضيت إلى عملي في هذا الصباح ممتلئاً بحماسة خاصة. كنت قد عنيت بزينتي وهندامي، وكان كل شيء في نفسي مشرقاً. كانت نفسي في ما يشبه العيد بهجة وحبوراً، دون ما داع إلى ذلك. كنت فرحاً. وأخرجت أضابيري بهمة ونشاط. فماذا أعقَب ذلك كله؟ لا شيء. ألقيت نظرة حولي، فرأيت كل شيء في هذا المكتب كالحاً حزيناً على عهدي به. بقع الحبر نفسها، الأدراج نفسها، القراطيس نفسها. وأنا أيضاً ما تغيرت، ما زلت كما كنت، فمالي وما للشعر إذن؟ من أين طلع لي هذا الكلام؟ ألأن الشمس كانت أكثر دفئاً،

ولأن السماء كانت أسطع ضياء؟ أيكون هذا هو السبب. وكيف أمكنني أن أتكلم عن الأشذاء والهواء المعطر، والله يعلم كم كان في فناء المنزل من قاذورات، تحت نوافذ شقتنا تماماً. لقد توهمت إذن أنني أتنشق تلك العطور من جنون أصابني في تلك اللحظة. أوهام. إنه ليتفق للمرء أن يخطئ تقدير ما يشعر به هو نفسه، وأن يسترسل في ترّهات سخيفة. والذنب في ذلك كله إنما هو ذنب هذا الطيش في قلبنا المندفع. وعدت إلى منزلي، بل قولي: جررت نفسي جرّاً حتى بلغت منزلي. كان في رأسي صداع شديد أصابني فجأة من غير سبب. هي القصة نفسها (لا شك أن هواءً بارداً لفح ظهري). كنت قد ابتهجت بالربيع، فلم أرتدِ ملابس دافئة. ألا ما أغباني، ولكنك قد أخطأتِ تقدير حقيقة عواطفي قليلاً، يا صديقتي العزيزة، فالحق أن اندفاع قلبي كان له اتجاه آخر غير ما تصورتِ أنت له من اتجاه. إنّ عاطفة أبويه هي التي كانت تهزني، يا فرفارا ألكسييفنا، عاطفة أبوية محضة، ولا شيء غير ذلك. إنني الآن بمثابة أب لك أيتها اليتيمة البائسة! أكلمك هنا بصراحة كاملة ومودة خالصة، كما يفعل إنسان يمتّ إليك بقربى وثيقة. ثم إنني أمت إليك ببعض القربى: هي قربى بعيدة جداً، أعلم ذلك، أعلم ذلك، قربى تشبه الغلية السابعة للشاي، على ما يقول المثل الروسي. لكنني قريبك مع ذلك، وأنا أعدّ نفسي في هذه الساعة قريبك وحاميك الأقرب، ما دمت لم تعرفي إلّا الخيانة والغدر لدى من كان يجب أن يقدموا لك العون والحماية في ما أنت فيه من شقاء. أما عن الأشعار فيجب أن أقول لك يا ماتوشكا إنه من غير الحشمة في مثل سني أن ينظم المرء شعراً... ما الشعر إلّا هذر ولغو. وفي أيامنا هذه يجلد الصبيان في المدرسة اذا هم تعاطوه... ذلك... ما يتعلق بهذه النقطة يا ماتوشكا.

ولماذا تحديثيني يا فرفارا ألكسييفنا عن راحة مسكني وهدوء حياتي وعن أشياء أخرى من هذا القبيل؟ لست بالإنسان الكثير المطالب يا ماتوشكا، ولم تكن ظروف حياتي في ماضيات أيامي خيراً منها الآن. ففيم تكون لي مطامح وقد بلغت هذه السن؟ إنني أطعم إذا جعت، وأملك ما أشتري به كساء وحذاء. فماذا يريد أمثالنا فوق ذلك؟ إننا لم نولد أبناء كونت. لم يكن أبي من طبقة النبلاء، ولقد عاش مع أسرته كلها حياة أفقر من حياتي، ولأنه لم يكن يكسب ما أكسب. لست بالولد الذي أفسده الدلال. ومع ذلك، ومن أجل أن أذكر لك الحقيقة كاملة، أعترف أن كل شيء في مسكني القديم كان خيراً من كل شيء في مسكني الآن، ولا وجه للمقارنة بين الاثنين. كنت أشعر هناك بحرّية لا أشعر بمثلها هنا. صحيح أن مسكني الحالي ليس سيئاً هو أيضاً، وربما كان يوجد من البهجة هنا ما لم يكن يوجد منها هناك، إن ها هنا شيئاً من التنوّع في أقل تقدير، فلست أتذمّر إذن من المسكن الجديد؟، ولكني أشعر بشيء من الأسف والحسرة على القديم. إننا معشر الشيوخ أو الذين طعنوا في السن قليلاً، نتعلق بالأشياء القديمة تعلقنا بأصدقاء قريبين كل القرب. لقد كانت الشقة الأولى ضيقة، كما تعلمين، وكانت جدرانها- ما فائدة الكلام على هذا؟- شبيهة بسائر الجدران... ليس هذا ما أعنيه... ولكن ذكرى الماضي تملأ نفسي حنيناً وتبعث في قلبي حزناً وكآبة... ألا ما أغرب هذا الأمر: إن قلبي منقبض، مع ذلك تبدو لي هذه الذكريات ممتعة. حتى ما كان يسوؤني أيامئذ من عيوب تلك الحياة الماضية، بل وما كان يحنقني ويثير غيظي من تلك العيوب في بعض الأحيان، يبدو في الذكرى خالٍ من جوانبه المظلمة وينبجس في خيالي صورة مغرية جذابة. لقد عشنا هناك حياة هادئة ساكنة يا

فارنكا، أنا وصاحبة الدار، تلك العجوز الشهمة الطيبة التي توفيت. هأنذا أعود فأشعر بالحزن حين أتذكر تلك العجوز. كانت امرأة ذات نخوة، لم تكن تتقاضى مني أجراً باهظاً. كانت لا تني تحيك أغطية بإبر طويلة، وتضمها بعضها إلى بعض قطعة قطعة. كان ذلك شغلها الوحيد. وقد اشتركنا في نفقات التدفئة، فكان في وسعنا أن نعمل على طاولة واحدة. وكانت حفيدتها ماشا تعيش إلى جانبها: لقد عرفتها طفلة، ويجب أن تكون الآن في الثانية عشرة من عمرها. كانت صبية «عفريتة» لا تنقطع لحظة عن المرح، وكانت تسلينا كثيراً. هكذا كنا نعيش نحن الثلاثة. وما أكثر ما كنا نتحلق حول المائدة المستديرة في ليالي الشتاء الطويلة نشرب الشاي ثم نستأنف العمل. وكان يتفق للعجوز أن تتوقف عن الحياكة أحياناً، فتأخذ تقص على «العفريتة» بعض الحكايات لتضمن بقاءها هادئة ساكنة. ما كان أجمل الحكايات التي تعرفها! إنّ رجلاً ناضجاً عاقلاً يستطيع أن يصغي إليها بلذة لا تقل عن لذة الطفل. نعم... كان يتفق لي أن أشعل غليوني وأصيخ بسمعي إلى هذه الأقاصيص حتى لينسيني ذلك عملي. أما الصغيرة، عفريتتها اللطيفة، فتصبح ساهمة شاردة اللب، وقد أسندت خدها المتورد على ذراعها الدقيقة، وفتحت فمها الصغير الجميل، حتى إذا أخافتها القصة قليلاً شدت جسمها إلى جسم العجوز شداً قوياً. ما كان أعظم متعتنا بالنظر إليها! وكنا من فرط استغراقنا في بعض الأحيان لا نلاحظ أن الشمعة توشك أن تتلاشى، ولا نسمع هبات الريح في فناء الدار ولا إعصار الثلوج. كانت حياتنا ممتعة هنالك، نحن الثلاثة، يا فارنكا. قضينا معاً قرابة عشرين عاماً. ولكن هأنذا أثرثر خارج الموضوع... لعل هذه الأمور لا تهمك. ثم إن هذه الذكريات تثير أشجاني وتجعلني حزين النفس،

لا سيما في هذه اللحظة، ساعة الغسق... إن تيريز تذهب وتجيء، والصداع يحطم رأسي، وفي ظهري آلام أيضاً. يضاف إلى ذلك أن الخواطر التي تغزو فكري غريبة شاذة، وكأنها مريضة هي أيضاً.
أنا اليوم حزين يا فارنكا... في رسالتك نقطة تدهشني يا صديقتي العزيزة. كيف تستطيعين أن تطلبي مني أن أجيئك زائراً؟ ما عسى يقول الناس، يا ملاكي الصغير؟ هل فكرت في هذا؟ سيكون عليّ أن أجتاز الفناء من أجل أن آتي اليك، فيلاحظ جيراننا ذلك ويأخذون يطرحون الأسئلة تلو الأسئلة، فيؤدي هذا إلى ثرثرات ثم إلى نمائم وإشاعات، لأنهم سيسيئون تأويل العلاقات التي بيننا... لا، لا يا ملاكي الصغيرة، الأفضل أن أراك غداً في الكنيسة عند الصلاة في الغروب. ذلك أقرب إلى العقل والحكمة، وأبعد عن المخاطر لنا كلينا... لا تؤاخذيني يا ماتوشكا، على هذه الرسالة المضطربة المشوَّشة. لقد أدركت حين أعدت قراءتها أنني خبطت فيها خبط عشواء. ما أنا، يا فارنكا، إلّا رجل عجوز بلا ثقافة! لم يتَحْ لي أن أصيب في صغري قسطاَ كافياً من العلم، وليس في مثل سني يستطيع المرء أن يثقف نفسه، ففي هذه السن لا تدخل الأشياء رأس الإنسان بسهولة. أنا أعلم يا ماتوشكا أنني غير حاذق في فن الكتابة، ولست أجهل، من دون أن ينبهني أحد إلى ذلك ساخراً مستهزئاً، أنني لا أزيد على أن أراكم السخافات فوق السخافات حين أنقطع لكتابة عبارات أرفع قليلاً... رأيتك اليوم في النافذة، رأيت كيف أسدلت الستارة. وداعاً وداعاً. أسأل الله أن يكلأك برعايته، وداعاً يا فرفارا ألكسييفنا.

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

حاشية: لست أهجو أحداً يا صديقتي العزيزة. أنا رجل عجوز يا ماتوشكا، يا فرفارا ألكسييفنا... وهل لعجوز أن يتسلى بأن يكون شريراً بغير داع ولا سبب! ثم إنني لو فعلت لسخر الناس مني، على حد قول المثل الروسي القديم «من حفر حفرة لغيره وقع فيها...»

عزيزي السيد ماكار ألكسييفتش

كيف لا تستحي يا ماكار ألكسييفتش، يا صديقي الطيب، يا من تحسن إليّ وتنعم عليّ، كيف لا تستحي أن تغضب هذا الغضب كله وأن تستاء هذا الاستياء كله دون ما سبب؟ هل جرحت شعورك؟ واأسفاه، إنه ليتفق لي أن أكون طائشة قصيرة النظر، قليلة التروي، ولكن لم يخطر ببالي أبداً أنك ستحمل أقوالي محمل الغمز والسخر. ثق أنني لن أسمح لنفسي يوماً بان أمزح في أمر سِنّكَ وطبعك. إنّ مَرَدّ هذا كله إلى خفّتي وطيشي، ولا سيما إلى الضجر الرهيب الذي أشعر به، والسآمة المضنية التي تأخذ بخناقي... وأنت تعلم إلى أين يمكن أن يدفع بالمرء ضجره وسأمه. كنت قد قدرت، من جهتي، أنك أنت أيضاً كنت تمزح في رسالتك. لكنني حزنت حزناً شديداً بعد ذلك، حين أدركت أنك استأت مني. لا يا صديقي الطيب، يا من تحسن إلي، وتنعم علي، إنك تخطئ إذا ظننتني عديمة الإحساس عاقة قليلة الوفاء. إنني في أعماق قلبي أعرف كيف أقدر كل ما فعلته من أجلي، حين حميتني من الأشرار، وحين نجيتني من اضطهادهم ومن بغضهم وكرههم. لسوف أظل أدعو لك الله ما حييت، فإذا وصل دعائي إلى السماء واستجاب الله له، عشتُ سعيدةً.

أشعر اليوم أنني مريضة جداً. إنّ بي حمىّ تتخللها قشعريرات.

فيدورا قلقة عليّ أشد القلق. تخطئ إذا تحرَّجت من زيارتنا. هذا أمر لا شأن لأحد من الناس به. أنت صديق لنا وكفى... وداعاً يا ماكار ألكسييفتش. ليس عندي ما أقوله الآن غير هذا، ولا أستطيع الآن أن أكتب أكثر مما كتبت، لأنني مريضة ومتعبة جداً. أرجوك مرة أخرى أن لا تؤاخذني، وأن تثق كل الثقة بالاحترام الذي أتشرّف بالشعور به نحوك دائماً. خادمتك الوفية المخلصة:

فرفارا دبروزيولوفا

12 نيسان (أبريل)

ماذا جرى لك يا ماتوشكا؟ إنك تسببين لي قلقاً لا يهدأ ولا ينقطع، إنني أضرع إليك في كل رسالة من رسائلي أن تعتني بنفسك، وأن تتدثري بملابس دافئة وألّا تخرجي في غير أيام الصحو وأن تكوني محاذرة في كل أمر من الأمور، ولكنك لا تريدين أن تطيعيني يا ملاكي الطيب، حقاً إنك لطفلة يا حمامتي الصغيرة. إنّ جسمك ضعيف واهن، إنّك أشبه بعصافة قش. أعلم ذلك، يكفي أن تهبّ عليك نسمة هواء حتى تمرضي. لذلك يجب أن تدراي نفسك، وأن تراعي صحتك، وأن لا تتعرضي للخطر، وأن لا توقعي أصدقاءك في الحزن والشجن والألم. تقولين لي يا ماتوشكا إنك ترغبين في معرفة مجرى حياتي معرفة دقيقة صحيحة، ومعرفة كل ما يحيط بي. إنه ليسعدني ان أسارع إلى تلبية رغبتك يا صديقتي العزيزة. وسابدأ بالبداية، إذ لا بد من شيء من الترتيب. هذا مدخل المنزل أولاً: إنه ملائم جداً، والسلالم لا مأخذ عليها، ولا سيما السلم الخاص بالسادة، فهو نيّر واسع عريض، لا يقع بصرك فيه إلّا على معدن

وخشب من شجر الأكاجو. أما سلم الخدمة فمن الخير ألا أقول عنه شيئاً: إنه لولبيّ، وهو إلى ذلك رطب قذر، ودرجاته مهشمة نصف تهشيم. يضاف إلى هذا أن جدرانه مطليّة بالدهن إلى حد أن اليد تلتصق بها اذا هي استندت عليها. وعلى كل فسحة من فسحاته بقايا أثاث قديم، فالحقائب والكراسي والخزائن مبعثرة فوضى، والخرق البالية منثورة هنا وهناك، وزجاج النوافذ محطم، وفي الأركان صناديق ملأى أوساخاً ونفايات وقشور بيض وأحشاء سمك. رائحة كريهة. الخلاصة: شيء ليس بالجميل.

وقد سبق أن وصفت لك وضع الغرفة. لا مأخذ على الغرفة. إنها مريحة جداً والحق يقال. ولكن المرء يشعر فيها بشيء من الاختناق. كيف أصف لك ذلك؟ ليس معنى هذا أن الرائحة كريهة. غير أن المرء يحس بشيء من عفونة، بشيء من نَتَن حاد. فيضيق ذرعاً بهذا الإحساس في أول الأمر. ولكن هذا الإحساس ما يلبث أن يزول بعد بضع دقائق من المكوث في المنزل، من دون أن يشعر المرء بزواله. ذلك أن الرائحة التي أحدّثك عنها سرعان ما تنفذ إلى الشخص نفسه. فإذا الرائحة كلها هي هذه الرائحة نفسها، فملابسه، ويداه تصبح لها هذه الرائحة ذاتها، فلا يلاحظها بعد ذلك لأنه يألفها. البلابل تموت في منزلنا واحداً بعد آخر.. اشترى الضابط البحار بلبلاً خامساً منذ قليل. ولكن هذه الطيور لا تستطيع أن تعيش في هواء منزلنا. في الصباح تمتلئ الدار بالدخان طبعاً، وذلك حين يُقلى اللحم أو يُطبخ السمك. ثم إن أرض المنزل مبللة في مواضع كثيرة، بالماء تارة، وبالمرق تارة أخرى. أما في المساء فمنزلنا جنة حقاً. وهناك حبل في المطبخ يعلَّق عليه غسيل عتيق. ولما كانت غرفتي غير بعيدة عن

المطبخ، أو مجاورة للمطبخ، فإن رائحة هذا الغسيل تضايقني أحياناً. ولكن ذلك كله لا قيمة له. فالمرء يعتاده بمضيّ الزمن شيئاً فشيئاً.

ومنذ الساعات الأولى من الصباح يقوم المنزل ويقعد يا فارنكا. الناس ينهضون ويسيرون ويحدثون ضجة كبيرة. جميع الذين يجب أن يذهبوا إلى العمل يسرعون. والآخرون يستيقظون أيضاً. وهم يشربون الشاي من السماور، وتملك صاحبة البيت أكثرها، ولما كان عددها قليلاً، فنحن نحتسي الشاي واحداً بعد آخر. فإذا تقدم أحدهم بفنجانه قبل أن يجيء دوره تلقّى لطمات تلو لطمات. وهذا ما حدث لي في اليوم الأول، لأنني لم أراعِ هذا النظام كما فهمت... ولكن لماذا الكلام على هذا الآن؟ لقد تعرفت على جميع جيراني. عقدت حديثاً في أول الأمر مع الضابط البحار. إنه إنسان صريح جداً حكى لي قصة حياته، حدثني عن أبيه، وعن أمه، وعن أخته التي تزوجت قاضياً من تولا، ووصف لي مدينة كرونشتاد. وَعَدَ بمساعدتي وحمايتي في كل أمر، ودعاني إلى تناول الشاي في غرفته. وقد ذهبت إليه. إنها الغرفة التي اتخذت مقراً للعب بالورق في منزلنا. قدّموا إليّ شيئاً من الشاي، وأرادوا أن يدفعوني إلى مشاركتهم في اللعب دفعاً. لا أدري هل كانوا يسخرون مني آنذاك. ولقد ظلوا يلعبون طوال الليل بغير توقف. كان اللعب في أوج اشتداده حين دخلت الغرفة: فما رأيت في أول الأمر إلّا الطباشير وورق اللعب، لأن الغرفة كانت ملأى بدخان السجائر، حتى لقد أحسست من ذلك بألم في عينيّ. وحين رفضت أن أشاركهم اللعب وصفوني بأنني أتفلسف، ثم لم يخاطبني أحد منهم بعد ذلك بكلمة واحدة، والحق أن ذلك لم يسوءني. لن أذهب إليهم في المستقبل. هؤلاء أناس مقامرون لا يخطر في بالهم

شيء غير القمار، ولا يفكرون في شيء غير هذا النوع من اللعب الذي يقوم على المصادفة. وفي غرفة الموظف في الإدارة المختصة بالأدب، تنعقد اجتماعات في المساء أيضاً، ولكن كل شيء هنالك طيب محتشم بريء يفيض رهافة وذوقاً وسموّاً.

يجب ان أذكر مع ذلك عابراً يا فارنكا، أن صاحبة البيت امرأة شريرة بل ساحرة شمطاء. لقد رأيتِ تيريز. إنّ منظرها يثير الرحمة ويبعث على الشفقة حقاً: هي من فرط هزالها تشبه أن تكون دجاجة مصدورة نُتف ريشها. وفي البيت خادمان فقط: تيريز، وفالدوني خادم صاحبة البيت. ربما كان له اسم آخر، لكنني لا أعرفه، لأنه يُنادى بهذا الاسم دائماً. جميع من في المنزل ينادونه بهذا الاسم. هو أحمر اللون، عجيب الجسم، معقوق القامة، أفطس الأنف، شرس الطبع، فظ الخلق، لا يني يتشاتم مع تيريز، حتى ليصل الأمر بهما إلى حد التماسك بالأيدي. بوجه عام، لا أستطيع أن أقول إن حياتي هنا ممتعة من جميع النواحي... أما عن الليل، فلا يتفق لي أبداً أن أستطيع النوم فوراً في هدوء وراحة. لا يخلو المنزل لحظة من ضجة تقوم هنا أو هناك، فتارة يأتي الصخب من غرفة المقامرين، وتارة ينبعث من أمور أخرى تجري هنا ويستحي المرء أن يرويها. لقد تعودت بعض التعوّد الآن، ولكن يدهشني حقاً أن يستطيع أناس لهم أولاد أن يعيشوا في هذا المكان الذي يشبه مدينة سدوم. إن هناك أسرة بكاملها من البؤساء قد استأجرت غرفة من صاحبة الدار. غير أن غرفتهم لا تقع إلى جانب الغرف الأخرى. فهي في آخر الدهليز، وفي ركن يشبه أن يكون منعزلاً. هم أناس هادئون كل الهدوء، لا يُسمع لهم صوت قط ويعيشون جميعاً في

غرفة واحداة شطروها بحاجز إلى شطرين. يبدو أن الأب موظف بلا عمل، صُرف من الخدمة لسبب أجهله. اسمه جورشكوف. إنه قصير القامة، أشيب الشعر، يرتدي ملابس تبلغ من القذارة والبلى أن منظرها يؤلم النفس. ملابسه خرقة بالية أكثر من ملابسي، إنّ هيئته الرثة تبعث على الشفقة، وتدل على أنه مريض (يتفق لي أن أصادفه في الدهليز). ركبتاه تصطكان، ويداه ترتعشان، ورأسه يرتجف، كأن به مرضاً خاصاً. الله أعلم. وهو خجول، شديد الخجل، يخشى لقاء الناس، ويمشي محاذراً لا يحب أن يلمحه أحد. أنا أيضاً خجول، ولكن هذا الرجل أشد خجلاً مني. تتألف أسرته من امرأة وثلاثة أولاد. أكبرهم صبيّ هو صورة عن أبيه، لا يقل عنه نحولاً وهزالاً. أما المرأة فيبدو أنها كانت في الماضي على جانب من جمال ما يزال يُلمح إلى الآن، ولكنها رثة الثياب رثاثة تثير الشفقة. وقد قيل لي أنهم اقترضوا مالاً من صاحبة البيت، وهي قاسية عليهم غير لطيفة في معاملتهم. وسمعت أيضاً أن جورشكوف يعاني من مصاعب هي سبب بطالته. ليس الأمر أمر دعوى أو ملاحقة قضائية، بل هو أمر تحقيق إداري فيما يبدو. غرفتهم هادئة دائماً، تبلغ من الهدوء أن المرء يظن أن ليس فيها سكان. حتى الأطفال لا يحدثون صخباً، فما يسمعهم أحد يصرخون أو يركضون، وتلك علامة سيئة. لقد اتفق أن مررت أمام بابهم ذات مساء. كان ذلك في لحظة هدأ فيها المنزل على غير عادته، فسمعت تأوّهات كأنها نشيج مخنوق، ثم سمعت همسات، تلاها نشيج من جديد. كان هناك أحد يبكي ولكن بصوت خافت مزق قلبي أسى وشفقة وقبض صدري شجى وحزناً، ثم لم تفارق صورة هؤلاء البؤساء خيالي لحظة طوال الليل، ولم أستطيع أن أنام إلّا بعد لأي.

الوداع يا صديقتي الغالية. يا صغيرتي فارنكا. لقد وصفت لك حياتي كما استطعت. لم أزد على أن أفكر فيك طوال النهار. قلبي يتحطم يا عزيزتي الغالية حين أستعرض الوضع الذي أنتِ فيه. إنك تفتقرين حتى إلى معطف تتدثرين به، أنا أعرف ذلك يا حياتي. آه من ربيع بطرسبرج هذا!... آه من هذه الرياح وهذه الأمطار التي يخالطها ثلج!... تلك لعنة يا فارنكا. وهذا جوٌّ لا يُطاق. وقانا الله شر هذا المناخ الرديء. لا تؤاخذيني يا روحي، يا صغيرتي، إذا رأيت رسالتي مضطربة هذا الاضطراب. إنّ أسلوبي ركيك يا فارنكا، ركيك جداً. ألا ليتني أجيد الكتابة بعض الإجادة. أنا أقول ما أقول عفو الخاطر... لا همّ لي من ذلك إلّا أن أسليك قليلاً... ولو كنت قد تعلمت في صغري لاختلف الحال. ولكن أين كان في وسعي أن أتعلم؟... كنت أفقر من أن أستطيع الدراسة.

صديقك المخلص الوفي، صديقك إلى الأبد

ماكار ديفوشكين

25 نيسان(أبريل)

عزيزي السيد ماكار الكسييفتش!

التقيت اليوم بابنة عمي ساشا، يا للهول! إنها تدلف إلى الذبول والهلاك هي أيضاً؛ ولقد علمت كذلك من جهات مختلفة أن آنّا فيودورفنا ما تزال تسأل عني وتستطلع أخباري. ترى ألن تكف هذه المرأة عن تعذيبي واضطهادي؟ هي تدّعي أنها مستعدة أن تصفح عني وتغفر لي، أن تنسى الماضي، وأن تأتي لتزورني بنفسها. وهي تؤكد أنك لا تمت إليّ بأية قرابة، وأنها أقرب إليّ منك، وأنك لا تملك حق التدخل

في علاقتنا العائلية، وأن من العار عليّ، بل من المشين لي، أن أعيش على برِّك وإحسانك بقبولي معونتك المالية... إنها تصفني بأنني نسيت خيراتها عليَّ، ونسيت الخبز الذي طعمته في بيتها، وتقول إنها أنقذتنا أنا وأمي يوم كنا نوشك أن نموت جوعاً، وأنها آوتنا وأطعمتنا وأرهقت نفسها في سبيلنا طوال عامين ونصف العام، وأنها فوق ذلك كله قد أعفتنا من سداد المال الذي ندين لها به. إنها لا تراعي حتى حرمة أمي! آه لو استطاعت أمي المسكينة أن تعلم بكل ما صنعوه بي... وتدعي آنّا فيدوروفنا أيضاً أنني لم أعرف كيف أحافظ على سعادتي، وأن حماقتي هي السبب في ذلك، وأنها أرادت أن تسعدني، ولكنها غير مذنبة في ما حدث بعد ذلك، لأنني لم أعرف وربما لم أشأ أن أحمي شرفي وأدافع عنه. من المذنب إذن يا رب؟ إنها تؤكد أن بيكوف على حق تماماً، وأنّ الرجل لا يتزوج أول امرأة تعرض له.. ولكن لماذا أنقل إليك هذا الكلام؟ إنه ليشق على نفس المرء أن يسمع مثل هذه الأقوال الظالمة يا ماكار ألكسييفتش. لا أدري ماذا ينتابني الآن، فجسمي كله يرتعش، وأبكي وأنتحب. أنفقت ساعتين في كتابة هذه الرسالة لك. كنت أحسب أن هذه المرأة ستعترف على الأقل بما ارتكبته من أخطاء في حقي، فانظر كيف تتصرف الآن! ناشدتك الله لا تقلق ولا تعذب نفسك يا صديقي، يا صديقي المخلص الوحيد. إنّ فيدورا تبالغ دائماً: فما أنا بمريضة. كل ما في الأمر أن برداً أصابني أمس فسبب لي زكاماً فيما كنت ذاهبة إلى فولكوفو لحضور صلاة الموتى التي أقيمت احتفالاً بذكرى أبي. لماذا لم تأتِ معي؟ ألم أتوسل إليك أن تجيء؟ أماه، أماه المسكينة، ليتك تستطيعين أن تخرجي من قبرك فتعرفي وتري ما صنعوه بي...

ف.د

20 أيار (مايو)

حمامتي، عزيزتي الصغيرة فارنكا!

أبعث إليك بقليل من العنب يا يمامتي. يقال إنّ أكل العنب مفيد في أثناء النقاهة، ثم إن الطبيب ينصح به إرواء للظمأ، فكليه إرواء للظمأ وحده، ولقد اشتهيت منذ أيام قليلاً من الخبز الصغير الأبيض. فهأنذا أرسل إليك منه أيضاً يا موتوشكا، هل تشتهين الطعام يا حياتي؟ هذا هو الأمر الهام. على كل حال لقد انتهى المرض والحمدالله، انقضى، وستزول جميع آلامنا زوالاً تاماً. فلنشكر لله نعمه، أما عن الكتب فقد استحال عليَ أن أحصّل شيئاً منها حتى الآن. يقال إن في منزلنا كتاباً رائعاً كتب بأسلوب جميل. يزعمون أنه كتاب شائق جداً. لم يتح لي أن أقرأه. ولكنهم يمدحونه كثيراً هنا. وقد وعدوني به. لكن هل ستقرئينه؟ إنني أعرفك يا ملاكي، وأعرف أنك صعبة في هذا المجال، فليس يسهل الوصول إلى إرضاء ذوقك دائماً. لا شك أنك تنشدين شعراً وآهات وغزلاً... فليكن لك ما تريدين... سأحصل لك على قصائد، سأجد ما أنت بحاجة اليه. لقد رأيت في أحد الأماكن دفتراً مليئاً قصائد شعر. حياتي ممتعة جداً. لا تقلقي عليَّ يا ماتوشكا، أرجوك. إنّ ما روته لك عني فيدورا ليس إلّا هذراً. قولي لها إنها كذبت، قولي هذا الكلام حتماً لهذه النمّامة... لم يخطر ببالي أبداً أن أبيع ردائي الجديد، وعلام أبيعه؟ فكري في الأمر، ما حاجتي إلى بيعه؟ سأتقاضى مكافأة قدرها أربعون روبلاً فيما يقال. فعلام أبيع ردائي والحالة هذه؟ لا تقلقي يا ماتوشكا. فيدورا إنسانة متشائمة، تحمّل كل شيء محمل الفاجعة والمأساة، لسوف نعيش سعداء يا يمامتي. شريطة أن تشفي من مرضك. ناشدتك الله ألا

حرصتِ على ذلك... لا تُحزني رجلاً عجوزاً. من ذا الذي زعم لك أنني قد هزلت ونحلت؟ باطل هذا الكلام، باطل. إن صحتي جيدة جداً، حتى لقد سمنت، وبلغت من السمنة حداً يجعلني أخجل من نفسي. إنني آكل متى جعت، وأنا مسرور ومبتهج، وعندي وفرة من كل شيء. المهم أن تشفي من مرضكِ يا ملاكي الصغير! الوداع الآن! أغمر بالقبل أناملك الصغيرة وأبقى إلى الأبد:

صديقك الوفي، صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

حاشية: ما هذا الذي كتبته لي عن حياتي؟ ذلك الطيش يا عزيزتي؟ كيف تراك تفكرين في الأمر؟ كيف يمكنني أن أكثر زياراتي يا ماتوشكا إلى الحد الذي تتصورينه؟ قد أستطيع زيارتك ليلاً بحيث لا يراني أحد. ولكن أين الليل في هذا الفصل؟ ثم إنني لم أكد أترك سريرك، يا ملاكي الطيب، طوال مدة مرضك، ولا سيما أثناء الغيبوبة التي كنت فيها. إنني لا أدري كيف استطعت أن أرتب أموري بحيث وصلت إلى ذلك. ولكنني آثرت أن أقطع زياراتي بعد ذلك. لقد بدأ الناس يستطلعون ويلقون الأسئلة، حتى لقد أخذت بعض الألسنة تلوك الإشاعات هنا. أنني أعتمد على تيريز، فهي امرأة كتوم لا تفشي الأسرار. ولكنني أحتكم إليك أنت يا ماتوشكا، ما عسى يحدث إذا عرفوا كل شيء عن علاقتنا؟ ما عساهم يظنون وما عساهم يقولون؟ عليكِ بالصبر إذن يا ماتوشكا، وتجمَّلي بالشجاعة، وانتظري حتى تبلّي من مرضك، وبعد ذلك نرتب أمورنا بحيث نلتقي في مكان خارج المنزل.

1 حزيران (يونية)

عزيزي الغالي جداً ماكار ألكسييفتش!

لرغبتي الشديدة في أن أفعل شيئاً يسرك، جزاء ما تحملت في سبيلي من عناء كثير، وما عانيت من هم شديد، وجزاء ما محضتني من عاطفة صادقة، فقد قررت أخيراً في لحظة من فراغ ان أنبش دروج خزائني لأعثر فيها على الدفتر الذي أرسله إليك الآن، والذي سجلت فيه بعض ذكرياتي. لقد بدأت كتابة هذه الذكريات في عهد كان ما يزال سعيداً من حياتي. لطالما سألتني عن حياتي الماضية وعن أمي، وعن بوكروفسكي، وعن إقامتي في منزل آنّـا فيدوروفنا، وعما لقيت أخيراً من شقاء، وقد بلغت من شدة شوقك إلى قراءة هذا الدفتر الذي لا يعرف إلّا الله كيف خطر ببالي أن أروي فيه قصة بعض ساعات حياتي، إنك واجد في قراءته ريّاً لظمئك ما في ذلك ريب؛ لذلك أبعث به إليك. أما أنا فقد شعرت بحزن شديد حين أعدت قراءته. يخيل إليّ أن سنيّ قد تضاعفت مرتين منذ كتبت آخر سطر من سطوره الآن. إنّ المشاعر التي يتحدث عنها هذا الدفتر قد سُجّلت في فترات مختلفة. وداعاً يا ماكار ألكسييفتش. إنني أشعر بسأم شديد وضجر رهيب، وكثيراً ما أظل مسهدة طوال الليل لا يعرف جفني سبيلاً إلى النوم. ألا إنها لنقاهة حزينة شجية.

ف.د

كنت قد أتممت الرابعة عشرة من عمري حين مات أبي. كانت طفولتي أسعد فترات حياتي. لقد بدأت طفولتي في مكان بعيد عن هنا، بعيد عن هذه المدينة. بدأت في مقاطعة نائية من الريف. كان أبي ناظراً على أملاك الأمير ب، في حكومة ت. كنا نعيش في قرية من تلك

القرى التي يملكها الأمير، وكانت حياتنا في تلك القرية تجري على هون، هادئة سعيدة... كنت عندئذ صبية جمّة النشاط كثيرة الحركة، أقضي وقتي راكضة بين الحقول، مطوقة في الغابات والآجام، أو متنزهة في الحديقة. ولم يكن أحد يهتم بي أو يلتفت إليّ... فأبي دائم الانصراف إلى أعماله وأمي تستغرق عنايتها بالمنزل وقتها كله. ما كانوا يعلّمونني شيئاً، بل كانوا يدَعونني وشأني حرة طليقة، وكنت سعيدة بذلك كل السعادة. وكان يتفق لي في بعض الأحيان أن أهرب من البيت في ساعة مبكرة من الصباح فأمضي إلى الغديرأو إلى الغابة، أو أذهب أرى الأعلاف، أو أجري إلى الحصّادين أختلط بهم وأشاركهم عملهم، غير عابئة بالشمس التي تحرقني، غير خائفة أن أضل طريقي اذا ابتعدت عن القرية، أو أن تخدشني أشواك العوسج وأن تمزق ثوبي. لهذا كانوا يؤنّبونني حين أعود إلى البيت، وقد كنت لا أبالي بذلك ولا أحفل به.

يخيل إليّ أنني لو أتيح لي أن أبقى في الريف طول حياتي وأن أعيش في ذلك المكان عمري كله لكنت سعيد كل السعادة. ولكنني اضطررت أن أترك تلك المراتع الجميلة العزيزةعلى نفسي وأنا ما أزال طفلة. كنت في الثانية عشرة من عمري حين سافرنا إلى بطرسبرج. ما أشد الحزن الذي أشعر به الآن حين أتذكر استعداداتنا الشاقة الأليمة للسفر! ما أكثر ما ذرفت من دموع حين ودّعت كل ما كان حبيباً إلى قلبي! أذكر أنني ارتميت على حضن أبي أضرع إليه والدموع تترقرق في عينيّ، أن يدعني في القرية بعض الوقت. فغضب مني أبي، وأخذت أمي تبكي، وقالت إن سفرنا أمر لا بد منه، فأعمالنا توجبه وتقتضيه فلا مناص من السفر. لقد مات الأمير العجوز ب، ففسخ ورثته العقد الذي

كان مبرماً بينه وبين أبي. وكنا نملك شيئاً من مال عهد به أبي إلى بعض الأفراد في سان بطرسبرج. ولما كان يأمل أن يحسّن وضعه، فقد رأى أن من اللازم أن يسافر إلى تلك المدينة بنفسه. ذلك كله قد علمته من أمي. واستقر بنا المقام على الجهة اليمنى من الشاطئ، ولبثنا مقيمين هنالك إلى أن مات أبي.

لشد ما لقيت من عناء حتى أتلاءم مع حياتنا الجديدة. وصلنا إلى سان بطرسبرج في أوج الخريف. كان الجو في القرية يوم غادرناها رائعاً، فالهواء رائق، والمناخ دافئ، والشمس مضيئة. وكانت أعمال الحصاد تشارف على النهاية. فبيادر القمح تتجمع أكواماً كبيرة، وأسراب الطيور تحوم حولها مزقزقة. كان كل شيء يبدو فرحاً ينبض سعادة. حتى إذا وصلنا سان بطرسبرج استقبلتنا الأمطار وصقيع الخريف والضباب والوحل وهذا الجمهور من الناس الذين لا نعرفهم يجرون في الشوارع عابسين مقطّبين مزورّين مستائين، واستقررنا كيفما اتفق... ما زلت أذكر كيف كنا في الأيام الأولى نذهب ونجيء بغير توقف ولا انقطاع إذ كان علينا أن نهيئ مسكننا الجديد.

كان أبي خارج البيت دائماً، وكانت أمي لا تملك من وقتها دقيقة واحدة، ونُسيت أنا نسياناً تاماً. ما أشد الحزن الذي اعتراني حين نهضت من نومي بعد الليلة الأولى التي قضيناها في منزلنا الجديد! كانت نوافذ المنزل تطل على سياج أصفر اللون، والشارع قذر دائماً، لا يمرّ به إلّا قليل من الناس، وهم يرتدون جميعاً ثياباً دافئة، ويظهر في وجوههم أنهم مقرورون.

وفي منزلنا يرين الضجر وتسود الكآبة من الصباح إلى المساء. لم

يكن لنا أصدقاء أو أقرباء. أما آنّا فيدوروفنا فكان أبي تشاجر معها (كان يدين لها بمبلغ من المال)، وكثيراً ما كان يجيئنا زوّار لأعمال. فكان هؤلاء الزوار يحملون إلى المنزل شجاراً وصياحاً وزعيقاً. وكان أبي بعد كل حديث من الأحاديث التي تجري بينه وبينهم يصبح مكفهرّ الوجه سريع الغضب، ولا يني يسير من أول الغرفة إلى آخرها ذاهباً آيباً ساعات طوالاً. وقد قطّب حاجبيه، وصمت صمتاً مطبقاً لا يتجه إلى أحد بكلمة. وكانت أمي لا تجرؤ أن تخاطبه في مثل تلك اللحظات، فهي تلزم الصمت ولا تنبس بحرف. وكنت أنا أجلس في ركن مع كتاب من الكتب، لا أتحرك مخافة أن ألفت الانتباه إذا أنا تحركت.

وبعد وصولنا إلى سان بطرسبرج بثلاثة أشهر أُدخلت مدرسة داخلية. ما أشد ما شعرت به من حزن في أول الأمر بين غرباء! كان كل شيء يبدو لي هناك بارداً معادياً. فالمربيات لا يزدن على أن يصحن طوال الوقت، والبنات لا ينقطعن عن الاستهزاء بي والسخرية مني، وأنا بين هؤلاء وأولئك في تلك الآونة متوحشة شديدة التوحش. إنهن قساة عتاة، يندفعن إلى التوبيخ والتقريع لأتفه الأمور وأيسر الأسباب. وكل شيء يجري هناك على نظام دقيق ومواعيد ثابتة جامدة. والطعام مشترك والأساتذة مملون مضجرون. شعرت في الأشهر الأولى بأنني مصعوقة كانني أُسحق سحقاً. وأصبحت لا أستطيع أن أنام. وكان يتفق لي أن أظل أبكي طوال الليل... وكانت الليالي تنقضي طويلة كئيبة باردة. ما زلت أراني في بعض الأماسي، ساعة تحضّر التلميذات دروسهن للغد، جالسةً أمام دروسي لا أجرؤ أن أتحرك، وقد انصرف ذهني إلى غير ذلك

ورحت أفكر في منزلي، في أبي، وفي أمي، وفي مرضعتي العجوز، وفي الحكايات الجميلة التي كانت تقصّها عليّ... آه ما أشد الحزن الذي كان ينتابني في تلك اللحظات! إن أيسر أمر من الأمور التي لها صلة بحياتي في المنزل كان يبدو جميلاً أخاذاً حين أتذكره فجأة. كنت أحلم قائلة لنفسي: ما أجمل الحياة في منزلنا! ما أجمل أن أقبّل أمي قبلات حارة وأن أشد جسمي إليها شداً قوياً! هكذا كنت أحلم ثم أطفق أبكي من الحنين بكاء صامتاً، فأخنق النشيج ولا أدع له أن ينطلق من صدري. ولم أكن أستطيع أن أحفظ دروسي... «لن أستطيع الإجابة غداً إذا ألقى عليّ الأستاذ سؤالاً» وكنت أظل طوال الليل أحلم بالأستاذ و«المدام» والبنات، وأكرر دروسي وأنا نائمة، حتى اذا جاء الغد ودخلت الصف رأيتني لا أعرف ولا حفظت شيئاً. فكنت أُعاقَب بالركوع والحرمان من الطعام. وصرت فتاة حزينة أشد الحزن، برمت بالحياة أشد البرَم. كانت التلميذات في أول الأمر يهزأن بي ويسخرن مني ويماحكنني، ويتسلين ببث الاضطراب في نفسي حين أتلو دروسي، ويقرصنني حين نصطف لنذهب إلى الغذاء أو العشاء، ويشكونني إلى الناظرة بغير ذنب اقترفته وبغير داع إلى ذلك. وفي مقابل ذلك ما كان أروع الجنة التي أحس أنني أدخلها حين كانت تجيء مرضعتي في مساء يوم السبت لتقودني إلى المنزل! كنت أكاد أختنق وانا أضمها إلى صدري فرحةً... يا لها من عجوز رائعة!... كانت تلبسني ثيابي، وتدثّرني بما يقيني البرد، ثم تتحمل عناء كبيراً من أجل أن تستطيع مجاراة خطواتي في الشارع بينما أنا أثرثر بغير توقف أقصّ عليها جميع تفاصيل حياتي. وكنت أصل معها إلى البيت فرحة مرحة سعيدة، فأقبّل أهلي مندفعة أشد الاندفاع كأنني لم أرهم منذ عشر سنين. ويأخذ الجميع يتكلمون

ويسألون ويحكون. وآخذ أحييهم واحداً واحداً، وأضحك مقهقهة، وأركض هنا وهناك، وأقفز وأتواثب في كل ركن من أركان الغرفة. وكان أبي يسألني في أمور هامة، ويكلمني عما أحرز من تقدم في اللغة الفرنسية، وعن كتاب قواعد اللغة الفرنسية (من تأليف لومون) فكنا نشعر في مثل تلك الأمسيات بكثير من الفرح والبهجة. ما زلت حتى اليوم أغتبط حين أستحضر هذه الذكريات. كنت أبذل قصارى جهدي من أجل أن أنجح في دراستي إرضاءً لأبي. كنت أرى أنه ينفق في سبيلي آخر ما يملك من دريهمات، مع أن حالته المالية كانت تتدهور وتتعقد. وكان يزداد عبوساً وتجهّماً يوماً بعد يوم، ويزداد سرعة إلى الاهتياج والغضب والحنق، حتى فسد طبعه وساء مزاجه تماماً. كانت ديونه تتكاثر تكاثراً رهيباً. إنّ أمي تخشى في بعض الأيام أن تبكي مخافة أن تزيده اهتياجاً، بل إنها تمتنع حتى عن الكلام، وسرعان ما أصبحت تبدو مريضة، فهي تهزل هزالاً واضحاً، وهي تسعل سعالاً سيئاً لا يخطئ المرء تفسيره. فكنت في تلك الفترة حين أجيء من المدرسة الداخلية لأزور أهلي، لا أرى إلّا وجوهاً حزينة: أمي تبكي في رفق وهدوء، وأبي يثور ويغضب. وأصبحت هذه الزيارات لا تشتمل إلّا على ملامات وتقريعات. فأبي يصرِّح بأنني لا أحمل إليه أي فرح أو أي عزاء، ويقول إنهما، هو وأمي، يحرمان نفسيهما من كل شيء في سبيل تعليمي، ثم أنا لا أتعلم التكلّم باللغة الفرنسية! الخلاصة أن أبي أصبح يلقي على ظهرنا، أنا وأمي، تبعة كل ما يلقى من ضروب الإخفاق، وكل ما يعاني من صنوف الشقاء. كيف كان يستطيع أن يعذب أمي هذا التعذيب كله؟ كان قلبي يتمزق تمزقاً حين أنظر إليها في بعض الأحيان! لقد خسف خداها وغارت عيناها وأصبح لون وجهها ينم عن مرض السل.

ولكن غضب أبي كان ينصبّ عليّ أنا خاصة: يبدأ في أول الأمر من أجل أمور تافهة، ثم لا يزال يشتد ويشتد إلى أن يبلغ أقصى حدود الغيظ والحنق. حتى لقد كنت في بعض الأيام لا أفهم ما الذي يحنقه هذا الحنق كله. ما أعجب ما كان يُسمعني من كلام في مثل تلك المناسبات! كان يقول إن تعلمي اللغة الفرنسية لا يسير سيراً حسناً، أو أنني غبية بلهاء، وأن مديرة مدرستنا الداخلية ليس في رأسها دماغ، وأنها لا تعنى بتربية أخلاقنا وتهذيب نفوسنا، وأنه- أي أبي- يبحث عن عمل فلا يجد عملاً، وأن كتاب قواعد النحو (من تأليف لومون) لا يصلح، وكتاب زابولسكي أفضل منه كثيراً، وأن الأسرة تنفق المال في سبيل تعليمي سدى، وأنني ابنة ليس لها إحساس، وأن قلبي قُدّ من صخر... والحق أنني كنت أبذل قصارى ما أستطيع من جهد في تعلم دروسي، ولكن هذا لا يمنع أبي من أن يعدّني مسؤولة عن جميع أنواع الشقاء التي تحيق بالأسرة، وأن يراني مذنبة آثمة في كل شيء. ليس معنى هذا أن أبي لم يكن يحبني. فلقد كان يحيا من أجلي ومن أجل أمي، ولكن طبعه أصبح على هذه الحال واأسفاه! كانت الهموم والأحزان وضروب الإخفاق تأكل نفس أبي وتهدمها تهديماً رهيباً. أصبح كثير الشك، شديد الوسواس، سريع الغضب. وكانت تمرُّ به في كثير من الأحيان حالات هي إلى اليأس أقرب. وأخذ يهمل صحته، وأصابه برد في أحد الأيام، فسقط مريضاًعلى حين فجأة. ولم يطل مرضه، فما هي إلّا أيام حتى خطفه الموت بغتة على غير توقع، فصعقنا ذلك صعقاً، ولبثنا أياماً لا نفيق من ذهول هذه الضربة التي نالنا بها القدر. وما انطفأت روح أبي، حتى تكاثر الدائنون كأنهم يخرجون من تحت الأرض، وأخذوا يتوافدون على منزلنا أفواجاً، فاضطررنا أن ندع لهم كل ما كنا نملك، اضطررنا أن

نبيع الدار الصغيرة التي اشتراها أبي على الضفة اليمنى للنهر بعد إقامتنا في بطرسبرج بستة أشهر. لا أدري كيف كان علينا أن ندبر أمورنا بعد ذلك، ولكننا أصبحنا بلا مسكن، وبلا مأوى، وبلا ما يقيم الأود. وكان المرض ما ينفك يضني أمي. كنا لا نملك ما يُطعمنا من جوع... كنا أمام هاوية... وكنت أنا قد بلغت الرابعة عشرة قُبَيل فترة قليلة. وفي ذلك الوقت إنما جاءت الينا آنـّا فيدوروفنا فقالت إنها تملك أطياناً وأنها تمت إلينا ببعض القربى. وكانت أمي تقول إن بيننا وبين آنـّا فيدوروفنا قربى، ولكنها قرابة بعيدة. لم تكن أنا فيدوروفنا قد زارتنا يوماً في أثناء حياة أبي. وهي تزورنا الآن مؤكدة، والدموع في عينيها، أن مصيرنا يهمها كثيراً بل يقضّ مضجعها. وراحت تبكي منتحبة على ما أصابنا من خسران، وعلى ما آل إليه حالنا من شقاء، مضيفة إلى ذلك أن أبي كان سبب ذلك كله، فقد أراد أن يعيش في مستوى لا يناسب موارده، وكان كثير الطموح مسرفاً في الاعتماد على قواه الخاصة. وأعربت عن رغبتها في أن تعرفنا مزيداً من المعرفة، واقترحت أن ننسى الجروح القديمة. ولما قالت لها أمي إنها لم تشعر نحوها بشيء من العداوة في يوم من الأيام، مسحت آنـّا فيدوروفنا عينيها بمنديلها، ثم قادت أمي إلى الكنيسة فأمرت بصلاة على روح أبي المسكين (كذلك قالت) وتصالحت مع أمي على هذه الصورة من الفخامة والأُبّهة.

وبعد أنواع من المواعظ والإرشاد، وبعد سلسلة طويلة من الكلمات والآراء وإسداء النصائح، صوَّرت لنا آنـّا فيدوروفنا الوضع اليائس الذي نحن فيه بألوان وتهاويل صارخة، مبرهنة على أننا مهجورون عاجزون، لا أمل لنا من الخروج من المأزق، ثم دعتنا إلى

أن نلجأ إلى دارها على حد تعبيرها، فشكرت لها أمي ذلك، لكنها ترددت طويلاً. ومع ذلك أدركت أمي أنه ليس هنالك حل آخر، وأن ليس هنالك مخرج غير هذا المخرج. فأعلنت لآنا فيدوروفنا أننا نقبل دعوتها شاكرين ممتنين. ما زلت أذكر ذلك الصباح يوم تركنا منزلنا إلى حي فاسيليف، كأن ذلك حدث بالامس. كان صباحاً من أصباح الخريف مضيئاً جافاً باردًا.

كانت أمي تبكي، وكنت أنا أشعر بحزن رهيب وأحس أن قلبي يوشك أن يتمزق في صدري، وأشعر بكآبه ثقيلة تجثم على صدري، كآبة توشك أن تكون نبوءة لا تفسير لها ولا تعليل... لقد كانت فترة أليمة...

2

في الأوقات الأولى، لم نكن قد ألفنا بعد أنا وأمي مسكننا الجديد، كنا نحس عند فيدوروفنا بكثير من الضيق والغَمّ. كانت آنـّا فيدوروفنا تعيش في منزل تملكه في الحي السادس، وهو مبنى يتألف كله من خمس غرف، تحتل آنـّا فيدوروفنا منها ثلاثة هي وساشا، وهي ابنة عمي الصبية اليتيمة التي ليس لها أب ولا أم، والتي كانت آنـّا فيدوروفنا قد ضمَّتها إليها، ونحتل نحن الغرفة الرابعة. أما الغرفة الأخيرة، المجاورة لغرفتنا، فكان يسكنها طالب فقير اسمه بوكروفسكي، استأجرها من آنـّا فيدوروفنا. كانت مضيفتنا تعيش حياة عريضة، وكانت تبدو أغنى كثيراً مما كنا نظن قبل ذلك. ولكن مصدر مواردها ظل لغزاً بالنسبة إلينا، كسائر مشاغلها التي لا نعلم عنها شيئاً هي الأخرى. كانت آنـّا في حركة دائمة لا تنقطع، ويبدو أن لها مشاغل مستمرة، فهي تخرج من المنزل أو تركب العربة مرات في اليوم. أما ماذا كان نشاطها، وبماذا كانت تهتم أو بمن كانت تهتم، فذلك أمر لم أستطع أن أعرفه. وكانت علاقاتها كثيرة متنوعة. ففي كل لحظة من اللحظات يجيئها ناس لا يعلم إلّا الله من هم، يجيئونها لأعمال ولا يمكثون إلّا لحظات.

كانت أمي تقودني إلى غرفتنا متى رن جرس باب المدخل. وكان موقف أمي هذا يسوء آنـّا فيدوروفنا، فهي لا تنفك تكرر أننا مسرفون في التكبر، وأننا أكثر زهواً وصلفاً مما يسمح به وضعنا وما تتيحه

أحوالنا، وهي ما تنفك تضيف إلى ذلك قولها «وليت هناك ما يدعو إلى التكبر والعجرفة»، وتسترسل في حذلقات لا أول لها ولا آخر. لم أكن افهم يؤمئذ معنى هذه الملامات التي تأخذ علينا الكبرياء والغطرسة ولكنني أفهم ذلك اليوم أو أحزر السبب الذي جعل أمي تتردد ذلك التردد كله قبل أن ترضى السكنى عند آنّـا فيدوروفنا.

كانت آنّـا فيدوروفنا امرأة سيئة. وكانت تسومنا سوء العذاب بغير انقطاع. تلطفت معنا أول الأمر، ولكن طبعها لم يلبث أن ظهر على حقيقته سافراً، منذ لاحظت أننا لا نملك أن ندافع عن أنفسنا إطلاقاً، وأننا لا نعرف أين نذهب. وزاد تلطّفها معي فيما بعد، فكان تلطفاً مزعجاً، مفرطاً، يذهب في المبالغة إلى حد التملّق. ولكنني في الأشهر الأولى تعذبت مثلما تعذبت أمي، إذ كانت أنا فيدوروفنا لا تكفّ عن تقريعنا، وتذكّرنا بإحسانها إلينا وتعطّفها علينا في كل مناسبة من المناسبات. وكانت تقدمنا إلى الغرباء على أننا من ذوي قرباها الفقراء: أرملة وابنتها، لا سَنَد لهما في هذه الحياة، ضمتهما إليها من باب الشفقة الإنسانية والبِرّ المسيحي. فإذا جلسنا إلى المائدة راقبت كل لقمة نأكلها، حتى إذا لم نأكل كانت لها معنا قصة أخرى، فهي تروح تسفهّنا عندئذ مدعية أننا نحتقر ما يؤكل في بيتها عادة، قائلة: «إنها لا تستطيع أن تطعمنا غير ما تملك، وأنها تتمنى لو تقدر أن تأكل هي نفسها خيراً مما تأكل»، ولا يفوتها عندئذ أن تتهجم على أبي فتقول إنه كان يحسب نفسه أعلى قدراً من الناس، وأنه لذلك انتهى إلى ما انتهى إليه من سوء، وأنه ترك امرأته وابنته بلا موارد، فلولا أن أسعفنا الحظ فتداركتنا قريبة كريمة سخية ذات روح مسيحية رحيمة شفوق لنفقنا جوعاً في أحد الشوارع، والله

أعلم. كنا نصغي إلى كلامها لا بمرارة فحسب، بل باشمئزاز أشد من المرارة. وكانت أمي لا تكف عن البكاء. وكانت صحتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. كان واضحاً أنها تذوب وتفنى، وكان علينا مع ذلك أن نعمل من الصباح إلى المساء. فلقد سعينا إلى أن نعمل بخياطة بعض الثياب من خارج المنزل، وكان هذا يسوء آنـّا فيدوروفنا كثيراً فما تنفك تردد أن بيتها ليس صالون أزياء. ولكن كان لا بد لنا من كسب ما يكسونا، ولا بد لنا من ادخار بضعة قروش لما قد يقع من طوارئ ليست في الحسبان. لقد صمَّمنا تصميماً جازماً على أن نملك بعض المال لأنفسنا. فكنا ندخر شيئاً كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، أملاً في أن يتيح لنا ذلك أن نترك هذه الدار ونمضي لنستقر في مكان ما، فكانت قوى أمي تنهَك من هذا العمل، فهي تزداد هزالاً ونحولاً في كل يوم: كان المرض ينخر حياتها كالسوس، ويسير بها نحو القبر خطوة بعد خطوة. كنت أرى ذلك، وأحس بما تعانيه، فما كان أشد ألمي وعذابي! كان ذلك كله يجري على مرأى مني، والأيام تتلاحق متشابهة رتيبة حزينة، ونحن نعيش في عزلة تامة، كأننا انفصلنا عن المدينة، فلسنا منها. وهدأت آنـّا فيدوروفنا بعض الهدوء، إذ شعرت بكمال قدرتها وتمام قوتها شعوراً مليئاً. ولم يكن ليدور في بال أحد أن يعارضها على كل حال. وكان الدهليز يفصل غرفتنا عن الغرف التي تسكنها، وكان جارنا هو الطالب بوكروفسكي كما أسلفت. كان بوكروفسكي يعطي ساشا دروساً في اللغتين الفرنسية والألمانية، وفي التاريخ والجغرافيا. كان يدرّسها جميع العلوم على حد تعبير آنـّا فيدوروفنا، لقاء سكناه وطعامه في الدار بالمجان. وكانت ساشا على جانب عظيم من الذكاء، رغم أنها كثيرة الحركة شديدة الخبث والمكر... كانت أيامئذ في الثالثة عشرة من عمرها. قالت

آنـّا فيدوروفنا لأمي ذات يوم أن من المستحسن أن أنتفع أنا بهذه الدروس، لأن القسط الذي نلته من التعليم في المدرسة الداخلية لا يكفي. فقبلت أمي ذلك راضية فرحة، فدرست مع بوكروفسكي وساشا سنة كاملة. إن بوكروفسكي شاب فقير شديد الفقر، لم تتح له صحته أن يتابع دراسته متابعة منتظمة مطردة. وإذا كان لا يزال يسمّى طالباً فمن قبيل العادة.

كان يعيش حياة متواضعة منزوية صامتة، حد أننا لم نسمع صوته يخرج من غرفته يوماً. كان يبدو غريباً، فهو يمشي مشية رفلاء، ويحيّي تحية خرقاء، وإنه خجول شديد الخجل، فإذا تكلم تكلم على نحو عجيب يلفت النظر ويثير الدهشة. كنت من أول الأمر لا أملك إلّا أن أضحك حين أنظر اليه. وكانت ساشا تكيد له وتمكر به وتدبر له «المقالب» ولا سيما في أثناء الدروس. وكان هو إلى ذلك سريع التأذّي شديد الاهتياج، ما يلبث أن يغضب وأن يزعل، خارجاً عن طوره لأتفه الأسباب، صارخاً ماضياً يشكونا إلى أهلنا من حين إلى حين، عائداً إلى غرفته يحبس نفسه فيها قبل أن ينتهي الدرس. وكان ينفق وقته في غرفته يقرأ. فقد كان يملك عدداً كبيراً من الكتب، بل كان يملك كتباً غالية الثمن نادرة. إن الدروس القليلة التي يعطيها لبعض التلاميذ في المدينة تدرُّ عليه شيئاً من مال، فما إن يتقاضى أجره حتى يسارع إلى شراء كتب.

واستطعت مع الزمن أن أعرفه على حقيقته. إنّ له قلباً من ذهب. فتى جدير بأعظم الاحترام. إنه خير رجل أتيح لي أن ألقاه في هذه الحياة. وكانت أمي تقدّره كثيراً، وقد أصبح بعد ذلك خير صديق لي، بعد أمي طبعاً.

أنا أيضاً، رغم أنني أصبحت فتاة كبيرة، كنت في أول الأمر أتسلى مع ساشا بإغاظته. لقد كان يتفق لنا أن نقضي، أنا وابنة عمي، ساعات برمتها نكدّ ذهننا في تخيل طريقة نستطيع بها أن نناكده مزيداً من المناكدة وأن نخرجه عن طوره. إنه يصبح مضحكاً جداً حين ينفجر غاضباً، فكان ذلك يسلينا كثيراً (إني لأشعر اليوم بالعار وأنا أعترف بذلك). وفي ذات يوم مضينا بمناكداتنا السخيفة إلى حيث رأينا الدموع تترقرق في عينيه، وسمعناه يقول مدمدماً «أطفال شرّيرون». فلما سمعته يقول هذه الكلمات شعرت فجأة بخجل شديد، وأحسست بالعار، وانقبض صدري، واهتزّت نفسي شفقة عليه. أذكر أن وجهي تخضّب يومئذ بحمرة قانية حتى الأذنين، وتوسلت إليه شبه باكية أنا أيضاً أن يهدّئ من روعه وأن لا يؤاخذنا على تصرّفاتنا السخيفة. ولكنه طوى الكتاب فجأة قبل أن ينتهي الدرس ومضى يعتكف في غرفته. ظللت نهاري كله معذبة من تأنيب الضمير وألم الندامة، لا أطيق أن أتصور أننا، نحن الطفلتين، قد دفعناه بقسوتنا إلى البكاء. إذن لقد كنا ننتظر أن نرى هذه الدموع... إذن لقد كنا نتمنى أن نرى هذه الدموع... إذن لقد اشتهينا أن نراه باكياً... واستطعنا أخيراً أن نفقده صبره... لقد حملناه بالقوة، هو التعِس البائس، على أن يزداد شعوراً بحظه الشقي وقدَره الظالم. لم أستطيع سبيلاً إلى النوم ليلتي كلها من فرط الأسف وشدة الحزن وعذاب الضمير. يقال إن تأنيب الضمير يخفف عن النفس...ألا أن هذا لخطأ تماماً... ولقد خالط حزني شيء من الشعور بأن كبريائي قد جرحت... لقد أغاظني أنه عَدَّني طفلة.؟ وكنت يومئذ في الخامسة عشرة من عمري.

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عن هذا الإنسان الذي كان

بين من لقيتهم في حياتي من الرجال أغربهم وأدعاهم إلى العجب وأبعثهم على الشفقة. لئن كنت أتكلم عنه هنا، في هذا الموضع بعينه من مذكراتي، فلأنني لم ألق إليه بالاً إلى ذلك الحين. غير أن كل ما يتصل ببوكروفسكي أخذ يعنيني بين عشية وضحاها.

كنا نلمح في بيتنا أحياناً عجوزاً قصيراً رث الثياب قذر المنظر أشيب الشعر هزيل الجسم أخرق الحركات، عجيباً إلى حد يعجز عن وصفه الكلام، يوحي إلى من يراه من أول نظرة أنه خجل من شيء ما، أو أنه مرتبك بنفسه يضيق ذرعاً بشخصه، فكأنه يقزّم جسمه ويلويه عامداً حتى لا يراه أحد. وهو إلى ذلك يقوم بإشارات وحركات من تلك الإشارات والحركات التي يقدّر من يراها أن صاحبها لا يملك عقله كاملاً. كان هذا العجوز العجيب يصل أحياناً إلى منزلنا، فيتلبّث في الدهليز أمام الباب الزجاجي من دون أن يجرؤ على الدخول. حتى إذا مرَّ أحد منا قرب ذلك المكان- أنا أو ساشا أو خادم يعرف العجوز أنه لا يكرهه- حيّاه صامتاً بحركة من رأسه، وقام بإشارات شتى من يده، ثم لا يدخل إلّا إذا نودي بغمزة تعني أن ليس في الدار غرباء وأن في وسعه أن يدخل: فكان العجوز القصير يشق الباب عندئذ في رفق، وقد تهلل وجهه وانفرج فمه بابتسامة سعيدة وأخذ يفرك يديه غبطة ورضى، ثم يتجه إلى غرفة بوكروفسكي رأساً. إنه أبوه. لقد عرفت بعد ذلك تفاصيل قصة هذا العجوز الفقير. لقد خدم في الماضي في مكان ما: ولكنه لشدة غبائه وتفاهة شخصيته ظل إلى النهاية في وظيفة وضيعة. حتى إذا ماتت زوجته الأولى (والدة الطالب بوكروفسكي) خطر بباله أن يتزوج مرة أخرى، فتزوج فتاة من طبقة صغار البورجوازيين. فما دخلت المرأة الجديدة منزله حتى انقلب

المنزل رأساً على عقب، فهي لا تترك أحداً وشأنه، ولا تدع لأحد أن يعيش هادئاً، وهي مستبدة متسلطة تهيمن على كل شيء وتحب أن يكون لها القول الفصل وأن تسيطر على جميع الناس. وكان الطالب بوكروفسكي في السنة العاشرة من عمره آنذاك، فكرهته زوجة أبيه كرهاً شديداً، وسامته سوء العذاب، ولكن الحظ واتاه، إذ إن رجلاً من كبار الملاكين اسمه بيكوف كان قد عرف أباه في الماضي ورعاه وحماه، تكفل بالاهتمام بالصبي وأدخله إحدى المدارس الداخلية. وقد اهتم الرجل بالصبي لأنه كان يعرف المرحومة أمه التي كانت تتمتع في أيام صباها بنِعَم آنّـا فيدوروفنا وحسناتها، وآنا فيدوروفنا هي التي قدمتها زوجةً للموظف بوكروفسكي. وقد وهب السيد بيكوف، وهو صديق حميم لآنا فيدوروفنا، بائنة قدرها خمسة آلاف روبل، شهامة منه وكرمًا، ولا يعلم أحد أين ذهب هذا المال. لقد عرفت هذه التفاصيل من آنّـا فيدوروفنا. أما الطالب بوكروفسكي فكان لا يحب كثيراً أن يتحدث عن أسرته. يُقال إن أمه كانت على جانب عظيم من الجمال. وإنه ليدهشني أنها ارتضت زواجاً مشؤوماً كهذا الزواج برجل تافه كل التفاهة... وقد ماتت المرأة وهي في ريعان الشباب، بعد زواجها ببضع سنين؛ وانتقل الفتى بوكروفسكي من المدرسة الداخلية إلى المدرسة الثانوية ثم دخل الجامعة. وظل السيد بيكوف الذي كان يتردد كثيراً على سان بطرسبرج، يحميه ويرعاه. ولكن بوكروفسكي اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة بسبب اعتلال صحته. وعندئذ عرّفه السيد بيكوف إلى آنّـا فيدوروفنا، وأوصاها به كثيراً في كثير من الحرارة، فآوته في منزلها ساكناً طاعماً لقاء إعطائه ساشا دروساً في جميع الفروع اللازمة.

أما العجوز بوكروفسكي فإن الحزن الذي كان يسببه له خبث زوجته الثانية قد دفعة إلى أرذل الرذائل دفعاً، فما تكاد تراه الآن إلّا سكران. كانت زوجته تضربه ضرباً مبرحاً، وتجبره على أن يبيت في المطبخ، وبلغت من التسلط عليه أنه انتهى إلى قبول الضرب المبرح بغير احتجاج، وإلى احتمال أنواع الأذى بغير تذمّر أو شكوى. إنه في الواقع أقل شيخوخة مما يبدو. ولكن ميوله السيئة قادته إلى حافة الجنون. وكانت العاطفة الرقيقة الوحيدة التي بقيت له، هي ما يشعر به نحو ابنه من حب ليس له حدود. ويقال إنّ الفتى بوكروفسكي يشبه أمه كما تشبه قطرة من الماء قطرة من الماء. فلعل ذكرى الزوجة الأولى التي أحسنت معاملة زوجها وكانت معه في غاية الطيبة، هي التي ولدت في نفس العجوز المتدهور هذا الحب الكبير نحو ابنه. كان العجوز ممتلئ الفم بذكر ابنه، لا يدور لسانه بكلام إلّا عنه. وكان يأتي لزيارة ابنه خجولاً متردداً، لأن الفتى يكره حضور أبيه. لا شك أن عدم احترامه لأباه هو أكبر عيب فيه. ولكن يجب الاعتراف بأن العجوز كان يصبح في بعض الأحيان ثقيلاً لا يطاق ولا يُحتمل: فهو أولاً شديد الفضول، وهو ثانياً يعوق ابنه عن العمل بالحديث في ما هبَّ ودَبّ من نافل القول وهاذر الكلام، ولا ينفك يلقي عليه الأسئلة تلو الأسئلة، سخيفة تافهة غبية، وهو بعد هذا وذاك يجيئه سكران في كثير من الأحيان. وقد حاول ابنه أن يحمله على الإقلاع عن هذه العيوب، وعن هذه الثرثرة التي لا تنتهي، وعن هذا الفضول الذي لا يعرف شيئاً من القصد... فاستطاع أن يبلغ هذه النتيجة، وهي أن يصغي أبوه إلى كلامه فاغر الفم كأنه يستمع إلى كلام عرّاف من العرّافين، ثم لا يجرؤ أن ينبس بعد ذلك بكلمة من دون استئذان.

كان العجوز المسكين لا يكلّ ولا يمل من الثرثرة بكلمات الإعجاب بابنه العزيز (هكذا كان يسمي ابنه)، ولا يتعب من الشعور بالنشوة والوجد حين يراه. كان إذا جاء يزوره يبدو كالخجلان أو كالمهموم، ربما لأنه غير واثق من أن ابنه سيحسن استقباله. كان في العادة يتردد كثيراً قبل أن يدخل، فإذا وجدتُ مصادفة هنالك، طفق يسألني، خلال خمسة عشرة دقيقة، أو عشرين في بعض الأحيان، عن ابنه: ماذا يعمل؟ كيف هي صحته؟ ما حالته النفسية؟ أهو بسبيل القيام بعمل هام من الأعمال؟ ما الذي يشغله في هذه اللحظة على وجه الدقة؟ أهو يكتب شيئاً؟ أم هو منصرف إلى تفكير عميق؟ حتى إذا طمأنته وشجعته بما فيه الكفاية، قرر أخيراً أن يدخل، فيشق باب غرفة ابنه في رفق وحذر، ويمدّ رأسه أولاً، فإذا لاحظ أن ابنه ليس غاضباً، وأنه يومئ إليه أن يدخل، نفذ إلى الغرفة بخطى لا يُسمع لها صوت، فنضا عنه معطفه البائس وخلع قبعته المجعوكة دائماً، المثقبة في مواضع عدة، المنزوعة الأجنحة تقريباً، وعلق ذلك كله محاولاً في كل حركاته أن لا يحدث إلّا أقل ضجة، فإنه يخشى أن يلفت النظر أو يثير الانتباه. ثم يجلس محاذراً على كرسي، ويثبّت بعد ذلك بصره على ابنه لا يحوله عنه لحظة من اللحظات، متابعاً كل حركة من حركاته ليدرك الحالة النفسية التي يكون فيها عزيزه باتنكا. فإذا لاحظ لدى ابنه أيسر علامة تدل على أنه معكّر المزاج شجيّ البال، نهض عن كرسيه على الفور، موضحاً إنه إنما جاء عابراً، كأن يقول: «لقد قمت بجولة طويلة لقضاء عمل من الأعمال يا باتنكا، فلما مررت أمام منزلك، دخلت عليك لأستريح لحظة»، ثم يتناول معطفه وقبعته في مذلة من دون أن ينبس بكلمة ويفتح الباب في هدوء وصمت كما فتحه حين دخل، وينصرف وهو يتكلف الابتسام كظماً للحزن الذي يفيض به قلبه، وإخفاءً لهذا الحزن عن ابنه.

أما حين يحسن الابن وفادة أبيه، فإن العجوز يشعر عندئذ بفرح لا يوصف. فالسعادة تتلألأ في عينيه، وتترقرق في إشاراته وحركاته. حتى إذا خاطبه ابنه بكلمة عَرَضاً نهض عن كرسيه وأجابه بصوت رقيق ذليل خاضع متملق متزلّف يشيع فيه احترام يشبه أن يكون احتراماً دينياً، وحاول جهده أن يستعمل ألفاظاً «منتقاة» تخرج من فمه باعثة على الضحك في الواقع. كان العجوز لا يجيد التعبير عن ذات نفسه، فإذا هو ينتهي إلى أن يدمدم ويحمحم مرتبكاً أشد الارتباك، فيخفي يديه، ويصغِّر جسمه، ويظل دقائق طويلة يهمهم بكلمات غير مترابطة كأنه يريد أن يصلح جوابه الأخرق. أما إذا اتفق مصادفة أن جاء جوابه مناسباً رأيته يتجرأ ويتجاسر، فيعدل صديرته ويقوّم ياقة قميصه ويصلح رداءه ويبدو أنه يسترد في هذه اللحظات شعوره بكرامته. كان يستعيد عندئذ ثقته بنفسه، ويبلغ من الجسارة في بعض الأحيان أن ينهض عن كرسيه بلا ضوضاء فيدنو من رف الكتب ويستل منه كتابا، أي كتاب، حتى قد يأخذ ويقرأ في الكتاب فقرة من الفقرات على غير هدى أياً كان الموضوع. يفعل ذلك كله متظاهراً بالهدوء متصنّعاً عدم الاكتراث كأن من الطبيعي ومن المسموح له، في أي وقت، أن يتصرف في كتب ابنه، وكأن لطف باتنكا في معاملته أمر لا يدعو إلى الدهشة ولا يبعث على الاستغراب. ولكنني لاحظت، في ذات يوم، الذعر الذي استولى على الشقيّ المسكين حين رجاه بوكروفسكي أن لا يمسَّ كتبه. لقد غاب يومئذ عن رشده، وأسرع يعيد الكتاب إلى مكانه مضطرباً، فإذا هو يخطئ فيضعه مقلوباً، فما كان منه إلّا أن سحبه ثانية ثم أعاده إلى مكانه، ولكنه في هذه المرة جعل ظهر الكتاب إلى الحائط. وكان يبتسم ويحمرّ ولا يدري كيف يكفّر عن جريمته.

استطاع بوكروفسكي بنصائحه أن يصرف أباه عن ميوله السيئة شيئاً بعد شيء. فاذا اتفق أن رآه ثلاث مرات متتالية معتدلاً، دسّ في يده خمسة وعشرين كوبيكاً أو نصف روبل عند انصرافه، أو اشترى له حذاءً أو قميصاً أو صديرة. ليتك ترى الأب عندئذ كيف كان يختال بهديته اختيال الديك. وكان يدخل علينا في بعض الأحيان حاملاً إلينا، أنا وساشا، بعض الفطائرأو بعض التفاح، متحدثاً عن عزيزه باتنكا حديثاً لا ينتهي. وكان في هذه المناسبات يضرع إلينا أن ننتبّه إلى دروس ابنه، وأن نصغي إليها وننتفع بها، مؤكداً أن باتنكا ابن طيبٌ، ابن فَذّ، وأنه إلى ذلك ابن عالم. وكان حين ينطق بهذه الكلمات الأخيرة يغمز بعينه اليسرى غمزاً يبلغ من الوضوح، ويتلوى بجسمه تلوّياً يبلغ من الغرابة، أننا نعجز عندئذ عن كبح جماح نفسَيْنا، فإذا نحن ننفجر مقهقهتين أمام أنفه. وكانت أمي الطيبة تحبه كثيراً. ولكن العجوز كان يكره آنـّا فيدوروفنا كرهاً شديداً، مع محافظته في حضورها على المذلة والخضوع والصمت وطأطأة الرأس. ولم ألبث أن انقطعت عن تلقي الدروس من بوكروفسكي. فلقد كان ينظر إليّ «نظرته إلى طفلة، أو إلى صبية طائشة، ويساوي في المعاملة بيني وبين ساشا، فكان ذلك يؤلمني كثيراً، لأنني كنت أحاول أن أمحو من نفسه آثار سلوكي الماضي، فلا يلاحظ هو هذه الجهود، فكنت أغتاظ من هذا غيظاً ما ينفكّ يزداد يوماً بعد يوم، وصرت لا أكاد أخاطبه بكلمة واحدة في غير أوقات الدروس، ولا أملك من الشجاعة ما يمكنني من مخاطبته، فإذا رأيته أحمرَّ وجهي واضطربت، ثم مضيت أختبئ في ركن من الأركان لأبكي ألماً وحسرة.

لا أدري كيف كان ينتهي هذا كله لولا أن ظرفًا عجيباً ساعد في

التقريب بيننا. ففي ذات مساء، بينما كانت أمي عند آنـّا فيدوروفنا، دخلت غرفة بوكروفسكي على رؤوس الأصابع. كنت أعلم أنه خرج، فخطر ببالي، لا أدري حقاً لماذا، أن ألقي نظرة على غرفته. لم أكن قد دخلت هذه الغرفة يوماً قط، رغم أننا جيران منذ أكثر من عام. أخذ قلبي يخفق هذه المرة في صدري خفقاناً يبلغ من القوة انني أحسست أنه سينفجر. ألقيت على ما حولي نظرات مستطلعة شرهة. إنّ أثاث الغرفة فقير والفوضى تشيع في كل ركن من أركانها: هذه أوراق مبعثرة على الطاولة وعلى الكراسي، ولا تقع العين في كل موضع إلّا على كتب وقراطيس. راودتني فكرة غريبة بينما كان يعتريني في الوقت نفسه شعور مرير بالحسرة والأسف: بدا لي أنه لن يستطيع أن يرضى بصداقتي وبما يحمله له قلبي من حب، فهو رجل واسع العلم كثير الاطلاع جم الثقافة، أما أنا ففتاة بلهاء لا أعرف شيئاً ولا قرأت كتاباً. ألقيت عندئذ نظرة شوق إلى هذه الرفوف الطويلة التي تحمل الكتب حتى لتكاد تتداعى من ثقل ما تحمل وتوزّعتني مشاعر شتى، فأنا في آن واحد نهب الحزن وخيبة الأمل والشوق إلى أن أعمل شيئاً. وتمنيت فجأة أن أقرأ جميع كتبه، أن أقرأها كلها إلى آخرها، أن أفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة. وما لبثت أن عزمت أمري. لعلني تخيلت في تلك اللحظة أنني إذا علمت كل ما كان يعلم، فسأصبح أجدر بصداقته وأخلق بمودته. فأسرعت إلى أول رف، ومن دون أن أفكر أو أن أختار، تناولت أول كتاب وقع عليه بصري، وهو كتاب قديم أغبر، فحملته إلى غرفتي وأنا أحمرُّ وأصفرّ وأرتجف انفعالاً وخوفاً، حملته كما يحمل السارق غنيمته، وأنا أنوي أن أقرأه طوال الليل على ضوء السراج الصغير بعد أن تنام أمي.

ولكن ما كان أشد خيبة أملي حين وصلت إلى غرفتي ففتحت الكتاب مسرعة فلم أجد فيه إلّا نصاً لاتينياً مبسوطاً على أوراق كادت تتلف وكاد العث يقضم نصفها. لم أدع للوقت أن يضيع سدى، فأسرعت أعود إلى غرفة بوكروفسكي. فما كدت أتهيأ إلى إعادة الكتاب إلى موضعه من الرف حتى سمعت ضجة في الدهليز وسمعت وقع أقدام تقترب. فأسرعت ما أمكنني الإسراع أحاول أن أدسَّ الكتاب في مكانه، ولكن الكتاب الخبيث كان قد بلغ من شدة ترصصه بالكتب الأخرى أن هذه الكتب قد تمددت تمدد النابض عندما سحبته من بينها فهي الآن تحتل المكان كله غير عابئة بزميلها الغائب، فلم أقوَ على دسّه في مكانه من جديد، ولكنني حاولت أن أدفع الكتب بكل ما أوتيت من قوة، فإذا بالمسمار الصدئ الذي كان يمسك الرف والذي لعله لم يكن ينتظر إلّا مثل هذه اللحظة حتى يسقط، إذا بهذا المسمار ينكسر فجأة، وإذا بالرف يهوي على أحد طرفيه، وإذا بالكتب تتدحرج على أرض الغرفة محدثة ضجة كبيرة. في هذه اللحظة انفتح الباب ودخل بوكروفسكي الغرفة.

يحسن أن أذكر هنا أنه كان لا يطيق أن يمس أحد أشياءه. وويل لمن يسمح لنفسه بأن يضع يده على كتاب من كتبه. تصوروا إذن ما شعرت به من ذعر حين رأيت كل هذه الكتب المختلفة الحجوم والأشكال والأبعاد (فبعضها دقيق وبعضها سميك، بعضها صغير وبعضها كبير) حين رأيتها تتهاوى عن الرف، وتتدحرج على أرض الغرفة، وتأخذ ترقص تحت المنضدة وتحت الكراسي وفي الحجرة كلها. أردت أن أهرب، ولكن أوان الهرب كان قد فات. قلت لنفسي: «انتهى كل شيء، انتهى كل شيء، لقد ضعت، ضعت تماماً. إنني

أتسلى بارتكاب حماقات كطفلة في العاشرة من عمرها. ما أنا إلّا طفلة بلهاء، ما أنا إلا غبية كبيرة».

غضب بوكروفسكي غضباً رهيباً وصاح بصوتٍ عالٍ: «ما كان ينقصني إلّا هذا، ألا تستحين أن تسلكي هذا المسلك؟ متى تراك تتعقلين؟» وأخذ يحاول أن يلم الكتب. فملت على الأرض أساعده. فصاح مرة أخرى يقول: «لا داعي، لا داعي... خير لك إلّا تدخلي مكاناً ما دعيت إليه».

ولكنه، وقد رقَّ قليلاً لموقفي الذليل، تابع يقول بلهجة أقل غضباً، بلهجة هي لهجة الناصح التي اعتاد أن يستعملها أثناء الدروس، مستفيداً من الحق الذي يخوّله إيّاه أنه كان أستاذي منذ وقت قصير، تابع يقول: «متى تعقلين إذن؟ هلا فكرت في ما تصنعين؟ ما أنت الآن بطفلة، ما أنت الآن بالبنية الصغيرة، لقد بلغت من العمر خمسة عشر عاماً».

وكأنما أراد أن يتحقق من أنني شببت عن الطوق فما أنا الآن بطفلة، فألقى عليَّ نظرة، فإذا هو يحمرّ احمراراً شديداً حتى الأذنين. لم أفهم ما حدث له. كنت واقفة أمامه أحدّق إليه بعينين واسعتين مدهوشتين. ونهض فاقترب مني زائغ النظرة شارد اللب، واضطرب اضطراباً شديداً، ودمدم ببضع كلمات كأنه يعتذر لي عن شيء ما، ربما عن أنه لم يكن قد لاحظ إلى ذلك الحين انني أصبحت فتاة كبيرة. فهمت على الفور. ثم لم أعرف ماذا جرى لي في تلك اللحظة. لقد اضطربت وفقدت سيطرتي على نفسي واصطبغ وجهي بحمرة أشد من الحمرة التي اصطبغ بها وجه دوكروفسكي، فغطيت وجهي بيدي وأسرعت أهرب من الغرفة راكضة.

كنت لا أعرف ماذا أعمل، ولا أين أختبئ من شدة شعوري بالخجل والعار. أيجدني في غرفته؟ إن هذا وحده يبدو لي الآن أمراً لا يغتفر. لبثت ثلاثة أيام لا أستطيع حتى أن أنظر اليه. أصبحت أحمرّ خجلاً حتى لاأكاد أبكي متى لمحته. إنّ زوبعة من الخواطر الرهيبة تدور في رأسي، وتخالطها أفكار مضحكة. من هذه الأفكار العجيبة التي راودتني أن أذهب إليه لأشرح له كل شيء، وأعترف له بكل شيء، أن أقول الحقيقة صريحة، وأن أقنعه بأنني لم أتصرف تصرف طفلة صغيرة حمقاء، وأن الأمر الذي دعاني إلى هذا التصرّف وحضّني عليه ينطوي على نية طيبة حسنة. وقد قررت أن أذهب إليه فعلاً، لولا أن خانتني شجاعتي في آخر لحظة من حسن الحظ، ولله الحمد. إنني أتصور الآن كيف سيكون موقفي لو ذهبت، وكيف كان يمكن أن يكون موقفي لو ذهبت، وأية سخافات وترهات كان يمكن أن ينطلق بها لساني من شدة ارتباكي. ما زلت حتى هذه الساعة أشعر بخجل شديد وعار كبير حين أتذكر تلك اللحظات.

بعد ذلك ببضعة أيام، مرضت أمي مرضاً خطيراً. فلزمت فراشها يومين وانتابتها في الليلة الثالثة حمى شديدة يصحبها هذيان. كنت قد قضيت إلى جانبها ليلة بكاملها لم يغمض لي خلالها جفن، فأنا جالسة قربها أحيطها بالعناية والرعاية، وأسقيها ماء وأجرّعها أدويتها في مواقيتها المحددة. فلما جاءت الليلة التالية شعرت بانهيار في قواي. فالنعاس يستبد بي في بعض اللحظات فيضطرب أمام بصري كل شيء، ويدور رأسي، وأحسّ أنني أوشك أن أسقط إعياء من لحظة إلى أخرى، وكانت تأوهات أمي توقظني في كل مرة، فأنتفض مذعورة، وأفتح عيني خلال ثوان قليلة، ثم ما ألبث أن أرتد إلى

الوسن. لا أدري ولا أذكر هل غفوت بضع ثوان. ولكنني أذكر أنه وافاني حلم غريب، أذكر أن رؤيا مفزعة انبجست في دماغي المرهق الذي استولى عليه النعاس وكان يقاومه. فتحت عيني جزعة هلعة. كانت الغرفة غارقة في الظلام. إن لهب السراج الصغير يحتضر، فكانت أشعة الضياء تنزلق على الجدران، فتارة تتسع فتغمر الغرفة، وتارة تضعف حتى لتزول زوالاً تاماً.

شعرت بخوف مباغت، واستبدّ بي ذعر لا أعرف كيف أفسّره أو أعلله. كان خيالي مضطرباً أشد الاضطراب من ذلك الحلم الرهيب، وكان قلبي منقبضاً أشد الانقباض من فرط الجزع... نهضت منتفضة، وانطلقت من صدري صرخة وأنا فريسة إحساس باختناق مذعور وخوف غامض رهيب. وإني لكذلك إذا بالباب يُفتح، ويدخل بوكروفسكي إلى غرفتنا.

كل ما أذكره أنه كان يسندني من ذراعي حين ثبت إلى شعوري، وأنه أجلسني في رفق واحترام وحذر على مقعد، ومد إليَّ كأساً من الماء وأخذ يمطرني بوابل من الأسئلة. لا أدري بماذا أجبته. ولكنني أذكر انه قال لي وهو يمسك بيدي: «أنت مريضة... أنت أيضاً مريضة جداً. إنّ بك حمى. إنّك تهدمين صحتك تهديماً، ولا تدارين نفسك. هدئي روعك الآن واضطجعي، ونامي سأوقظك بعد ساعتين». ثم من دون أن يدع لي فرصة الاعتراض بكلمة واحدة، كرر يقول: «اهدئي... تمددي، استريحي قليلاً». كان التعب قد حرمني كل قدرة على المقاومة فأطبقت أجفاني. استلقيت على المقعد نصف استلقاء وأنا أنوي أن لا أسهد إلّا نصف ساعة. ولكنني نمت حتى الصباح ولم يوقظني بوكروفسكي إلّا حين آن أوان تجريع أمي الدواء.

استرحت أثناء النهار في اليوم التالي، وفيما كنت أتهيأ للسهر على أمي في الليل جالسة قربها، عازمة في هذه المرة على أن لا أغفو البتة، إذا بباب غرفتنا يقرع. كانت الساعة الحادية عشرة. فتحت الباب فإذا أنا أمام بوكروفسكي.

قال: «قدّرت إنك ستشعرين بالسأم ساهرة وحدك هنا. فجئتك بهذا الكتاب تقرئينه عسى أن يساعدك على تزجية الوقت». تناولت منه الكتاب. لا أذكر ماذا كان عنوانه. بل أشك ان أكون قد فتحته، رغم إنني ظللت ساهرة طوال الليل. إنّ اضطراباً نفسياً غريباً كان لا يتيح لي أن أنام. كنت لا أقوى على البقاء في مكان واحد. فكثيراً ما أترك مقعدي وأطفق أسير في الغرفة. إن نوعاً من فرح عميق ملأ نفسي وأغرق وجودي كله. تأثرت أشد التأثر من التفاتة بوكروفسكي هذه. شعرت بالفخر من اهتمامه بي هذا الاهتمام، ومن تحمله هذا العناء في سبيلي. لبثت الليل كله لا أزيد على ان أتأمل وأحلم. ولم يعد بوكروفسكي. كنت أقدَّر على كل حال أنه لن يعود هذه المرة، وكنت أحاول أن أتصور ما لعله سيحدث في المساء القادم.

وفي مساء الغد، بعد أن رقد كل من في البيت، فتح بوكروفسكي باب غرفته فوقف على العتبة يبادلني الحديث. لم أحفظ شيئاً من الكلام الذي تبادلناه في تلك المرة. كل ما أتذكره ان الخجل قد شلّني وأنني كنت مضطربة، وفي الوقت نفسه غير راضية عن نفسي، حتى لقد كنت أنتظر انتهاء هذا الحديث بصبر فارغ، رغم أنّني تمنيته من أعماق نفسي، حتى لقد كنت أحلم به منذ الصباح، وأهيىء له الأسئلة والأجوبة سلفاً... كان ذلك المساء بداية الصداقة التي انعقدت بيننا. فأصبحنا، طوال مرض أمي، نجتمع في كل ليلة عدة

ساعات. وقد استطعت ان أنتصر على خجلي شيئاً بعد شيء، رغم أن كل حديث بيني وبين بوكروفسكي كان يخلف أمرًا من الأمور يثير عدم رضاي عن نفسي. على أنني كنت ألاحظ بفرح خفي وارتياح مبعثه حب الذات، أنه أصبح يهمل من أجلي كتبه المقيتة. وفي ذات يوم وقع الحديث من قبيل المزاح، على حادثة الرف الذي هوى، والكتب التي تدحرجت على الأرض. كانت لحظة غريبة، أظهرت فيها صراحة مفرطة، وصدقاً بالغاً. إن حمية عجيبة وحماسة شديدة قد دفعتاني إلى أن أقول له الحقيقة كلها...اعترفت له بكل شيء: اعترفت له بأنني أردت أن أثقّف نفسي، وأن أملأ فكري... وأنه كان يحنقني أشد الحنق أن أعَدَّ صبية صغيرة، وأن أعامَل كما تعامل طفلة... أعود فاقول إنني كنت في حالة نفسية غريبة... كان قلبي يضعف، وكانت الدموع تترقرق في عيني... لم أُخفِ عنه شيئاً... بحت له بكل شيء، كل شيء... بالصداقة التي أشعر بها نحوه، برغبتي في أن أحبه، في أن أحيا على صلة به، في أن أكون له عزاء وسلوى، في أن أشجعه وأشد أزره. فكان ينظر إليَّ نظرة غريبة، وقد ذهل عن نفسه، واضطرب وجهه، وعقل لسانه فما يقول كلمة. وأحسست فجأة بمرارة عميقة وحزن كبير. خيل إليَّ أنه لا يفهمني وأنه ربما يسخر مني ويهزأ بي. فطفقت أبكي، وانفجرت أنشج كما تنشج طفلة، عاجزة عن كبح جماح نفسي مزيدا من الكبح. واعترتني تشنجات كأنها تشنجات نوبة عصبية. فامسك بوكروفسكي بيديّ وأغرقهما قبلاً، وضمني إلى صدره، وقال لي كلاما عذباً بصوت مواسٍ رقيق. كان هو نفسه متأثراً أشد التأثر. لا أذكر ماذا قال لي. ولكنني أعرف أنني كنت أبكي وأضحك على التوالي، وأن وجهي قد تخضب بحمرة قانية، وأنني شعرت من شدة فرحي بأنني لا

أستطيع أن أنبس بكلمة واحدة. وكنت أشعر مع ذلك، ورغم انفعالي، بأن بوكروفسكي لا يزال يحس بشيء من الحيرة والحرج والضيق. إنه لم يفق من دهشته التي أثارها فيه اندفاعي وأثارتها فيه حماستي حين أدرك عندي ما أدركه من هذه الصداقة المفاجئة التي تبلغ هذا المبلغ من العنف والجموح والقوة. ولعل شيئاً من التعجب قد سيطر عليه في أول الامر. لكن تردده زال بعد ذلك، فإذا هو يرد على صداقتي بمثلها بساطة وصراحة وانطلاقاً، وإذا هو يستجيب لكلماتي العاطفية وتعلقي وحفاوتي، فيقابلني بعاطفة كعاطفتي ويعاملني معاملة صديق مخلص وأخ حق. تفتح قلبي في هذا الجو الدافئ، وشعرت ببهجة كبيرة وسعادة عظيمة... لن أكتم عنه شيئاً، ولن أخف عنه شيئاً، وأصبح يلاحظ هو ذلك، فيزداد تعلقه بي يوماً بعد يوم.

لا أتذكر، على وجه الدقة، الأحاديث التي جرت بيننا، لا أتذكر جميع ما قاله كل منا لصاحبه خلال ساعات كانت شاقة وممتعة في آن واحد، ساعات طويلة قضيناها معاً في الليل على أضواء السراج المهتزة قرب أمي المسكينة المريضة... هل هناك شيء لم نتحدث فيه؟ كنت أقول له كل ما كان يخطر ببالي، وكل ما كان ينبجس عفواً من قلبي، وكل ما كان يخرج من فمي من دون أن أستطيع له دفعاً... وكنا قريبين من السعادة كل القرب في تلك اللحظات... آه ما كان أملأ ذلك الوقت بالحزن والسعادة معاً! إنني حتى هذه الساعة أشعر بالسعادة والحزن كليهما حين أتذكر ذلك الأوان. والذكريات حزينة دائماً سواء أكانت ذكريات فرحة أم ذكريات مرة. ذلك شأني أنا على كل حال. غير أن هذا الحزن عذب أيضاً. ففي الساعات التي

ينوء فيها القلب بعبء الشقاء، حين تستبد كآبة ثقيلة بالنفس التي صارت من المحن في ظلام، تأتي الذكريات فتنعش النفس وتحييها، مثلها كمثل تلك القطرات من الندى التي تضعها رطوبة المساء على الأزهار بعد نهار خانق، فتبعث الحياة في هذه الأوراق الحزينة التي كادت تمحوها أشعة الشمس المحرقة.

وشفيت أمي من مرضها، ولكنني ظللت أسهر الليل كله قرب سريرها. كان بوكروفسكي يجيئني ببعض الكتب أحياناً كثيرة. فكنت في أول الأمر أقرأ من أجل ألّا أنام، ثم صرت أقرأ بشيء من الاهتمام والشغف، ثم أصبحت في النهاية أقرأ بنهم شديد وشراهة قصوى. إنّ عالماً جديداً كنت أجهله قبل ذلك ولم يخطر لي ببال ينبجس الآن أمام بصري. إنّ القراءة تفجر في نفسي أفكاراً ومشاعر تزدحم الآن في قلبي هادرة صاخبة. وكلما كان الجهد الذي أبذله من أجل تمثّل هذه الأفكار الجديدة أكبر، وكلما كان الاضطراب الذي تبثه في نفسي أشد، كان تقديري لهذا الاغتناء الروحي الذي يقلبني رأسا على عقب أشد. أمور كثيرة انبجست في قلبي وتراكمت فيه. لقد قام في نفسي سديم غريب يتسلل إلى أعماق كياني. لكن هذا العنف الروحي لم يستطع أن يخل بتوازني تماماً. كنت فتاة حالمة، وهذا ما أنقذني.

ولما شفيت أمي من مرضها، انقطعت لقاءاتنا الليلية وأحاديثنا الطويلة التي كنا نتبادلها على خلوة. إننا لا نزال نستطيع أن نتبادل بعض الكلمات من حين إلى آخر، لكنها كلمات تافهة ليست بذات قيمة أو دلالة. ومع ذلك كان يحلو لي أن أهب لها قيمة خاصة وأن أحمّلها معاني مضمرة. كانت حياتي غنية ملأى، وكنت أنا هانئة

مطمئنة، وكانت روحي تفيض سعادة عذبة هادئة. وانقضت على هذه الحال أسابيع..

وفي ذات يوم جاء يزورنا العجوز بوكروفسكي، فثرثر معنا مدة طويلة. كان يبدو أكثر ابتهاجاً وأشد نشاطاً وأغزر تدفقاً في الكلام مما عهدناه فيه. كان يفيض حياة، ويضحك بغير توقف، ويتندَّر على طريقته في التندّر. وكشف لنا أخيراً عن سبب حماسته، فنبأنا أن عيد ميلاد باتنكا سيكون بعد أسبوع تماماً، وأنه سيجيء لزيارة ابنه في هذه المناسبة. وأسرّ الينا أنه سيرتدي لهذا العيد صديرة جديدة، وأن امرأته قد وعدته بأن تشتري له حذاءين جديدَيْن. كان العجوز يطفح سعادة، ويلقي الكلام على عواهنه طولاً وعرضاً.

عيد ميلاده! أصبحت فكرة عيد الميلاد هذه لا تدع لي راحة في نهار ولا في ليل. قررت أن أجدد صداقتي مع بوكروفسكي بتقديم هدية له مهما كلف الأمر. ووقع اختياري على الكتب. كنت أعرف أنه يتمنى الحصول على المجموعة الكاملة لمؤلفات بوشكين في طبعتها الأخيرة، فأردت أن أشتريها له. إنني أملك ثلاثين روبلاً لنفسي هي ثمرة أعمالي في الخياطة. لقد ادخرت هذا المبلغ لأشتري ثوباً جديداً. فما لبثت أن أرسلت الطاهية العجوز ماترينا تسأل لي عن ثمن مجموعة مؤلفات بوشكين. ويلاه! إن المجلدات الأحد عشر تكلف مع نفقات التجليد ستين روبلاً في أقل تقدير. فمن أين آتي بهذا المبلغ؟ فكرت طويلاً من دون أن أهتدي إلى حل. لا أحب أن أسأل أمي شيئاً من المال، ولو سألتها أن تعطيني ما أنا في حاجة إليه لما منعته عني حتماً، ولكن جميع من في المنزل سيعلمون عندئذ بنبأ هذه الهدية، وستُعَدّ الهدية عندئذ مكافأة لبوكروفسكي على الدروس

التي أعطانيها سنة كاملة. كنت أحب ان أنفرد بتقديم هدية له على غير علم من الآخرين. أما ما تحمّله في سبيلي من عناء، فكنت أرغب أن أظل ممتنة شاكرة له ما فعله ما حييت، دون أن أهب له أي مكافأة عليه عدا صداقتي. واكتشفت آخر الأمر وسيلة للخروج من المأزق.

كنت أعرف أن في إمكان المرء أن يحصل، لدى بعض بائعي الكتب القديمة تحت قناطر جوستيني، على كتب بنصف ثمنها بعد شيء من المساومة... وقد يُعثرعندهم في بعض الأحيان على كتب بحالة جيدة حتى لتكاد تكون جديدة. فقررت قراراً حازماً أن أذهب إلى هنالك في أول فرصة. وما لبثت هذه الفرصة أن عرضت في الغداة. هنالك أشياء كان يجب شراؤها للمنزل؟، فأما أمي فكانت متعبة لا تقوى على أن تخرج لشرائها، وأما آنـّا فيدورزوفنا فقد انتابتها يومئذ نوبة كسل من حسن حظي. عُهد إليّ بالخروج لشراء الأشياء، فذهبت إلى القناطر تصحبني ماترينا.

وواتاني الحظ إذ سرعان ما وقعت على مؤلفات بوشكين مجلدة تجليداً جميلاً جداً، فأخذت أساوم البائع على ثمنها. حدد لها في أول الأمر ثمناً يفوق ما يدفعه المرء في المكتبات ثمناً لكتب جديدة، ثم توصلت بالمساومة، وفي غير قليل من العناء والحق يقال، بعد أن تظاهرت بالانصراف غير مرة، أن أحمل البائع على إنزال السعر، بتخفيض بعض تخفيض، إلى عشر روبلات فضة. ألا ما كان أشد فرحي بمناقشته! وكانت ماترينا المسكينة تتساءل ماذا دهاني ولماذا خطر ببالي فجاة أن أشتري مثل هذا العدد الكبير من الكتب. غير أنني لا أملك، وأسفاه، إلّا ثلاثين روبلاً ورقاً، والبائع يرفض أن يبيعني الكتب بسعر أقل من السعر الذي نزل إليه آخر الأمر. فتوسلت اليه،

وألححت في التوسل، إلى أن استطعت أخيراً أن أثنيه عن عزمه. غير أنه رفض أن يزيد التخفيض الجديد على روبلين ونصفاً، وحلف أنه ما كان ليتنازل هذا التنازل كله لأحد غيري، فهو قد خفض السعر إلى هذا الحد الأقصى مراعاة لي، لأنني فتاة لطيفة. لا يزال ينقصني إذن روبلان ونصف روبل حتى أتم الصفقة. وأوشكت أن أبكي أسفاً وحسرة. غير أن ظرفاً لم يكن في الحسبان لم يلبث أن أنقذني من الورطة.

فغير بعيد عني، على طرف منضدة أخرى مثقلة كتباً، لمحت العجوز بوكروفسكي وقد خفّ إليه واحتشد حوله أربعة أو خمسة من بائعي الكتب القديمة. كانوا قد حيروه بعروضهم المتناقضة، فهو يبدو تائهاً كأنه فقد البقية الباقية من عقله. كان كل واحد من البائعين يطري له بضاعته، ولا يعلم إلّا الله ما الذي كانو يعرضونه عليه، وما الذي كان يمكن أن يشتريه. كان العجوز المسكين يبدو ضائعاً في وسطهم لا يعرف من يجيب ولا من يصدّق. فاقتربت منه وسألته ماذا يفعل هنا، فما كان أشد ابتهاجه برؤيتي!.. لقد كان يحبني حبًا لا حدود له، حبًا لعله لا يقل عن حب ابنه باتنكا. قال لي شارحاً: «أريد أن أشتري كتباً يا فرفارا الكسييفنا.. كتباً لأبني باتنكا. إنّ عيد ميلاده قريب، وهو يعبد الكتب عبادة، لذلك جئت أشتري بعض الكتب...».

إن طريقة العجوز في الكلام طريفة مضحكة في العادة، فكيف إذا أضفت اليها ما كان فيه من اضطراب حينذاك؟ كان أي كتاب يقع عليه اختياره، يطلب البائعون ثمنه روبلاً فضة، أو روبلين، أو ثلاثة، حتى أصبح لا يجرؤ أن يسأل عن أسعار الكتب الكبيرة بل يكتفي

بأن يلقي عليها نظرات تنم عن الرغبة فيها، ويقلبها بين يديه قبل أن يردها إلى موضعها، ويدندن قائلاً بصوت خافت: «لا، لا، هذه باهظة الثمن، لعلني واجد شيئاً آخر هناك»، ثم يأخذ ينبش بين دفاتر الموسيقى والأضابير والتقاويم المكدسة أكواماً تباع جملة.

قلت له:

- لماذا تفكر في شراء مثل هذه الأشياء؟ إنها ليست بذات قيمة.

فأجاب:

- لا، لا، لن أشتري منها. انظري هناك. ثمة كتب صغيرة رائعة، كتب صغيرة لطيفة جداً.

قال هذه الكلمات الأخيرة بصوت يبلغ من البطء والحزن والوهن إنني أحسست أنه يوشك أن يبكي أسى لأن الكتب الجميلة باهظة الثمن.

حتى لقد رأيت عبرة تنهمر من عينيه وتسيل على خديه الشاحبين وأنفه الأحمر. فسألته كم معه من المال، فأخرج المسكين جميع النقود التي كان يملكها ملفوفة بورقة قذرة من أوراق الجرائد، وقال: هذا ما معي: خمسون كوبيكاً، ثم خمسة وعشرون كوبيكاً، ثم ما يساوي عشرين كوبيكاً من النقود النحاسية».

فأسرعت أجرّه نحو بائع الكتب القديمة الذي كنت أساومه على شراء مؤلفات بوشكين. وقلت له «هذه الكتب الأحد عشر لا يساوي ثمنها مجتمعة إلّا اثنين وثلاثين روبلاً ونصف روبل ورقاً. معي أنا منها ثلاثون روبلاً، فاذا أضفت اليها أنت روبلين ونصفاً اشتريناها كلها هدية مشتركة إلى باتنكا»

جُنَّ العجوز فرحاً؟، ووضع على المنضدة جميع النقود التي كانت معه، فحمَّله البائع مكتبتنا المشتركة. دسّ العجوز الطيب بعض الكتب في جيوبه، ووضع بعضها الآخر تحت أبطيه، وحمل الباقي بيديه، ومضى بها إلى داره واعداً أن يجيئنا بها في الغد سراً من دون أن يراه أحد.

وجاء يزور ابنه في اليوم التالي، ولبث عنده قرابة ساعة على غير عادته، ثم دخل علينا وجلس قربي وقد لاحت في وجهه أمارات مضحكة تعني أنه يكتم سراً ويخفي أمراً. كان يبتسم ويفرك يديه، فرحاً كل الفرح بأنه يحمل سراً، ثم شرح لي أنه نقل الكتب إلى منزلنا دون أن يراه أحد، وأنه خبأها في ركن من المطبخ بحراسة ماترينا. وانتقل الحديث بعد ذلك إلى عيد الميلاد الذي ننتظره. فأطنب العجوز في الكلام على الطريقة التي سنعمد إليها في تقديم الهدية لابنه، فكان كلما ازداد توغلاً في هذا الموضوع ظهر عليه أن قلبه مثقل بأمر لا يستطيع أن يتكلم فيه، ولا يجرؤ أن يتكلم فيه، كأن شيئاً من الخشية يصدّه عنه. فكنت أنتظر صامتة. لقد اختفى ذلك الفرح الخفي، وذلك الرضى النفسي اللذان كنت أقرؤهما حتى ذلك الحين واضحين كل الوضوح في حركات يديه وتجعّدات وجهه وغمزات عينه اليسرى، وأصبح قلقه وحزنه يزدادان دقيقة بعد دقيقة، ثم لم يستطع أن يكظم ما في نفسه، فبدا يقول خائفاً بصوت متردد متلعثم:

- اسمعي يا فرفارا ألكسييفنا... هل تعرفين ماذا يا فرفارا ألكسييفنا؟...

بدا مضطرباً أشد الاضطراب. ثم استجمع نفسه وقال:

- إليك الأمر: حين يجيء عيد ميلاده، تأخذين أنت عشر كتب

فتقدمينها هدية منك إليه، منك وحدك، وآخذ أنا الكتاب الحادي عشر فأقدمه هدية مني، مني أنا وحدي. فبهذه الطريقة تقدمين أنت هدية إليه ويتاح لي أن أقدم أنا أيضاً هدية.

قال العجوز كلماته بنبرة رجاء، وصمت.

نظرت إليه: إنه ينتظر قراري على خجل ولهفة وهَمٍّ في آن معاً.

قلت له:

- ما الذي يحملك على العدول عن هدية نشترك في تقديمها معاً يا زاكار بتروفتش؟

- ذلك... يا فرفارا ألكسييفنا.. ذلك... أنني قدَّرت... أنني... لأنني...

وازداد اضطرابه، فاحمر وجهه وتلعثم لسانه وجمد لا يتحرك.

قال أخيراً يشرح رأيه:

- اسمعي يا فرفارا ألكسييفنا... يتفق لي أحياناً ان أسير في طريق الضلال و... دائماً... على وجه التقريب... فما أكاد أكفّ عن السير في هذا الطريق حتى أعاود السير فيه... أنا سجين عادات سيئة... أفعل ما ينبغي ألّا أفعله... هل فهمت ما أريد أن أقول؟... يكون الجو بارداً جداً في بعض الأيام، وأكون أنا مثقلاً بأنواع الهموم والأحزان، بل قولي إن الحزن يعتريني على حين فجأة، فيكفي أن يقع لي شيء مزعج حتى أفقد قدرتي على ضبط نفسي... فإذا أنا أسير في طريق الضلال... أشرب كأساً أو كأسين زيادة. ويستاء مني بتروشا عندئذ استياء شديداً، ويغضب غضباً قوياً يا فرفارا ألكسييفنا، ويأخذ

يلومني ويقرّعني ويعظني وينصحني بغير انقطاع... لذلك أريد أن أبرهن له الآن، بهذه الهدية التي سأهديها إليه، أنني قد أصلحت ما فسد من أمري، وأنني بدأت أسلك في الحياة سلوكاً حسناً. أريد أن أريه أنني وفّرت بعض القروش لأشتري كتاباً، أريد أن أريه أنني ظللت أدخر زمناً طويلاً حتى جمعت ما أشتري به كتاباً. ذلك أنني لا أملك من المال إلّا ما يعطيينيه بتروشا من حين إلى حين، وهو يعلم ذلك، فسيرى إذن ماذا أفعل بالدريهمات التي ينفحني بها، وسيرى أنني فعلت ذلك من أجله.

شعرت نحو العجوز بشفقة كبيرة. ولم ألبث أن حزمت أمري. وكان ما يزال ينظر إليَّ قلقاً. فقلت له:

- اسمع يا زاكار بتروفتش، ستعطيه أنت الأحد عشر كتاباً كلها.
- كيف هذا؟ كل الكتب؟ أعطيه الكتب كلها؟
- نعم، كلها.
- مني أنا؟
- نعم منك أنت؟
- أي هدية إليه مني أنا؟
- نعم هدية إليه منك أنت، منك أنت.

أحسب أنني قلت ما قلت على نحوٍ واضح كل الوضوح ولكنه لم يفهم إلّا بعد زمن. فعاد يقول ساهماً شارد اللّب:

- طيب! سيكون هذا شيئاً عظيماً، عظيماً حقاً. ولكن أنت يا فرفارا ألكسييفنا... ماذا تفعلين في هذه الحالة؟
- الأمر بسيط. لن أهدي إليه شيئاً!

صاح العجوز كمن اعتراه ذعر على حين فجأة:

- كيف؟ كيف يمكن ذلك؟ لا تهدين شيئاً إلى باتنكا؟ ألا تحبين إذن أن تقدّمي إليه هدية؟

كان العجوز مدهوشاً أشد الدهشة، حزيناً أبلغ الحزن، وأحسب أنه كان مستعداً للتراجع عن اقتراحه أصلاً من أجل أن أستطيع أنا أن أهدي إلى ابنه شيئاً. يا لقلب هذا العجوز ما أطيبه! فطمأنته قائلة إنه يسعدني أن أقدم إلى ابنه هدية ولكنني لا أريد أن أحرمه من فرحته. قلت: «إذا سُرَّ ابنك بالهدية، وسعدت أنت بذلك، فسأكون أنا أيضاً سعيدة، لأنني سأشعر، في قرارة نفسي، بأنني أهديت إليه هذه الكتب حقاً». اقتنع العجوز بكلامي أخيراً. ولبث في منزلنا ساعتين أيضاً، لا يستقر في مكان، بل ينهض ويتحرك ويصخب ويلاعب ساشا لعب الأطفال، ويرسل أليّ قبلات خفية أو يقرصني في ذراعي ويجعّد وجهه مستهزئاً خلسة بآنا فيدوروفنا من دون أن تراه، حتى طردته آنـّا فيدوروفنا آخر الأمر. الخلاصة أن العجوز جنّ جنونه حماسة كما لم يقع له ذلك يوماً من قبل.

وحلَّ اليوم العظيم، فجاء العجوز في الساعة الحادية عشرة تماماً، بعد الصلاة رأساً، مرتدياً ثياباً أحسن ترقيعها، مع صديرة جديدة وحذاءين جديدَيْن حقاً، ممسكاً في كل يد بحزمة من كتب. كنا جميعاً في هذه اللحظة عند آنـّا فيدوروفنا نحتسي القهوة (كان اليوم يوم أحد).

وطفق العجوز يتكلم عن بوشكين فيما أظن، قائلاً عنه إنه شاعر ممتاز. ثم اضطرب وارتبك فجأة، وراح يقول إن على الإنسان في هذا العالم أن يسلك سلوكاً لائقاً، فإذا سلك أحد سلوكاً سيئاً كان لنا

أن نستنتج من ذلك أنه يتبع طريق الضلالة. وأضاف يقول إن الميول السيئة تقود الإنسان إلى الضياع والدمار. حتى لقد استشهد بحالات من الإفراط والانحلال تستحق أن تكون عظة وعبرة، وأعلن في ختام كلامه أنه قد أصلح نفسه منذ زمن وأن سلوكه أصبح سلوكاً سليماً لا غبار عليه ولا عيب فيه، سلوكاً يمكن أن يُعدّ قدوة، وأنه كان قد أحسّ من قبل بصدق مآخذ ابنه عليه، وأدرك منذ زمن طويل أنها صحيحة كل الصحة، عازماً أمره على اتباع وصاياه، فاستطاع أن يصل إلى ذلك حقاً، فهو الآن قد كف عن الشراب لا قولاً بل فعلاً، والدليل على ذلك أنه يهدي إلى ابنه هذه الكتب التي اشتراها بما ادَّخر من مال خلال مدة طويلة.

كنت أصغي إلى العجوز فما أستطيع أن أمسك عن الضحك والبكاء معاً إلّا في كثير من العناء. إنه يعرف كيف يحسن الكذب عند الضرورة... حُملت الكتب إلى غرفة بوكروفسكي، ووُضعت على أرضها. وحزر بوكروفسكي الحقيقة فوراً. ودعى العجوز إلى تناول طعام الغداء معنا. فكنا جميعاً سعداء كل السعادة طوال اليوم. وبعد الغداء لعبنا بالورق. وأكثرت ساشا من الحركة منقادة لطبعها ومزاجها العنيف.

وجاريتها أنا في ذلك. وأظهر بوكروفسكي اهتماماً خاصاً بي، لقد حاول مراراً أن يكلمني على انفراد، ولكنني لم أستجب له. كان ذلك اليوم أسعد أيام حياتي في تلك السنوات الأربع.

أصل الآن إلى ذكريات حزينة وموجعة. إنّ كل ما تلا ذلك كان أليماً وشاقاً. سأتكلم الآن عن الأيام السود من حياتي. وربما كان هذا هو السبب في أن قلمي يقاوم فيتحرك على الورق تحركاً أبطأ،

كأنه يرفض أن يكتب ما بقي عليَّ أن أقوله. ولا شك أن هذا هو ما حضّني على الاسترسال، بكل ذلك الانفعال وذلك الحب، في سرد أدق تفاصيل حياتي المسكينة في ذلك العهد الذي كنت فيه سعيدة. كان عهداً قصيراً جداً ثم تتالت المصائب بعد ذلك، سوداء، سوداء لا يعلم إلّا الله هل تنتهي في يوم من الأيام.

ابتدأت مصائب حياتي بمرض بوكروفسكي وموته. لقد مرض بوكروفسكي بعد انقضاء شهرين على الحوادث التي أتيت على وصفها. كان في الأسابيع الأخيرة قد بذل جهوداً كبيرة، ذاهباً هنا وهناك من أجل أن يكفل لنفسه مورداً يعيش منه، لأن وضعه لم يكن على شيء من الاستقرار والتحسّن. وظل إلى آخر لحظة كسائر المصدورين يأمل أن يعيش طويلاً. وقد عُرضت عليه وظيفة التعليم في مكان ما، لكن هذه المهنة كانت ترعبه. وحرمه سوء صحته من أن يعيّن لوظيفة من وظائف الدولة، ولو قد عيِّن لوظيفة من هذه الوظائف لكان عليه أن ينتظر زمناً طويلاً قبل أن يتقاضى شيئاً من راتبه على كل حال. الخلاصة أنه لم يلقَ إلّا إخفاقاً بعد إخفاق في كل جهة من الجهات، فساء طبعه وفسد مزاجه، وكان مرضه يتفاقم أثناء ذلك ولكنه لم يشعر بهذا التفاقم. وجاء الخريف. فكان يخرج كل يوم بمعطفه الرقيق الخفيف الذي كان يرتديه طالباً، يحاول أن يحسن أحواله بالتماس وظيفة في أي مكان، واستعطاء عمل من الأعمال أيّاً كان، فكانت هذه المساعي تعذب نفسه عذاباً مريراً. وكان الماء ينفذ في حذائه، وكان يعود إلى البيت مبللاً بالمطر، إلى أن جاء يوم أضطر فيه أن يلزم فراشه، ثم لم يبارحه بعد ذلك إلّا إلى القبر... مات في وسط الخريف قبل نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر).

أستطيع أن أقول إنني لم أكد أترك غرفته طوال مدة مرضه، أعتني به وأسهر عليه، حتى لقد اتفق أن أنفقت ليالي بأسرها قرب سريره. كان يندر أن يفيق من غيبوبته. كان يهذي في كثير من الأحيان، ويقول كلاماً لا يعلم إلّا الله ما هو. يتحدث عن الوظيفة التي يبحث عنها، وعن كتبه، وعن أبيه... وبهذا عرفت عن حياته تفاصيل كنت أجهلها إلى ذلك الحين، بل ما كان يمكن أن تخطر لي على بال. كان جميع من في المنزل ينظرون إليَّ نظرة غريبة من أول عهده بالمرض، وكانت آنّـا فيدوروفنا تهز رأسها استنكاراً واستياء، ولكنني لم ألتفت لنظراتهم، إلى أن كفّوا عن لومي على اهتمامي بالمريض، ولا سيما أمي.

وكان بوكروفسكي يعرفني في بعض اللحظات، ولكن ذلك لا يحدث إلّا نادراً، فلقد كان في أكثر الأحيان غائباً عن نفسه. وسمعته في بعض اليالي يناقش شخصاً في خياله مناقشة طويلة. إنّ كلامه غامض مبهم لا يتميز ولا يُفهم، وصوته الذي يشبه أن يكون صادراً من كهف يدوي في الحجرة الصغيرة دويَّه في قبر. كنت في تلك اللحظات أشعر بخوف. وفي الليلة الأخيرة خاصة، كان بوكروفسكي في حالة غريبة من الهياج. كان يعاني آلاماً مبرحة، فهو يئنّ ويتأوّه، فتمزِّق شكاواه قلبي تمزيقاً. وظهر الذعر في وجوه جميع من في المنزل. حتى لقد أخذت آنّـا فيدوروفنا تدعو الله أن يأخذه إليه بأقصى سرعة. ودُعي الطبيب، فقال إن المريض سيموت في نحو الصباح حتماً.

قضى العجوز بوكَروفسكي الليل كله في الدهليز أمام باب غرفة ابنه، حيث فرشوا له بساطاً على الأرض. كان يدخل على ابنه في كل

لحظة مستطلعاً. إنّ منظره مخيف حقاً. كان الحزن يسحقه سحقاً، حتى ليبدو من شدة الانسحاق فاقد الإحساس بليد الشعور. وكان رأسه يترنح جزعاً. وكان جسمه كله يرتجف ويرتعش. ويدندن هامساً بغير توقف كأنه يجادل نفسه. قدرّت أنه سيصبح مجنوناً من فرط الأسى.

حتى إذا جاء الفجر نام العجوز على البساط وقد أرهقه العذاب وأنهك قواه. وأخذ الابن يحتضر في نحو الساعة الثانية، فأيقظت الأب. كان بوكروفسكي صاحياً صحواً كاملاً في تلك اللحظة، فودّعنا جميعاً. شيء غريب! لم أستطع أن أذرف الدمع، لكن روحي كانت تتمزق.

واللحظات الأخيرة هي التي عذبتني أكبر العذاب. إن بوكروفسكي يطلب بلسانه المتلعثم شيئاً ما، فلا أستطيع ان أفهم ماذا يريد. كان قلبي يتحطم ألماً ويأساً. ظل بوكروفسكي يتحرك ويضطرب ساعة كاملة وقد تملكته رغبة عجزت عن فهمها، فهو يحاول أن يفصح عنها بإشارات يديه الباردتين أولاً ثم يأخذ يتوسل بصوت منطفئ شاكٍ أصمّ تخالطه حشرجات منذ ذلك الوقت، ولكن الكلمات التي يلفظها ما هي إلّا أصوات متقطعة مبهَمة أظل عاجزة عن إدراكها. أتيته بجميع من في المنزل واحداً بعد آخر، وعرضت عليه ماءً لعله يريد أن يشرب، ولكنه كان يهز رأسه بالنفي هزّاً حزيناً.

وأدركت أخيراً قصده. كان يطلب مني أن أزيح ستارة النافذة وأن أفتح مصراعيها. لعله كان يريد أن يلقي نظرة أخيرة على ضوء النهار، على خليقة الله، على الشمس. فأزحت الستارة، ولكن ضوء النهار كان شاحباً حزيناً، كالحياة التي تنطفئ في المسكين المحتضر.

لم يكن ثمة شمس، فالغيوم تغشى السماء بحجاب صفيق كثيف، والجو ممطر، وكل شيء يبدو قاتماً مظلماً حزيناً. هذا رذاذ من مطر ينقر الزجاج ويتزحلق عليه خيوطاً من الماء باردة متسخة. إنّ ضوء النهار لا يكاد يدخل الغرفة، ولا يكاد يستطيع أن يغطّي على ضوء المصباح الصغير المشتعل أمام الأيقونة. وألقى عليَّ المحتضر نظرة أخيرة مثقلة بحزن كبير، وهز رأسه. فما هي إلّا دقيقة واحدة حتى كان ميتاً.

اتخذت آنـّا فيدوروفنا الإجراءات اللازمة للجنازة. اشترت تابوتاً بسيطاً، واستأجرت عربة صغيرة. ومن أجل أن تعوّض آنـّا فيدوروفنا خسارتها استولت على جميع الكتب وعلى الأمتعة الشخصية التي تركها المتوفي. فاحتجّ العجوز وشاجرها شجاراً صاخباً، واستردّ ما استطاع أن يسترد من مجلدات حشا بها جيوبه وحشا بها قبعته ولم يشأ أن ينفصل عنها خلال الأيام الثلاثة التالية، وظل يحملها حتى حين آن أوان الذهاب إلى الكنيسة. كان يبدو أنه أصبح أبله، فهو ما ينفك يضطرب حول التابوت غبيَّ الحركات كأنما هو يريد أن يحيط التابوت بعنايته، فتارة يعدل العصبة على جبين المتوفّي، وتارة يشعل الشموع أو ينقلها من موضعها. كان واضحاً أن فكره لا يستطيع أن يثبت على شيء. ولم تحضر أمي ولا آنـّا فيدوروفنا صلاة الجنازة في الكنيسة. أما أمي فلأنها كانت تحس أنها مريضة، وأما آنا فيدوروفنا فلأنها تشاجرت في اللحظة الأخيرة مع العجوز بوكروفسكي، بعد أن كان في نيتها أن تحضر الصلاة، فآثرت بعد تلك المشاجرة أن تبقى في البيت. حضرت إذن صلاة الجنازة وحدي مع الأب. واعتراني أثناء القداس نوع من الغم والخوف، كأنني أوجس شراً سيقع في المستقبل. ولم ألبث في الكنيسة إلى آخر القداس

إلّا وقد خارت قواي. وأغلق التابوت أخيراً، وسُمّر، ووُضع على العربة، فسرعان ما سارت به فوراً. لم أرافق العربة إلّا إلى آخر الشارع، ذلك أن الحوذي لكز الحصان هنالك فأخذ يجري عدواً. فكان العجوز يركض وراء العربة باكياً بصوت عال، وكانت سرعة الركض تقطع انتحاباته. وقد سقطت قبعة العجوز عن رأسه فلم يرض أن يتوقف عن الركض لتناولها، فكان المطر يبلل رأسه، وهبت ريح قارصة، فكان البرد الشديد يلسع وجهه التي تصفعه الرياح. ولكن العجوز لا يشعر بشيء، ولا يحسّ شيئاً، ولا ينفكّ ينتقل وراء العربة من جانب إلى جانب باكياً. إنّ أذيال «ردنجوته» الرثّ تطير وترتفع في الهواء كالأجنحة، والكتب تخرج من جيوبه وتسقط على الأرض، ولكنه ممسك بيديه كتاباً ضخماً منها يبدو متشبثاً به تشبث الغريق بقارب النجاة. كان المارّة يرفعون قبعاتهم ويرسمون إشارة الصليب، وآخرون يتوقفون وينظرون إلى العجوز البائس مدهوشين. وفي كل لحظة تفلت من جيوب العجوز كتب فتسقط على وحل الطريق، فكان الناس يستوقفونه وينبّهونه إلى سقوط الكتب فيتناولها ويستأنف ركضه ليلحق بمركبة الميت. وقد انضمت إليه عند ناصية الشارع امرأة فقيرة أشبه بشحاذة عجوز، فشاركته السير وراء هذه الجنازة التي لم يتبعها أحد غيرهما. وانحرفت العربة فغابت عن بصري أخيراً. فقفلت راجعة إلى المنزل، وما إن وصلت حتى ارتميت على صدر أمي وأنا أشعر بحزن عميق لا يوصف. ضممت أمي بين ذراعيَّ ضمّاً قوياً، وأغرقتها بالقبل باكية منتحبة، وشددت جسمي إلى جسمها خائفة جزعة، كأنني أحاول أن أحبس في حضني آخر صديق بقي لي في هذا العالم، لأدفع عنه الموت... ولكن ملاك الموت كان يحوم منذ ذلك الحين حول أمي المسكينة.

11 حزيران (يونيه)

كيف أشكر لك، يا ماكار ألكسييفتش، نزهة الأمس في الجزر؟ ما أحلى طراوة الجو هنالك، وما أجمل خضرة الطبيعة! إنني ما رأيت خضرة منذ زمن! كنت أعتقد طوال مدة مرضي أنني سأموت، وكنت أعدّ موتي قريباً محتوماً لا مناص منه. فلك أن تقدر إذن ماذا كان شعوري أمس أثناء تلك النزهة. لا تؤاخذني على أنني كنت حزينة ذلك الحزن كله طوال الوقت. والحق أنني كنت مسرورة سعيدة جداً. ولكن أجمل لحظات سعادتي لا بد أن يخالطها دائماً شيء من حزن. ولئن بكيت قليلاً فلا تعبأ بهذا ولا تلتفت إليه: أنا نفسي لا أدري لماذا أبكي في بعض الأحيان. إنني حادة الشعور، سريعة الاهتياج، وجميع مشاعري يمازجها ألم. لعل شحوب الجو، وصفاء السماء، وغياب الشمس، وهدوء الأفق، لعل ذلك كله ساهم في هذا... لا أدري... وأغلب الظن أنني كنت بالأمس مهيأة لأن أحس الأشياء بنفس حزينة وقلب مثقل، وحتى لتوشك روحي أن تنفجر في بعض اللحظات، فتنهمر الدموع من عينيَّ على حين فجأة. ولكن لماذا أكتب لك هذه الأشياء؟ تلك الأشياء مؤلمة، والتعبير عنها مؤلم أكثر منها أيضاً. لعلك تفهمني مع ذلك: لقد كنت بالأمس لا تني تنظر في عينيَّ بغية أن تقرأ مشاعري، وكانت نفسك تفيض حماسة اذا رأيت حماستي. عند كل غابة صغيرة نراها، وفي كل شعب نسير فيه، وأمام كل غدير نقف عليه، كنت دائماً تتقدمني معتزاً كل الاعتزاز، وتنظر إلى عينيَّ بغير انقطاع، وكأنك تطوف بي في أراضيك، تظهرني على جمالها وتحملني على الإعجاب بها. هذا كله يشهد بأن لك قلباً طيباً نبيلاً يا ماكار ألكسييفتش. وذلك بعينه هو ما يجعلني أحبك.

وداعاً الآن لقد عاودني المرض اليوم. فإن قدميَّ قد تبللتا أمس فأصابني برد. وفيدورا متوعكة أيضاً. إنّ بيتنا يضم الآن مريضتين اثنتين. لا تنسني وأكثر زياراتك.

المخلصة لك: ب.د

12 حزيران (يونيه)

عزيزتي فرفارا ألكسييفنا، يا يمامتي

كنت أتوقع يا ماتوشكا، أن أقرأ لك قصائد طويلة من شِعر في وصف ذلك النهار الذي قضيناه معاً بالجزر، ولكنك لم تكتبي إلّا صفحة واحدة صغيرة. واذا كنت أقول هذا، فلأن ما كتبتِه قليل حقاً، ولكن ما كان أجمل ما قلته، وما كان أروعه! لقد ضمت رسالتك كل شيء: وصفت الطبيعة، وصوَّرت مناظر الريف، وعبّرت عن أنبل المشاعروالعواطف، هل هناك شيء لم تضمه هذه الرسالة القصيرة؟ لقد وصفت كل شيء وصفاً يبعث على الإعجاب، أما أنا فليس لي موهبة. فمهما أسوَّد من صفحات وصفحات، فإنني لا أعبر عن شيء، ولا أصل إلى شيء. لقد حاولت فما ظفرت.

تقولين يا صديقتي العزيزة، إنني إنسان شهم طيب القلب، وأنني عاجز عن ايذاء أحد من الناس، وأنني أقدِّر ما أودع الله خليقته من صنوف الجمال، وتكيلين لي كل أنواع المديح والاطراء. هذا كله حق يا ماتوشكا هذا كله صدق. أنا كما تصفين فعلاً، أعرف ذلك بنفسي. ولكن حين أقرأ أشياء تقولينها في رسالتك، فإن قلبي يرقّ على غير عادة مني، ثم تغزوني خواطر سود وأفكار حزينة. اسمعي يا ماتوشكا، هناك ما أحب أن أقصه عليك أنا أيضاً يا صديقتي العزيزة.

اعلمي أولاً أنني حين عُيِّنت موظفاً ولم أكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمري، فخدمتي في الوظيفة تقارب ثلاثين عاماً، وقريباً سأحتفل بمرور ثلاثين عاماً على عملي في هذه الوظيفة. آه ما أكثر ما أبليت من أردية رسمية خلال هذه المدة! ولقد تقدمت في السن، وأمعنت في الجد، ونضج فكري، وتعلمت معرفة الناس. لقد عشت، نعم لقد عشت، أستطيع أن أقول إنني عشت في هذا العالم، حتى لقد أوشكت أن أرشَّح لنيل وسام. قد لا تصدقين كلامي ولكنني أقول لك الحقيقة. ومع ذلك وجد آناس أشرار أساءوا إليّ ونالوني بأذى. لا أكتمك يا صديقتي الطيبة أنني رجل مغلق، رجل محدود من غير شك، ولكن قلبي لا يقل طيبة عن قلب أي إنسان آخر... هل تعلمين يا فارنكا ما صنع بي أولئك الأشرار؟ ولكن فيم الكلام على ما صنعوه بي! الأحرى أن تسأليني لماذا صنعوا بي ما صنعوه؟ لأنني إنسان بسيط رقيق هادئ طيب القلب لم يرق لهم أن أكون كذلك، فكان لا بد أن أدفع الثمن. وهجموا عليَّ. قالوا في أول الأمر: «أنت كيت وكيت يا ماكار ألكسييفتش». ثم قالوا «أما ماكار ألكسييفتش، فلا داعي إلى الكلام عنه»، وانتهوا إلى أن يقولوا: «هو ماكار ألكسييفتش ما في ذلك ريب». أرأيت يا ماتوشكا كيف وقع هذا كله؟ كل شيء يقع على ماكار ألكسييفتش. وجدوا أن خير ما يفعلونه أن يشهِّروا بي في المنطقة كلها، حتى صار ماكار ألكسييفتش مضرب المثل، ثم لم يكفهم أن يصبح اسمي مضرب المثل، وأن يصبح شتيمة وسبّة تقريباً، بل راحوا يهاجمون حذاءي وردائي الرسمي وشعر رأسي، وحتى وجهي. لم يرضهم شيء فيَّ، فكان عليَّ أن أبدل كل شيء على ما يرضون. وهذا كله يستمر منذ زمن سحيق، ويتكرر كل يوم. لقد تعودت في آخر الأمر، لأنني أتلاءم مع كل شيء، لأنني إنسان

مسالم، لانني إنسان بسيط متواضع، ولكن لماذا هذا كله، لماذا؟ قولي لي: لماذا هذا كله؟ بمن ألحقت أذى؟ هل منعت أحداً أن يُرَقّع؟ هل وشيت بأحد إلى الرؤساء؟ هل نلت مكافآت لا أستحقها؟ هل دبّرت مكائد؟ هل هيّأت دسائس؟ حرام أن يُظَنّ بي ذلك... وهل في وسعي أن أفعل شيئاً من هذا؟ احكمي بنفسك يا صديقتي العزيزة: هل لي من الذكاء ما يمكّنني من الغدر والمكر والوقيعة. فلماذا يهاجمونني إذن ذلك الهجوم الشرير؟ غفر الله لي! أنت ترين أنني رجل محترم، فأنت خير منهم جميعاً يا ماتوشكا. ولنتساءل: ما أفضل الفضائل المدنية؟ لقد صرح أوستاش ايفانوفتش مؤخراً، أثناء حديث خاص له، أن أفضل الفضائل المدنية هي أن يعرف المرء كيف يدس المال. قال ذلك مازحاً (أنا أعلم أنه قال ذلك مازحاً)، ولكن العبرة التي يجب أن نستخرجها من قوله هي أن من واجب الإنسان أن لا يكون عالة على أحد في هذا العالم. وأنا امرؤ لا أعتمد على أحد. إنني أملك ما أضمن به لنفسي كسرة خبز. هي كسرة خبز بسيطة، أعترف بذلك، والخبز جاف يابس أحياناً، هذا صحيح، ولكنه لي، كسبته بعملي حلالاً وآكله محافظاً على شرفي. فماذا يريدون مني أكثر من ذلك؟ أنا أعلم حق العلم أنه ليس بالمزية الكبيرة أن أعمل ناسخاً طوال النهار، ولكنني فخور بعملي. إنني أقوم به جاداً مخلصاً، وأتعب في سبيله وأتعرق. أهي خطيئة أن يعمل المرء ناسخاً. يخيّل إليَّ أنهم ما ينفكون يهزأون بي قائلين «هه...هه... هذا ناسخ... هذا ناسخ». فهل في النسخ ما يشين، هل فيه ما يلطخ الشرف؟ إن خطي واضح جليّ يسرُّ الناظرين، وصاحب المعالي راض عنه كل الرضى. إنني أنسخ لصاحب المعالي وثائق هي على جانب عظيم من خطورة الشأن، صحيح أنني لست بذي أسلوب. لست أجهل ذلك. أعلم

أنني لا أملك شيئاً من أسلوب، لعن الله الأسلوب. لذلك لم أرتقِ في وظيفتي. ولذلك أيضاً أكتب إليك في هذه اللحظة يا صديقتي العزيزة ببساطة تامة، لا أنمّق العبارات بل أقول ما أقول عفو الخاطر كما أحسه في قلبي. أنا أعرف كل هذا. ولكن قولي: لو كان كل إنسان يكتب من نفسه ولنفسه فمنذا الذي سيقوم عندئذ بعمل النسخ؟ ذلك هو السؤال الذي أطرحه عليك، وأطلب منك أن تقولي أأنا على حق فيه أم لا؟ إنني أدرك اليوم أن هناك حاجة إليَّ، وأنني لا غنى عني، وأنه ليس من الخير أن يحاول الناس إزعاج إنسان شريف دون ما داع إلى ذلك، وأن يناكِدوه في أمور سخيفة تافهة. فليعدّوني فأراً ما داموا قد وجدوا بيني وبين الفأر شَبَهاً. أسلّم لهم بذلك. ولكن للفأر ضرورته أيضاً؛ إن له نفعاً في هذا العالم، وقد يُحرَص على الفأر أحياناً، وقد يُعطى الفأر مكافآت... أنا فأر من هذا النوع. كفاني الآن كلاماً في هذا الموضوع يا صديقتي العزيزة! على كل حال ليس هذا ما كنت أريد أن أكتب إليك فيه. غير أنني تحمست قليلاً. ومن الممتع مع ذلك، من الممتع أن ينصف المرء نفسه من حين إلى حين.وداعاً يا صديقتي العزيزة، يا يمامتي، يا عزاء قلبي. سأجيء اليك. سازورك حتماً، يا شعاع ضيائي، يا نور عيني. لا تسأمي كثيراً بانتظار ذلك. سأحمل إليك كتاباً. وداعاً الآن يا فارنكا.

صديقك المخلص المحب

ماكار دييفوشكين

عزيزي السيد ماكار ألكسييفتش!

أكتب إليك على عجل، لأن عليَّ أن أسرع، فهناك شغل يجب أن أنجزه اليوم لأسلّمه إلى أصحابه. اسمع ما سأقوله لك: هناك فرصة

مواتية لصفقة مغرية. لقد قالت لي فيدورا إن لدى أحد معارفها رداء كاملاً من أردية الموظفين يريد أن يبيعه، وهو جديد تقريباً، مع سروال وصديرة وقبعة، ويظهر أنه معروض للبيع بسعر زهيد. لست الآن في عَوَز، فلديك قليل من مال ادخرته، قلت هذا أنت نفسك فلا تمانع ولا تكن بخيلاً. ذلك أمر لا بد منه. انظر إلى نفسك، انظر إلى ثيابك كم أصبحت خرقة بالية رثة؟ ألا تخجل أن ترتدي هذه الثياب التي لا يخلو موضع فيها من ترقيع؟ وليس عندك رداء رسميّ جديد. أنا أعرف ذلك رغم أنك تنفيه وتدّعي نقيضه. الله يعلم أين ذهبت به، أين ذهبت بالرداء الجديد، أين بعته! فاسمع كلامي، واتبع نصيحتي، واشترِ هذا الرداء، أرجوك. إفعل ذلك من أجلي. إذا كنت تحبني فبادر إلى شرائه.

لقد بعثت إليَّ بقمصان هديةً منك. فلماذا تدمر هذا التدمير يا ماكار ألكسييفتش؟ لا شك أن القمصان قد كلّفتك ثمناً باهظاً. كيف تستطيع أن تبذل كل هذه النفقات في سبيلي؟ حقاً إنك تجد متعة في التبذير وتبديد المال سدى. لم أكن في حاجة إلى هذه القمصان. كل هذا زائد عن الحاجة. أنا أعلم حق العلم أنك تحبّني، لا شك في ذلك قط. صدّق أنك لست في حاجة إلى تذكيري به عن طريق الهدايا. إنه ليشق على نفسي قبول هذه الهدايا منك. فأنا أعلم أنها تكلفك نفقات باهظة. كفى هدايا. أقول لك هذا مرة واحدة. هل تفهمني؟ أرجوك، أتوسل إليك أن تكفّ. وتسألني يا ماكار ألكسييفتش أن أبعث إليك بتتمة ذكرياتي. إنك تتمنى ان أنجز كتابتها كاملة. لا أدري كيف فعلت حتى كتبت ما سبق أن بعثت به إليك لتقرأه.، ولكنني أعتقد انني لن أملك من القوة ما يمكنني من الرجوع إلى الماضي. إنني أوثر أن أنسى هذا الماضي. تلك ذكريات أخاف منها. أما أمي

المسكينة التي تركت ابنتها الشقية فريسة لهؤلاء الشياطين فإن الكلام عنها يشق على نفسي أكثر من الكلام عما عداها أيضاً. إنّ دمي يفور في قلبي حين أفكر فيها. كل هذه الأمور ما تزال حية في نفسي. لم يتسع وقتي لأن أثوب إلى رشدي تماماً بل ولا أن أهدأ بعض الهدوء رغم أن سنة بكاملها قد انقضت منذ ذلك الحين. ثم إنك تعلم كل شيء على كل حال.

حدثتك عن أحوال آنـّا فيدوروفنا الآن. إنها تصفني بالعقوق، وتتنصل من كل تبعة، وترفض اتهامها بأنها كانت شريكة بيكوف في ذنبه. وهي تدعوني أن أعود إلى منزلها، قائلة إن تظاهري بأنني ضحية لا يخدعها عن أمري، وأنني أسير في طريق الضلال. وهي تعد بأن تصلح الأمور مع السيد بيكوف، وأن تجبره على إصلاح ما ارتكبه من أخطاء نحوي إذا أنا عدت إلى منزلها. وقد أكدت أن السيد بيكوف على استعداد لأن ينفحني بائنة. إنني أوثر أن أتجاهله. أنا مرتاحة هنا، معك، ومع فيدورا الطيبة التي يذكرني إخلاصها بالمرحومة مربيتي. أما أنت فإنك تحميني بسلطة اسمك، رغم أنك لا تمت إليَّ سوى بقربى بعيدة. إنني أعرف أولئك الناس على حقيقتهم. سأحاول أن أنساهم إذا استطعت ذلك. ماذا يريدون مني بعد كل ما فعلوا؟ فيدورا ترى أن ذلك كله ليس إلّا أقاويل يتقولونها، وأنهم سيدَعونني وشاني هادئة آخر الأمر. أسأل الله أن يصدق رأيها...

ف.د

يا يمامتي، يا ماتوشكا!

أريد أن أكتب إليك، ولكنني لا أعرف من أين أبدأ. أليس غريباً يا

ماتوشكا أن نحيا الآن هذه الحياة أنا وأنت؟ أقول هذا لأنني لم أعِشْ طوال حياتي إلى آلان أياماً حافلة بسعادة كهذه السعادة، كأن الله قد شاء أن يهب لي بيتاً وأسرة. فيا ابنتي الصغيرة المعبودة، ما هذا الذي تقولينه بصدد تلك القمصان الأربعة الصغيرة التي أرسلتها إليك؟ إنك في حاجة اليها، علمت ذلك من فيدورا، وإنها لسعادة كبيرة لي يا ماتوشكا أن أستطيع تلبية رغباتك وتحقيق أمنياتك. فلا تحرميني من هذه السعادة، لا تحزنيني، لا تثيري الاعتراضات طوال الوقت. لم أعرف في حياتي كلها فترة كهذه الفترة، ولا عهداً كهذا العهد. لقد بدأت أعرف ما هي الحياة، وأخذت أسير قدماً في هذا العالم: فأنا أشعر أولاً بأنني أعيش حياة مضاعفة لأنك تسكنين على مقربة مني فيعزيني هذا كثيراً. ثانياً إن ساكناً من سكان منزلنا قد دعاني إلى احتساء الشاي معه اليوم. إنه جاري راتازاييف، الموظف الذي ينظم السهرات الأدبية في غرفته حيث سيُعقد اجتماع في هذا المساء، وسنتحدث في الأدب. هذا ما نفعله الآن يا ماتوشكا، هكذا نحن الآن، ووداعاً إلى حين. أكتب هذا كله عفواً، لغير ما غاية، لا لشيء إلّا أن أعلمك إنني بخير، وأن صحتي حسنة. أبلغتني، يا روحي اللطيفة، بواسطة تيريز، أنك في حاجة إلى قليل من الحرير المصبوغ لأشغالك في الخياطة. سوف أشتريه لك يا ماتوشكا. سوف أشتريه لك. وسوف أشتري حريراً أيضاً. سوف يسعدني أن ألبي طلبك منذ الغد. ثم إنني أعرف أين تُباع هذه الأشياء.

بانتظار ذلك أظل:

صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

22 حزيزان (يونيه)

عزيزتي السيدة فرفارا ألكسييفيتا!

يجب أن أبلغك، يا صديقتي العزيزة جداً، أن مصيبة كبيرة قد وقعت في منزلنا، وهي حادث يثير أعمق العطف والشفقة. في نحو الساعة الخامسة من هذا الصباح خطف الموت أحدَ أولاد السيدة جورشكوف. لا أعلم المرض الذي أصيب به، ولا أدري أهو الحصبة أم هو مرض آخر، وقد زرت أسرة جورشكوف هذه: أناس تعساء يا ماتوشكا. ما أقسى البؤس الذي يعيشون فيه! وما أشد الفوضى في غرفتهم أيضاً! على أن هذا ليس بالأمر الذي يثير الدهشة: إن الأسرة كلها تعيش في غرفة واحدة، قسمت قسمين بحاجز بسيط من قبيل الحشمة. لقد استطاعوا أن يحصلوا على تابوت صغير، بسيط جداً لكنه جميل: اشتروه جاهزاً. إنّ الولد المتوفي صبي في العاشرة من العمر كانوا يعقدون عليه آمالاً كباراً. إنّ رؤيتهم تؤلم النفس حقاً يا فارنكا. الأم لا تبكي أبداً، ولكن من يراها يدرك أن حزناً رهيباً يسحق قلبها سحقاً. مسكينة. لعل موت الصبي قد خفف عنهم عبء إطعام شخص. ولكن ما يزال عندهم اثنان، رضيع وبنت صغيرة عمرها ست سنوات أو تزيد قليلاً. أيّ بهجة يمكن أن يشعر بها المرء حين يرى طفلاً يتألم، وحين يكون هذا الطفل فلذة كبده، ثم هو لا يستطيع أن يدفع عنه الأذى، ولا أن يساعده في شيء، أما الأب فقد كان جالساً على كرسيه المهتز، بثيابه المهترئة القذرة، لا يتحرك من مكانه، ولكن الدموع تسيل على خديه. لعله لا يبكي حزناً بل يبكي هكذا، من قبيل العادة، لأن عينيه تخضلان من فرط ما أفسدهما البؤس والضعف. إنه غريب جداً، هذا الرجل، ما يكاد المرء يخاطبه بكلمة حتى يحمرّ

ويضطرب ويرتج عليه فما يستطيع جواباً. ورأيت البنت الصغيرة، بنته، متكئة على التابوت بوجه صغير مهموم حزين. مسكينة! لا أحب يا عزيزتي فارنكا، لا أحب أن أرى الأطفال مطرقين مفكرين، هل تعلمين؟ ليس منظرهم عندئذ بالمنظر الذي يسرُّ القلب! وكان ملقى على الأرض شيء يشبه أن يكون «عروساً» من خرق، ولكن البنت لا تلعب بها. ظلت هنالك واقفة لا تتحرك، وقد أدخلت إحدى أصابعها الصغيرة في فمها. أعطتها صاحبة البيت قطعة سكر، فلم تأكلها. منظر حزين يا فارنكا، أليس كذلك؟

ماكار دييفوشكين

25 حزيران (يونيه)

أرد إليك الكتاب الذي أعرتنيه، هذا كتاب تستحيل قراءته. إنّ المرء ليخجل أن يمسكه بيده. أين وقعت على هذه الجوهرة الثمينة؟ دعنا من المزاح. هل تحب الكتب التي من هذا النوع يا ماكار ألكسييفتش. لقد وعدوني هنا منذ حين بأن يأتوني بشيء أقرؤه. سأعيرك الكتاب إذا شئت. أما الآن فإلى اللقاء.

حقاً إن وقتي لا يتسع لكتابة المزيد.

ب.د

26 حزيران (يونيه)

عزيزتي فارنكا

الواقع أنني لم أقرأ هذا الكتاب يا ماتوشكا. وإنما طافت عيناي

على بضعة أسطر منه، فبدا لي مسلياً، وقدرت أن صاحبه كتبه ليُضحك الناس، وقلت لنفسي عندئذ: لا بد أن يكون مضحكاً جدًا، وقد يحظى بإعجاب فارنكا. فلذلك أرسلته إليك.

لقد وعدني راتازاييف بأن يعيرني أدباً شائقاً ذا قيمة. هكذا سيكون عندك كتب يا ماتوشكا. راتازاييف يفهم أمور الأدب. وهو رجل على جانب عظيم من العلم. وهو نفسه يكتب. إن له قلماً سريع الحركة نشيطاً. ويا لأسلوبه ما أجمله! إنه لذو أسلوب في كل كلمة يقولها. شيء لا يصدقه عقل. في أبسط جملة، في جملة من الجمل التي يمكن أن أقولها أنا مثلاً لفالدوني أو تيريز، يستطيع هو أن يبث أسلوباً جميلاً. إنني أحضر سهراته أيضاً: ندخن الغليون، ويأخذ يقرأ لنا، وتستمر القراءة أحياناً خمس ساعات متتالية ونحن نصغي إليه. لذة كبيرة، ومتعة عظيمة، وجمال رائع، وأزهار. أزهار طوال الوقت: في كل صفحة تستطيعين أن تجمعي باقة من أزهار. ثم إن الرجل لطيف طيب القلب، دمث الخلق. ما أنا أمامه؟ لا شيء لا شيء البتة، هو ذو شهرة أما أنا فماذا أنا؟ لا شيء! أنا لا وجود لي قط. ومع ذلك فهو لطيف جداً في معاملتي. فأنا أنسخ له بعض الأشياء. ولكن إياك أن تتخيلي يا فارنكا أن وراء هذا غرضاً، وأنه يلاطفني لأنني أنسخ له هذه الأشياء. أبداً، لا تصدّقي وشايات كهذه الوشايات يا ماتوشكا.

لا تصدقي وشايات دنيئة كهذه الوشايات، لا، لا، إنني أقوم له بهذا العمل من تلقاء نفسي، بملء إرادتي. أنسخ كتاباته لأسرّه، فإذا لاطفني سيسرّني هو أيضاً. هذا أكيد. إنه رجل طيب، طيب جداً، وهو كاتب لا مثيلِ له.

الأدب شيء عظيم يا فارنكا، شيء جميل، عرفت هذا أول

أمس. وهو شيء عميق، إنه يثبت القلب، ويثقّف العقل، وما إلى ذلك. لا أذكر كل ما قالوه عن هذا الموضوع في كتابهم. كان كتاباً جيد الأسلوب، الأدب لوحة أعني لوحة ومرآة، يجد فيه المرء أهواء وتعبيراً، ونقداً مرهفاً غاية الرهافة، وتعاليم تقوِّم الأخلاق، ووثائق... تعلمت هذا عندهم، هذا كله تعلمته عندهم. أعترف لك بصراحة يا ماتوشكا أنني حين أجلس بينهم مصغياً إليهم (مدخناً غليوناً مثلهم) فأسمعهم يتناقشون ويتكلمون في أمور شتى، أحس فجأة إنني مضطرب جداً، خجل جداً يا ماتوشكا. لا نملك أنا وأنت إلّا أن نصمت في مثل هذه الظروف. أشعر عندئذ أنني غبيّ، فأخجل من نفسي، وأحاول خلال ساعات أن أوفَّقْ إلى كلمة صغيرة، إلى نصف كلمة، أقولها في المناقشة، ولكن الكلمة لا توافيني كأنما عن عمد. ما أشد الحسرة التي تعتريني في مثل تلك اللحظات يا فارنكا! ما أشد الأسف الذي أشعر به حين أدرك أنني لست من مستواهم، وحين أتصوّر، على حد تعبير المثل، أنني كبرت ناسياً أن أحمل معي عقلي. في أي شيء أقضي أوقات فراغي مثلاً؟ أنام، بغباء، مع أن في إمكاني أن أشغل نفسي بأمور ممتعة جميلة بدلاً من هذا النوم الذي يزيد عن الحاجة. في إمكاني مثلاً أن أجلس إلى منضدتي فأكتب شيئاً. ويكون في هذا متعة لي، ومتعة لغيري من الناس. ليتك تعلمين يا ماتوشكا كم يتقاضى هؤلاء الكتاب ثمناً لكتاباتهم سامحهم الله! انظري إلى راتازاييف هذا! إنه يقبض مالاً كثيراً، مالاً كثيراً! ماذا تكلفه كتابة صفحة. في وسعه أن يكتب خمس صفحات في اليوم، وقد قال لي إنه يتقاضى عن كل صفحة ثلاثمائة روبل. وهو يحصل عليها، لا مناص... حتى قد يُدفع له في بعض الأحيان ألف روبل... ولكن هذا نادر... ما قولك في هذا يا فرفارا ألكسييفنا؟ وليس ذلك

كل شيء... إن عنده دفتراً كتب فيه قصائد شعرية. ليست بالقصائد الطويلة، وهو يطلب ثمناً لها سبعة آلاف روبل يا ماتوشكا! تخيلي هذا!... إنّ هذا المبلغ يساوي ثمن عمارة، ثمن منزل فخم! قال لي إنهم عرضوا عليه خمسة آلاف، ولكنه رفض. أردت أن أرده إلى الصواب فقلت له: «اقبل خمسة آلاف روبل من هؤلاء الناس يا أخي، اقبل ما يعرضونه عليك، اضحك عليهم ثم دعهم وشأنهم، ثم إنّ خمسة آلاف روبل ثروة» فأجابني قائلاً: «لا بل أريد سبعة آلاف، وسيدفعونها لي أخيراً، هؤلاء الأوغاد». حقاً إنه لرجل فذ.

وما دمت أحدثك عنه يا ماتوشكا، فلماذا لا أنقل إليك هنا جزءاً من كتابه «أهواء إيطالية»؟ ذلك هو عنوان أحد الكتب التي ألّفها. اقرئي يا فارنكا ثم احكمي بنفسك.

«... ارتعش فلاديمير، وانطلقت أهواؤه جامحة عارمة غاضبة، وأخذ الدم يغلي في عروقي...

صاح يقول:

«- أيتها الكونتيسة، أيتها الكونتيسة، إنك لا تعرفين مدى هذه العاطفة الرهيبة، ولا تدركين مدى جنوني. لا، لا، إن أحلامي لم تكذّبني الخبر. إنني أحب، أحب حانقاً، أحب منتشياً، ساخطاً، أحب كما يحب رجل فقد عقله، كل دم زوجك لن يكفي لإطفاء جذوة الحماسة الهاذية، ولتهدئة النار التي تلتهمني. لن تستطيع حواجز تافهة وعقبات مسكينة أن تصد الأمواج العارمة التي تهز قلبي هزاً قوياً لا سبيل إلى مقاومته، ولا أن تطفئ النيران الجهنمية التي تضطرم في نفسي المتعبة الظمأى. آه يا زنيائيد، آه يا زينائيد!...

«قالت الكونتيسة مدمدمة وهي تلقي رأسها على كتف الفتاة:

«- فلاديمير!

«فصاح سميلسيكي بالغاً أوج الفرح والسعادة:

«- زينائيد!

«وانطلقت من صدره آهة. لقد أشعل الحريق أشعة ساطعة في هيكل الحب، وأرعش صدر العشيقين الشقيين.

«عادت الكونتيسة تدمدم نشوى، بينما كان صدرها ينهض وبينما كانت عيناها تلتمعان، وبينما كان خداها يحمرّان:

«- فلاديمير!

«- وتم زفاف جديد رهيب!

«وبعد نصف ساعة دخل الكونت العجوز مخدع زوجته، فقال لها وهو يقرص خدها:

«- ألا يحسن، يا غزالتي، أن نطلب سماوراً لضيفنا العزيز؟

ما رأيك يا ماتوشكا، صحيح أن في هذا الكلام شيئاً من الجرأة... أسلم لك بذلك... وهو أمرٌ لا سبيل إلى إنكاره... ولكن ما أجمله كلاماً، وما أعذبه أسلوباً! ما هو جميل فهو جميل لا يمكن جحوده. وإن شئت نقلت أيضاً جزءاً من قصة عنوانها: «أرماك وزليخة».

تصوري يا ماتوشكا: إن القوزاقي أرماك، الرجل الوحشي الشرس المخيف الذي غزا سيبيريا، قد هام بحب زليخة، ابنة القيصر السيبيري كوتشوما، التي وقعت أسيرة في يده. هي قصة من عهد إيفان الرهيب كما ترين. إليك الحوار الذي قام بين أرماك وزليخة:

«- أأنت تحبينني إذن يا زليخة؟ ألا ردّدي هذا ردديه...

«قالت زليخة مدمدمة:

«- أحبك يا أرماك.

«- ايه أيتها السماوات، ايه أيتها السماوات، لك الحمد والشكر! إنني سعيد!

«لقد وهبتِ لي كل ما حلمت به نفسي الحارة العنيفة منذ أيام المراهقة. إلى هنا قدتني يا كوكب مصيري، ومن أجل هذا إذن إنما دفعتني إلى هذا المكان البعيد وراء الحدود، لسوف أجعل الناس جميعاً يعجبون بحبيبتي زليخة، ولن يستطيع الرجال، لن يستطيع هؤلاء الشياطين الغاضبين أن يلوموني، آه... ألا ليتهم كانوا قادرين على أن يفهموا آلام روحها الرقيقة، وأن يروا القصيدة التي تضمها عبرة واحدة من عبرات حبيبتي زليخة، آه... دعيني أكفكف هذه العبرة بقبلاتي، دعيني أشرب هذه الدمعة المباركة، هذه الدمعة الإلهية... أيتها المخلوقة السماوية»...

«قالت زليخة:

«- الناس أشرار يا أرماك، الناس ظالمون، لسوف يضطهدوننا، ويسوموننا سوء العذاب، لسوف يستنكرون فعلتنا ويحكمون علينا، يا عزيزي أرماك. ما عسى أن تصير إليه، في مجتمعك البارد المتجمد المتغطرس الذي لا قلب له، الفتاة المسكينة التي شبت وترعرعت بين ثلوج سيبيريا، مسقط رأسها، ولم تعش أبداً إلّا تحت خيمة أبيها. لن تفهمني الناس يا معبودي، يا فارس أحلامي.

«فزأر أرماك يقول وقد جنّت عيناه:

«- لسوف يهوي السيف القوزاقي على رؤوسهم عندئذ صافراً...

وتخيلي الآن يا فارنكا، كيف سيكون اضطراب أرماك هذا حين يعلم أن زليخة قد قتلت. إن الملك العجوز الأعمى كوتشوما قد استغل ظلمة الليل، فتسلل في غيبة أرماك إلى معسكره وقتل ابنته هو، بغية أن يضرب أرماك، الذي سلبه نور عينيه وتاج ملكه، ضربة قاضية.

«صاح أرماك يقول وهو في حالة غضب وحشيّ جنوني، وقد أخذ يسن خنجره على مسنّ من حجر:

«- أحب صليل الحديد على الحجر. أحب الدم. أحب الدم. يجب أن أقتلهم جميعاً، يجب أن أذبحهم جميعاً، يجب أن أقطع أجسادهم إرباً إرباً...».

وبعد ذلك، لما أدرك أرماك أنه لن يقوى على أن يعيش بعد موت حبيبته زليخة ألقى بنفسه في نهر أرتيش، وانتهت بذلك القصة.

اقرئي أيضاً هذا المقطع القصير. لقد كتب بروح الوصف الهزلي، للإضحاك لا أكثر:

«هل تعرفون إيفان بروكوفييفتش بولتوبوزوف؟ ذلك الذي عض إيفانوفتش في ساقه؟ إن إيفان بروكوفييفتش رجل خشن الطبع قليلاً، ولكنه وهب مزايا كبيرة. ولا كذلك بروكوب إيفانوفييتش، فإنه يعبد أكل اللفت مع العسل. ذلك حين كان ما يزال متعلقاً بيبيلاجيا أنطونوفنا... ولكن لعلكم لا تعرفون بيبلاجيا أنطونوفنا؟ إنها تلك المرأة التي تلبس تنورتها مقلوبة دائماً...».

هذا للفكاهة يا فارنكا، وما أجملها فكاهة، كنا نمسك خواصرنا

بينما هو يقرأ لنا هذه القصة. ولكنه فتىً سفيه، غفر الله له! إنني أسلم يا ماتوشكا بأن هذا الكتاب بذيء قليلاً، وأنه أيضاً ماجن، ولكنه من ناحية أخرى سليم جداً ليس فيه شيء من إلحاد أو ليبرالية. يجب أن نلاحظ يا ماتوشكا أن سلوك راتازاييف سلوك ممتاز، وهذا هو السر في أنه كاتب رائع، لا كغيره من الكتاب.

تخطر ببالي في بعض الأحيان فكرة غريبة: ماذا لو أخذت أنا أيضاً، نعم أنا أيضاً في كتابة شيء؟ ما عسى يحدث عندئذ؟ لنفرض مثلاً أنه ظهر في المكتبات ذات يوم، دون سابق إنذار، كتاب بهذا العنوان: «قصائد ماكار دييفوشكين» ما رأيك يا ملاكي الصغير؟ كيف تجدين هذا، وما عسى تفكرين؟ أما أنا يا ماتوشكا- يجب أن أعترف لك بالحقيقة- فإنني متى نشر الكتاب لن أجرؤ أبداً على أن أضع قدمي في هذا الشارع. ذلك أن كل واحد من الناس سوف يشير إليَّ بإصبعه قائلاً: هذا هو، هذا هو المؤلف، هذا هو الكاتب دييفوشكين، الشاعر، إنه هو بعينه، إنه دييفوشكين بشحمه ولحمه». ما عسى يحدث في تلك اللحظة يا رب! ما عسى يحدث بسبب حذائي؟ يجب أن أسرّ إليك عرضاً يا ماتوشكا إن حذائيَّ مرقعان دائماً. أما النعلان فكثيراً ما يتفق أن يفغرا على نحو غير لائق. فما عسى يحدث حين يعلم جميع الناس أن الكاتب دييفوشكين ينتعل حذاءَيْن مرقَّعَيْن؟ لا بد أن تعلم بذلك كونتيسة أو دوقة ما، فما عساها تقول يومذاك؟ إنني أطرح عليك هذا السؤال، لأنني أتخيل الكونتيسات لا ينتبهن إلى الأحذية، ولا سيما أحذية صغار الموظفين (ذلك أن الأحذية تتفاوت)، ولكن لا بد أن يروي الناس للكونتيسة أن حذاءيَّ مرقَّعان. إنّ أصدقائي أنفسهم سيخونونني عندئذ، وعلى

رأسهم راتازاييف... لسوف يكون راتازاييف أول من يفضحني... إنه يختلف إلى الكونتيسة أحياناً كثيرة. وهو يدّعي أنه يزورها بغير كلفة متى خطر بباله أن يفعل، ويصفها بأنها امرأة فذة، ضليعة في الأدب، وأنها سيدة حقاً. ياله من نموذج عجيب راتازاييف هذا!...

ولكن حسبي ما كتبته إلى الآن حول هذه الأمور... إنني أكتب إليك يا ملاكي لا لشيء غير أن أسليك... أكتب إليك عفو الخاطر لأسرّي عنك قليلاً. وداعاً يا يمامتي، رسالتي إليك طويلة هذه المرة، ومَرَدّ ذلك خاصة إلى أنني رائق المزاج. لقد تغدينا عند راتازاييف، فما أعجب الأشياء التي تخيلتها هنالك! (إنهم صبية أشقياء مغترون، يا ماتوشكا) ما أكثر الأشياء التي تخيلناها... ولكنك لست من أستطيع التحدث إليه في تلك الأشياء! أرجو أن لا تظني بي سوءاً يا فارنكا. فإنما ذكرت لك هذا عرضاً... سأبعث إليك بكتب حتماً. إننا نتداول هنا كتاباً بعنوان «بول دوكوك»، ولكن هذا الكتاب لم يخلق لمثلك يا عزيزتي. هو كتاب لا يناسبك ولا يليق أن تقرئيه. يقال إن هذا الكتاب قد أثار استياء كبيرًا لدى جميع النقاد في سان بطرسبرج. أرسل إليك الآن رطلاً من المربب اشتريته لك خصيصاً. كليه يا روحي العزيزة واذكريني كلما قضمت قطعة منه. أما قنود السكر فلا تقضميه قضماً بل مصيه مصاً، وإلا أوجع القضم أسنانك. لعلك تحبين مسكر الشعير أيضاً؟ إذا كنت تحبينه فاذكري لي ذلك، وداعاً الآن، وداعاً. كان الله معك يا يمامتي. أما أنا فسأظل.

صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

27 حزيران (يونيه)

السيد العزيز ماكار دييفوشكين

تؤكد فيدورا أن هناك أناس يحبون أن يهتموا بأمري، فيكفلوا لي عملاً طيباً لدى أسرة كمربية. فما رأيك يا صديقي؟ أيجب أن أقبل أم لا. واضح أنني لن أبقى عالة عليك في هذه الحالة، والأجر حسن على ما يبدو. ولكنني من جهة أخرى أخاف قليلاً أن أسكن لدى غرباء. هم أسرة من مالكي الأطيان. سوف يستعلمون عني، وسوف يلقون عليَّ الأسئلة تلو الأسئلة، سوف يستطلعون أمري فبماذا أجيبهم عندئذ. ثم إنني عدا ذلك متوحشة كثيراً، أحب الأماكن التي عشت فيها زمناً طويلاً ولا يروق لي أن أبارحها. إنّ المرء يشعر بالراحة والطمأنينة في الأماكن التي ألفها واعتادها، مهما يكن قد لاقى فيها من شقاء. ثم إن هؤلاء الناس يقيمون في مكان بعيد. ولا يدري إلّا الله ما الذي يتوقعونه مني! لعلهم لا يريدون إلّا أن أكون خادمة للأطفال. وعدا ذلك، فإنهم لا يوحون إليٍّ بالثقة. لقد غيروا معلمة أولادهم ثلاث مرات في غضون سنتين. فبماذا تنصحني يا ماكار ألكسييفتش؟ أرجوك أن تسدي إليّ بنصيحتك، أيجب أن أقبل هذا العرض أم الأحسن أن أرفض؟... ولكن قل لي: لماذا لا تجيء إليَّ أبداً؟ إنه ليندر أن تضع قدميك عندي. فلا أكاد أراك إلّا يوم الأحد في الصلاة! يا لك من متوحّش! إنك مثلي تماماً، ألست قريبتك؟ أنت لا تحبني يا ماكار ألكسييفتش، وكثيراً ما أشعر بحزن شديد حين أكون وحدي. ويتفق لي في بعض الأيام، ولا سيما عند الغسق، أن أحس بأنني وحيدة، وحيدة تمامًا في هذا العالم. لقد ذهبت فيدورا لشراء بعض الأشياء. وها أنا ذا جالسة أحلم وأحلم، إلى غير نهاية:

أستعرض الماضي، الساعات الحزينة والساعات السعيدة. ينبجس كل شيء في ذهني، كأن الذكريات تنبع من خلال ضباب. أرى بخيالي الوجوه المألوفة (وأحسب أحياناً أنني أراها بعينيَّ فعلاً)، ولا سيما وجه أمي، الذي أراه أكثر مما أرى غيره من الوجوه... وما أكثر ما أحلم أيضاً... إنني أحس أن صحتي مضعضعة، وأنني ضعيفة شديدة الضعف. في هذا الصباح مثلاً، حين نهضت من فراشي، شعرت بأوجاع. ثم انني أسعل سعالاً سيئاً. أنا أعلم أنني سأموت في القريب، أحس بذلك منذ الآن، فمن ذا الذي سيهتم بدفني؟ من ذا الذي سيسير وراء نعشي. من ذا الذي سيبكيني؟... هل يجب أن أموت في منزل غرباء، لدى أناس لا أعرفهم، في مدينة بعيدة؟... رباه! ما أشقى الحياة وما أكثر أحزانها! ويا ماكار ألكسييفتش، إلى متى ستظل تمطرني بسكاكرك؟ إني لأتساءل حقاً من أين جاءك كل هذا المال؟ يا صديقي، ادّخر مالك، ناشدتك الله، لا تتلفه ولا تبذّره سدى! إنّ فيدورا تبيع الآن سجادة فرغت من تطريزها. سنأخذ ثمنها خمسين روبلاً ورقاً. هذا سعر حسن جداً ما كنت أطمع في الحصول على مثله. سأعطي فيدورا ثلاثة روبلات فضة، وأصنع لنفسي بالباقي ثوباً، ثوباً بسيطاً، ولكنه دافئ يدفع عني غائلة البرد. وسأصنع لك صديرة أيضاً، أشتغلها بنفسي بعد أن أختار لها قماشاً جيداً.

حصلت لي فيدورا على كتاب «حكايات بيلكين»، وها أنذا أرسله إليك إذا كنت تحب أن تقرأه. ولكني أرجوك أن تـعنى بالكتاب، وأن لا تحتفظ به عندك طويلاً، لأنه ليس لي. والكتاب من تأليف بوشكين. لقد قرأت هذه الأقاصيص منذ سنتين بصحبة أمي، فلما أعدت قراءته الآن شعرت بحزن شديد. إذا كان لديك كتب أخرى

فأرسلها إليَّ، شريطة أن لا تأتي من راتازاييف. ذلك أنه لن يفوته أن يعطيك كتباً من تأليفه، وإذا كان قد نشر شيئاً حتى الآن. كيف تستطيع أن تتذوق ما يكتبه ياماكار ألكسييفتش؟ إن ما يكتبه لهو ترهات وسخافات... وداعاً الآن. لقد أطلت الثرثرة معك. حين أكون حزينة يحلو لي أن أتحدث عن أي شيء... ذلك دواء مفيد أحس بعده بشيء من الراحة، ولا سيما إذا استطعت أن أقول ما كان يثقل صدري. وداعاً يا صديقي، وداعاً.

المخلصة لك

ب.د

28 حزيران (يونيه)

عزيزتي ماتوشكا، عزيزتي فرفارا ألكسييفنا!

متى تكفّين عن تعذيب نفسك؟ هذا التعذيب كله من دون داعٍ، ألا تتوقفين! هلا عقلت يا ملاكي الصغير؟ كيف يمكن أن تدور في رأسك خواطر كهذه الخواطر؟ ما أنت بمريضة يا روحي. ما أنت بمريضة قط. بالعكس... أؤكد لك أنك كالزهرة نضارة وتفتحًا. صحيح أنك شاحبة بعض الشحوب، ولكنك كالزهرة نضارة مع ذلك. ثم ما قصة تلك الأحلام أو الرؤى التي تسترسلين فيها؟ دعي عنك هذه السخافات يا يمامتي، ولا تفكري فيها قط، هل تفهمين؟ لماذا لا أسترسل أنا في مثل تلك الأحلام؟ هل ترين أنني أحلم، هل ترين أن لي رؤى كتلك الرؤى. أجيبي! هلا اقتديت بي يا ماتوشكا! إنني أعيش حياة هادئة، أنام نوماً مريحاً، وأتمتع بصحة جيدة.

ذلك شيء يسرّ القلب يا عزيزتي. أرجو أن تنسي هذه الخزعبلات يا حياتي، انسيها، أنا أعرف رأسك الصغير يا بنيتي، يكفيك أيسر شيء حتى تسترسلي في الأحلام، فسرعان ما يغزو قلبك الحزن. ناشدتك الله ألّا تفعلي هذا بعد اليوم. أما أن تعملي في منزل غرباء فهذا مستحيل. لا، لا... ما هذه الفكرة السخيفة التي راودتك؟ ماذا دهاك فجأة؟ وفي مكان بعيد عن هنا؟ يا ماتوشكا، لن أسمح بذلك، سأعارض هذا المشروع بكل ما أوتيت من قوة. سأبيع ردائي القديم فأخرج إلى الشارع بقميص إذا اقتضى الأمر، ولكن لن يعوزك شيء عندنا. لا يا فارنكا، لا. إنني أعرفك. تلك خواطر سخيفة، وأفكار مجنونة. لا شك أن فيدورا وراء ذلك كله. إنها امرأة غبية بلهاء، ولا شك أنها هي التي أثرت فيك. لعلك لم تعرفي فيدورا هذه بعد، هي امرأة حمقاء تحب الشجار، وتهرف بما لا تعرف، وتخبط في كلامها خبط عشواء... بهذا إنما أودت بحياة زوجها المسكين وأرسلته إلى القبر. ألعلها أوحت إليك بشيء من عدم الرضا عن حياتنا الراهنة؟ لا، لا، يا ماتوشكا، مستحيل! ما عساني أصبح اذا ابتعدت أنت، ماذا يبقى لي أن أفعله في هذه الحياة؟ لا يا فازنكا، لا يا حياتي، اطردي من رأسك هذه الأفكار؟ ماذا ينقصك عندنا. إن وجودك ينبوع فرح لنا، ينبوع دائم لا ينضب. إننا نحبك، فعيشي حياة هادئة حيث أنت الآن. اعملي في الخياطة أو التفتي إلى القراءة... لا بل دعي الخياطة إذا شئت، سيان أن تخيطي وأن لا تخيطي... ولكن ابقي معنا. وإلّا فأين نذهب نحن.... قولي أين نذهب نحن؟ سآتيك بكتب، وقد نقوم بنزهة جديدة بعد زمن، ولكن اتركي تلك المشاريع يا ماتوشكا، اتركيها، اعقلي، ودعكِ من هذه السخافات التي تندفعين

فيها لغير ما سبب. سأجيء إليك، سأجيء قريباً جدا، ولكن اسمحي لي أن أقول لك بصراحة وإخلاص إن ما تقولينه عن راتازاييف ليس صحيحاً. أنا أعلم أنني رجل لا يمتلك ثقافة تُذكر، أعترف بذلك، فأنا لم أتابع الدراسة، وليس هذا ما أريد أن أتكلم فيه على كل حال، فلست أنا موضع الكلام الآن. ولكنني لا أسمح أن يُمَسَّ راتازاييف، وقد أردت أنت أن تمسيه. هو صديقي ولذلك أدافع عنه. إنّ ما يكتبه جيد جداً، بل ممتاز، بل رائع. لست أوافقك على رأيك فيه، ولن أستطيع أن أوافقك على حكمك عليه. إنّ له أسلوباً مزهراً، رشيقاً، مفعماً بالصور، زاخراً بالمعاني. هو كاتب ممتاز في الواقع. لعلك، حين قرأت تلك الفقرات، كنت في لحظة ذهول أو خدر يا فارنكا، لعلك قرأتها موصدة القلب دونها، أو لعلك كنت معتكرة المزاج، أو لعلك كنت غاضبة من فيدورا، أو لعل حادثا مزعجاً آخر كان يشغل بالك في تلك اللحظة. يجب أن تعيدي قراءتها يا فارنكا، حين تكونين رائقة المزاج، راضية النفس أو فرحة القلب، ربما حين تكونين بصدد قضم مربية أو مص سكرة: في لحظة كهذه إنما يجب أن تعيدي قراءة تلك الفقرات. لا أنكر (من ذا الذي ينكر ذلك؟) أن هناك كتّاباً أعظم من راتازاييف، بل إن هناك كتاباً أعظم بكثير. ولكن إذا كان أولئك الكتاب مشهورين، فإن راتازاييف كاتب ممتاز أيضاً. هم يجيدون الكتابة جداً، ولكنه يجيد الكتابة هو أيضاً. إنه يختلف عنهم، إنه يكتب بطريقته الخاصة، وإنه ليحسن صنعاً إذ يكتب. وداعاً الآن يا ماتوشكا، لا أستطيع أن أفيض أكثر مما أفضت، وأن أطيل هذه الرسالة مزيداً من الإطالة. أنا على عجلة من أمري. هناك أعمال تناديني. ولكنني أتوسل إليك يا ماتوشكا، أضرع إليك يا طائري

الجميل، أن تهدَّئي روعك، وأن تطمئني بالاً، وأن تطيبي نفساً. كان الله معك وسأظل:

صديقك الأمين الوفي

ماكار دييفوشكين

حاشية: أشكر لك إرسال الكتاب الي. سأقرأ بوشكين أيضاً ما دمت ترغبين في ذلك. وسأجيء إليك هذا المساء، أعدك بهذا.

عزيزي ماكار ألكسييفتش

لا يا صديقي، لا، لا أستطيع أن أستمر في العيش بينكم. لقد غيرت رأيي، وأدركت أنني أسيء صنعاً اذا أنا رفضت عملاً مجزياً إلى هذه الدرجة. سيكفل لي هذا العمل رغيفاً على الأقل. سأبذل ما أملك من جهد وسأتحمل ما أستطيع تحمله من عناء، وسأحظى برضى هؤلاء الغرباء عني وحبهم لي، بل سأحاول أن أغير طبعي إذا اقتضى الأمر ذلك. صحيح أن من الصعوبة والمشقة والألم أن يعيش المرء لدى غرباء، وأن يكون رهناً بإحسانهم إليه وعطفهم عليه، وأن يكره نفسه على ما لا تحب، وأن يخفي عواطفه ويكتم مشاعره، ولكن الله سيمدّني بعون من عنده. يستحيل أن أبقى متوحشة طوال عمري على كل حال. لقد سبق لي أن مررت بظروف من هذا النوع. تلك كانت حالتي في صغري حين كنت أعيش في مدرسة داخلية. كنت إذا جئت إلى البيت يوم الأحد أظل أقفز وأثب طول النهار، حتى أن أمي كانت تؤنبني على ذلك، ولكنني لم أكن أحفل بالتأنيب، لأن نفسي تكون في تلك اللحظات طافحة سعادة ومرحاً. حتى إذا

جاء المساء استبدّ بي حزن رهيب، لأن عليَّ أن أعود إلى المدرسة الداخلية في الساعة التاسعة، حيث كل شيء بارد، غريب عني، قاس عليَّ. كانت المربيات تظهر كثيراً من الشراسة في معاملتي، فكان قلبي ينقبض انقباضاً أليماً، وكنت أحس بالدموع توشك أن تطفر من عيني، فأذهب أختبئ في ركن مظلم، فأذرف العبرات صامتة وحيدة، أخفيها عن الآخرين، حتى لا يظنوا بي الكسل. والحق أنني لم أكن أبكي لهذا السبب، لم أكن أبكي لأن علي أن أستأنف العمل والدراسة. ثم تعودت. نعم تعودت، بل بلغت من هذا التعوّد أنني حين جاءت لحظة ترك المدرسة الداخلية بكيت أيضاً وأنا أودع صديقاتي. إنني أسيء صنعاً إذا عشت عالة عليكما أنت وفيدورا. إن هذه الفكرة تعذبني عذاباً شديداً. أقول لك هذا بصراحة، لأنني صريحة معك دائماً. هل تظن أنني لا ألاحظ أن فيدورا تستيقظ مبكرة في كل صباح تغسل الغسيل ثم تظل تعمل إلى ساعة متأخرة من الليل، مع أن عظامها الهرمة في حاجة إلى شيء من راحة؟ وهل تظن إنني أجهل أنك تدمر نفسك في سبيلي، وتخرج آخر كوبك تملكه لتنفقه عليَّ؟ إنك لا تستطيع أن تفعل هذا بمواردك وحدها يا صديقي. لقد قلت لي في رسالتك إنك ستبيع آخر متاع من أمتعتك في سبيل أن لايعوزني شيء. إنني أصدّقك يا صديقي وأؤمن بشهامتك وطيب قلبك، ولكنك تلقي الكلام على عواهنه يا صديقي. أنت تملك الآن شيئاً من مال لم يكن في الحسبان، هو تلك المكافآت التي نلتها. ولكن ما عساك فاعلاً بعد ذلك؟ إنني دائماً مريضة، وأنت تعرف ذلك، فلست قادرة على أن أعمل مثلك، رغم أنني أتمنى ذلك. ثم إنني لا أجد شغلاً بالقدر الذي يجب لي. فماذا الذي بقي عليَّ أن أحاوله والأمر كما ترى؟ ما عساي أصبح هنا؟ أأضني نفسي بطول

الانتظار حزينةً بينما أنتما تعملان يا صديقيّ العزيزين، يا صديقيّ الطيبين؟ كيف يمكن أن أنفعكما في شيء، في أي شيء، وأنا على ما أنا عليه؟ ولماذا تتصور أنك لا غنى لك عني يا صديقي؟ أي جميل صنعت لك؟ أي خير قدمت اليك؟ صحيح انني متعلقة بك من أعماق نفسي، صحيح انني أحبك كثيراً، بل كثيراً جداً، ولكن قَدَري قاسٍ ومرّ وحزين. أنا أعرف أن أحب، وأستطيع أن أحب، ولكن هذا هو كل شيء واأسفاه، لأنني عاجزة بنفسي عن أن أصنع لك خيراً، وعاجزة عن أن أرد لك جميلاً. فلا تتشبث بي مزيداً من التشبث، بل فكر في الأمر ملياً، وأبلغني كلمتك الأخيرة. وبانتظار ذلك أظل:

صديقتك المخلصة

ب.د

أول تموز (يوليو)

عبثٌ يا فارنكا، عبث، كل هذا عبث. متى انقطع المرء عن مراقبتك، وضعت في رأسك لا أدري ماذا، ووجدتِ ما تتعللين به فقلت: هذا الأمر لا يجري كما يجب أن يجري، وهذا الأمر الثاني أيضاً، وذاك الثالث كذلك، الخ. إنني أرى الآن أن هذا الكلام كله هراء. ماذا تبغين يا ماتوشكا؟ مم تشكين يا عزيزتي؟ قولي لنا ماذا ينقصك هنا؟ أنت تحبيننا ونحن نحبك، فنحن إذن جميعاً سعداء راضون؟ ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ هل تتخيلين أن ما ينقصك هو أن تعيشي لدى غرباء؟ إنك لتجهلين ما هم الغرباء! اسأليني أجيبك. أنا أعرف ماذا يعني العيش مع غرباء يا ماتوشكا! أعرف ذلك حق المعرفة. لقد اتفق لي أن أكلت من خبز رجل غريب. إنه شرير يا

فارنكا، شرير يا عزيزتي، يبلغ من الشر أن قلبك الصغير المسكين سيذوي عنده، لأنه لن يكف لحظة عن إضنائه باللوم والتقريع، لن يكف لحظة عن إيذائه... ثم إن نظرته نظرة سيئة. أنت عندنا بخير، أنت عندنا في دفء، وكأنك في عش صغير بمنجى عن كل أذى. فاذا سافرت كنت كأنك تهجريننا وتأخذين حياتنا. ما عسى نصبح هنا من دونك؟ ما عسى أفعل أنا الشيخ المسكين في هذه الحالة؟ تزعمين أنك لا تفيديننا في شيء... أأنت لا تفيدين في شيء؟ ما هذا الكلام؟ لا يا ماتوشكا... هلا فكرت في الأمر بنفسك؟ كيف يمكن أن لا نكون في حاجة إليك؟ كيف يمكن أن نستغني عنك؟ أنت تفيدنني جداً يا فارنكا. وجودك يحسن إليّ كثيرًا يا عزيزتي!... في هذه اللحظة مثلاً، أفكر فيك فيمتلئ قلبي فرحًا. وفي بعض الأيام أكتب إليك رسالة أودعها ما أحس به، وأودعها كل نفسي، فأتلقى منك جوابًا عليها، جوابًا مليئاً بالحب، فهل هذا قليل؟ لقد اشتريت لك خزانة ملابس، وأوصيت لك على قبعة صغيرة. وأنت تعهدين إليّ أحياناً بشراء شيء من الأشياء فأفعل... فكيف يمكنك أن تقولي بعد هذا انك لا تفيدينني في شيء؟ ما عساي أفعل بدونك وحيداً في شيخوختي، ولأي شيء يمكن أن أصلح؟ لعلك لم تفكري في هذا يا فارنكا! لا، لا، يجب عليك أن تفكري في هذا حتماً، ويجب عليك أن تتساءلي: «في أي أمر يمكن أن أكون مفيداً بعدكِ؟». لقد تعودت عليك يا صديقتي العزيزة. فماذا عسى يقع لو سافرت؟ لسوف أمضي إلى شاطئ نهر نيفا وينتهي الأمر، نعم، هكذا ستجري الأمور يا فارنكا، ماذا تريدين أن أصبح من دونك؟ آه يا فارنكا، يا فارنكا، يا حياتي، يا روحي، أتراك تتمنين أن تحملني عربة موتى إلى مقبرة فولكوفو في يوم قريب، وأن تسير وراء نعشي امرأة فقيرة شحاذة

بأسمالها البالية الخلقة وحدها في الجنازة، وأن يهيل عليَّ بعض الرجال بضع مجارف من تراب ثم ينصرفوا إلى شانهم ويتركوني وحدي هناك... إنه لاإثم، إنه لاإثم أن تقولي ما قلته يا ماتوشكا... يشهد الله إنه لاإثم!... أعيد إليك كتابك يا بنيتي، يا فارنكا العزيزة، فاذا أردت يا طفلتي أن تعرفي رأيي في هذه الأقاصيص، فاعلمي أني لم أقرأ في حياتي كلها كتاباً يبلغ هذا المبلغ من الروعة. إنني لأتساءل اليوم يا ماتوشكا، كيف يمكنني أن أعيش حتى الآن في مثل هذا الجهل الذي عشت فيه، يا لغبائي!... سامحني الله!... ماذا صنعت؟ من أي غابة خرجت؟ إنني لا أعلم شيئًا يا ماتوشكا، لا أعلم شيئًا قط. أقول لك بكل بساطة يا فارنكا: إنني إنسان بلا ثقافة. لم أقرأ حتى الآن إلا قليلاً، قليلاً جدًا، يشبه أن لا يكون شيئاً. قرأت كتاب «أخلاق الانسان» وهو كتاب عميق، وقرأت «الصبي الصغير الذي يلعب بالأجراس» وقرأت «طيور ايبيكوس»، ذلك ما قرأته، ولم أقرأ شيئاً آخر غيره في حياتي. وقد فرغت الآن من قراءة «ناظر المحطة» في كتابك. يجب أن أعترف لك بالحقيقة يا ماتوشكا: إنه لأمر عجيب أن يستطيع امرؤ أن يعيش في هذا العالم من دون أن يخطر بباله أن هناك على مقربة منه كتابًا يقص فيه قصة حياتنا كلها شاهد عيان! إن أموراً من حياتي كانت خافية عليَّ، غامضة في نفسي، فإذا هي تظهر لي شيئًا بعد شيء منبثقة من ذاكرتي أثناء قراءة هذه القصة، وإذا أنا أراها من جديد، وإذا أنا أفهمها أول مرة. ثم إن هناك سبباً آخر جعلني أحب كتابك هذا. إن ثمة كتباً لا شك أنها عظيمة، ولكن المرء منا يستصعب فهمها مهما تكن قيمتها، ومهما يبذل في سبيل ذلك من جهد، ولأنها مسرفة في العمق، مسرفة في الذكاء. أنا مثلاً غليظ الذهن... كان ذهني غليظاً دائماً على أي حال، ذلك

شيء ولد معي... فلا أستطيع أن أقرأ الكتب التي تفوق قدرتي على الفهم... أما كتابك هذا، فإنني أقرؤه كما لو كنت كتبته بنفسي... كأنّ مؤلفه قد تناول قلبي أنا - إذا جاز التعبير- تناوله كما هو في واقعه، فأظهر عليه الناس، مقلّباً إياه على جميع وجوهه، ليصفه وصفاً دقيقاً بجميع تفاصيله. إنه في غاية البساطة، أجل في غاية البساطة... هذا حق، ولعله كان في وسعي أن أكتب مثله، ولماذا لا أكتب مثله؟ انني أحس هذه الأشياء نفسها تماماً، وقد اتفق أن وُجدت في ظروف تشبه كل الشبه ظروف صمصون فيرين الشقي مثلاً.. ذلك أن كثيراً منا هم أمثال صمصون فيرين هذا... أناس طيبون بؤساء!

ألا ما كان أحذق المؤلف في كتابة هذا الكتاب! لقد أوشكت الدموع أن تنهمر في عينيّ يا ماتوشكا حين قرات أن هذا الخاطئ العاثر الحظ قد ظل يشرب إلى أن فقد الذاكرة، فنام مع حزنه المرِّ طوال النهار بفرائه المصنوع من جلد الخراف. حتى إذا استيقظ شرب كأساً صغيرة لأغراق أحزانه، ثم ما لبث أن عاد يبكي بكاء يثير الشفقة، ويجفف دموعه بأكمامه القذرة، لأنه تذكّر عنزته، شاته المسكينة الصغيرة الضائعة، ابنته دنياشا. إلا أن هذا كله لطبيعي جداً، وصادق جداً!... حق ما أقول يا ماتوشكا، أعيدي قراءة الكتاب بنفسك: إن ما يصفه الكتاب لهو الصدق عينه، لهو الحياة نفسها... رأيته أنا نفسي، لأن ذلك كله موجود أمام عينيّ. انظري إلى تيريز مثلاَ. ليس المرء بحاجة إلى الذهاب بعيداً من أجل أن يقع على من هم مثله. فهذا الموظف الفقير الذي يسكن عندنا... قد يكون هو أيضاً إنساناً مثل صمصون فيرين... ولكنه لا يسمى صمصون فيرين بل يسمى جورشكوف. هذا مصير مشترك بين الناس جميعاً

يا ماتوشكا، وهو شقاء يمكن أن ينزل علينا نحن، يمكن أن ينزل عليَّ أنا... والكونت أيضاً، الكونت المتغطرس الذي يسكن في شارع نفسكي أو على شاطئ نهر نيفا، من الممكن أن يصيبه هذا المصير نفسه. قد يبدو الأمر عندئذ مختلفاً حين يقع لكونت، لأن كل شيء يجري لدى الناس الذين هم من نوعه على نحو آخر، على نحو أرفع، لكن الأمور تستوي في الحقيقة... لأن كل شيء يمكن أن يقع، قد يقع هذا لي أنا... قد أسقط في الإثم يا فارنكا، قد أسقط في هوة الشقاء. سوف تضيّعين نفسك يا صديقتي العزيزة، وسوف تجرّيننا نحن إلى الضياع أيضاً. هلا طردت من رأسك الصغيرة هذه الأفكار المتمردة يا عزيزتي؟ هلا أرحتني من هذا العذاب في غير طائل؟ ألا فكري أيها الطائر الصغير المسكين الذي لم ينبت ريشه بعد، ما عساك صانعة من أجل أن تتعهدي نفسك بنفسك، من أجل أن تصوني نفسك من الضياع، من أجل أن تحمي نفسك من شر الأشرار؟ كوني عاقلة يا فارنكا، وعودي إلينا. لا تلقي بالاً بعد الآن إلى النصائح الغبية التي ينصحوك بها، لا تصغي إلى هذا الهذر السخيف. واقرئي كتابك مرة أخرى، اقرئيه بانتباه وإمعان. إن قراءته ستنفعك وستسرّي عنك.

تحدثت عن ناظر المحطة إلى راتازاييف. فقال إن هذه الأشياء كلها قد انقضى زمانها وأصبحت بالية، وأن الكتاب يؤلفون الآن كتباً تضم لوحات وأنواعاً شتى من الوصف. يجب أن أعترف على كل حال بأنني لم أفهم شروحه حول هذه النقطة فهماً جيداً. وقد خلص من كلامه إلى أن بوشكين كاتب جيد، وأنه صنع أشياء كثيرة لمجد روسيا المقدسة، وقال لي كذلك أشياء أخرى عنه... نعم يا فارنكا،

إنه كتاب جيد حقاً، جيد جداً. فأعيدي قراءة هذا الكتاب، ولكن اقرئيه بانتباه وإمعان. اتبعي نصيحتي، فاذا فعلت أفرحتِ قلب هذا الشيخ المسكين، وهو أنا. وأسال الله يا حبيبتي أن يجزيك عني خير الجزاء، ولا شك في أنه سيجزيك خير الجزاء.

صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

السيد العزيز ماكار الكسييفتش

جاءتني فيدورا اليوم بخمسة عشر روبلاً فضة. ما كان أشد ابتهاجها هذه المسكينة، حين أعطيتها عن هذا المبلغ ثلاثة روبلات. أكتب إليك الآن وأنا بسبيل تفصيل صديرة لك... إنه نسيج رائع: زهرات صغيرة على أرضية صفراء. وأرسل إليك كتاباً يضم مجموعة أقاصيص. لقد قرأت بعض هذه الأقاصيص، وأنصحك خاصة بقراءة القصة التي عنوانها «المعطف». أرجو أن تقرأ هذه القصة. أراك تلحّ على اصطحابي إلى المسرح. ألا يكلف الذهاب إلى المسرح نفقات باهظة؟ اللهم إلّا أن نشتري تذاكر في الممشى. منذ مدة طويلة لم أذهب إلى مسرح. حتى أنني لا أتذكر الآن متى ذهبت آخر مرة. كل ما أخشاه أن يكلف الذهاب نفقة باهظة: ذلك ما يشغل بالي. إنّ فيدورا تهز رأسها طوال الوقت، مؤكدة أنك تنفق الآن أكثر مما تكسب. وأنا أدرك هذا بنفسي على كل حال. ما أكثر ما أنفقت من أجلي! حذار أن يسبب لك هذا بعض المكاره! لقد حدثتني فيدورا عن إشاعات مفادها أنه قام بينك وبين صاحبة الدار شجار بسبب تأخرك في دفع أيجار الغرفة. هذا يقلقني عليك جداً.

الوداع الآن. يجب عليَّ أن أسرع. هناك عمل مستعجل يجب أن أنجزه: يجب أن أغير أشرطة قبّعة.

حاشية: تخطر على بالي فكرة: إذا ذهبنا إلى المسرح فسأضع على رأسي قبعتي الصغيرة الجديدة، وسأسدل على كتفي خماراً أسود. أتحسب أن هذا سيكون جميلاً عليَّ؟

صديقتك المخلصة

ب.د

7 تموز(يوليه)

عزيزتي السيدة فرفارا ألكسييفنا!

أعود إلى ما قصصته عليك أمس. نعم يا ماتوشكا، لقد عرفت أنا أيضاً، في ذلك الزمان، ما هو فقدان الصواب، واختلال الرشد. لقد تولّهت بتلك الممثلة الصغيرة، وهمت بحبها هياماً شديداً. وليس هذا بشيء على كل حال. فالأنكى من ذلك أنني لم أكن قد رأيتها تقريباً، ولم أكن قد ذهبت إلى المسرح إلّا مرة واحدة، ومع ذلك استطعت أن أفتتن بتلك المرأة. كنت في ذلك العهد أعيش في منزل جيرانيفيه مع خمسة شبان لا يكاد يفصلهم عني حائط، وهم شبان لهم رؤوس مجنونة، انعقدت أواصر الصلة بيني وبينهم دون أن أريد ذلك، ورغم أنني حاولت جهدي أن أظل على مسافة منهم. وعندئذ، ومن أجل أن لا أكون متخلفاً عنهم، رحت أجاريهم، وأخذت أقلدهم جميعاً. ما أكثر ما حدثوني عنها. وكلما أقيمت حفلة تمثيل في المسرح ذهبت الجماعة كلها إلى المسرح. كانوا لا يملكون حتى

للطعام والشراب ما يكفي من مال. ولكنهم يذهبون إلى المسرح، يشترون تذاكر بالممشى، يصفقون هنالك ما شاء لهم هواهم أن يصفقوا، حتى لتكاد تدمى أيديهم من شدة التصفيق كأنما قد مَسَّهم جن، ويأخذون يهتفون باسم الممثلة في غير انقطاع. فإذا عادوا إلى المنزل بعد ذلك، لا يستطيعون النوم، فهم لا يتحدثون بحديث سوى عن تلك الممثلة طوال الليل، فيناديها كل واحد منهم باسمها. إنهم هائمون بها جميعاً فقلوبهم جميعاً تخفق بحب واحد.

وانتهى الأمر بأن أدخلت حكاياتهم الاضطراب في قلبي المسكين، وكنت في ذلك العهد فتى في ريعان الشباب، فرأيتني أذهب معهم ذات مساء إلى المسرح، ولا أدري كيف تم ذلك، وكانت أماكننا تقع في آخر الممشى، فكنت لا أستطيع أن أرى من هنالك إلّا ركناً من الستارة. ولكنني كنت أسمع كل شيء. كان لهذه الممثلة صوت عذب حقاً، وله جرس صاف كأنه رنين الفضة، حتى ليشعر المرء حين يسمع صوتها أنه يسمع تغريد هزار صغير. صفقنا جميعاً، حتى شعرنا من فرط التصفيق بألم في الأيدي، وكانت هتافاتنا تتعالى صراخاً من شدة الحماسة. ولا أدري كيف لم توقفنا الشرطة بسبب هذا الصخب الذي أحدثناه. ومع ذلك فقد أُخرج أحدنا من المسرح. فلما عدت إلى البيت كنت كمن يعيش في حلم. لم يكن قد بقي في جيبي إلّا روبل واحد من فضة، وكان عليَّ أن أنتظر عشرة أيام حتى أقبض راتبي. فهل تعرفين ماذا فعلت يا ماتوشكا؟ في صباح الغد، قبل أن أذهب إلى المكتب، دخلت مخزن عطور فرنسية، فاشتريت عطوراً واشتريت صابوناً معطراً، فأنفقت في ذلك آخر كوبك أملكه. إنني ما أزال أتساءل حتى اليوم لماذا اشتريت تلك الأشياء جميعها!

الحق أنني لا أدري أنا نفسي لماذا فعلت ذلك. ولم أعد إلى بيتي للعشاء في ذلك الوقت، بل قضيت وقتي كله أتجول تحت نوافذ منزلها. كانت تسكن في شارع نفسكي، بالطابق الرابع. ومضيت إلى بيتي مسرعاً لأرتاح ساعة قصيرة، ثم ما لبثت أن عدت إلى شارع نفسكي، أستأنف تجوالي تحت نوافذ منزلها. وظللت أعيش على هذا النحو شهراً ونصف شهر. أمشي في أثر الممثلة وأتبع خطاها، فأستأجر عربات وراءها، مختاراً من الحوذيين من أراه أسرع من غيره جرياً. بددت دراهمي، وتراكمت عليَّ الديون، ثم رأيتني في يوم من الأيام وقد كففت عن حبها، سئمت تلك الحكاية. أنظري يا ماتوشكا ماذا تستطيع ممثلة أن تفعله برجل لائق. ولكن يجب أن أذكر أنني كنت في ذلك العهد شاباً صغيراً، صغيراً جداً.

م.د

8 تموز (يوليو)

السيدة العزيزة جداً فرفارا الكسييفنا!

أسارع فأرد إليك الكتاب الذي أعرتنيه في اليوم السادس من هذا الشهر. وأبادر فأنتهز الفرصة لأصارحك في هذا الأمر. إنه لسيئ يا ماتوشكا، أنه لسيئ منك أن تدفعيني إلى مثل هذا البعد دفعاً لا هوادة فيه. اسمحي لي أن أقول لك إن الله العلي القدير هو الذي يحدد مصير كل إنسان ويعين وضع كل إنسان في هذا العالم. إنّ الله تعالى هو الذي تقضي مشيئته أن يكون فلان من الناس جنرالاً، وأن يكون فلان الآخر موظفاً وضيع الشأن هين المنزلة من موظفي الحكومة. هذه إرادة الله. إن إرادة الله هي التي تشاء أن يكون فلان

من الناس آمراً، وأن يكون فلان الآخر محكوماً عليه أن يطيع باحترام دون ان يدمدم بكلمة. ذلك كله إنما نظم وفقاً لاختلاف البشر في الاستعدادات والكفاءات. فبعض الناس مؤهلون لبعض الأمور، وبعضهم الآخر غير مؤهلين لهذه الأمور، ولكن لهم كفاءات أخرى في مقابل ذلك. ومواهب البشر هذه إنما هي من صنع الله.

بعد قليل أكون قد سلخت من عمري ثلاثين عاماً في خدمة الحكومة. لقد قمت بواجباتي دائماً خير قيام، فلا يستطيع أحد أن يأخذ عليَّ شيئاً في هذا المضمار. وكان سلوكي حسناً، فما أدمنت على شراب ولا تدخلت يوماً في الاضطربات السياسية. صحيح أن لي بعض العيوب كمواطن، وأنا أعترف بذلك ولا أخفيه قط، ولكنني أملك بعض المزايا أيضاً. فأنا أحظى بتقدير رؤسائي، حتى أن صاحب المعالي نفسه راض عني. ولئن لم يظهر لي حتى الآن ما ينبئ عن تقدير خاص، فأنا أعلم أنه راض عني. إنّ خطي واضح جلي، رشيق رشاقة كافية، لا هو بالضخم جداً ولا هو بالدقيق جداً، قريب من الكتابة المعتادة، ومقروء دائماً. وليس في دائرتنا أحد غير ايفان بروكوفييفتش له خط كخطي، ومع ذلك فهو لا يضاهيني. ولقد خط الشيب رأسي من طول ما جهدت في عملي. وليس هنالك من خطيئة ذات بال يمكن أن تؤخذ علي. صحيح أنني ارتكبت بعض الخطايا الصغيرة، ولكن مَنْ المعصوم عن ارتكاب بعض الخطايا الصغيرة أحياناً؟ أما أن أكون قد قارفت ذنباً كبيراً أو جريمة من الجرائم، كمخالفة للنظام أو كإقلاق راحة العامة، فذلك أمر لم يخطر ببال أحد أن ينسبه إلي. لم يؤخذ عليَّ شيء من هذا في يوم من الأيام، لم تعرف حياتي شيئاً من هذا قط. حتى لقد أوشكت أن

أنال وساماً. حسبي أن أقول ذلك... كل هذا كان يجب أن تعرفيه في الواقع يا ماتوشكا. وكان يجب عليه هو أن يعرفه أيضاً، وكل مَنْ قرر أن يصفني كان ينبغي له أن يعرف الحقيقة كاملة. لا يا ماتوشكا، ما كنت أتوقع منك هذا!... ما كنت أتوقع منك هذا يا ماتوشكا، منك أنت خاصة على كل حال..

كيف؟ ألن يستطيع المرء أن يعيش في ركنه العادي، أيّاً كان هذا الركن وفي أيّ جهة؟ هل أصبح من غير الجائز للمرء أن يحيا دون أن يعكر ماء جاره، على حدّ قول المثل، ومن دون أن يؤذي أحداً، خاشياً ربه مهتماً بنفسه، حتى لا يؤذيه أحد أيضاً، وحتى لا يدخل أحد إلى ركنه الصغير فيحشر أنفه في شؤونه الداخلية؟ هل من الضروري أن يُعرف كيف أعيش في بيتي، وهل أملك صديرة، وهل عندي ما أحتاج إليه وهل آكل إذا جعت، وما طعامي وما شرابي، وما هي النصوص التي أنسخها؟ أي ضير يا ماتوشكا في أن أجتاز الطريق ماشياً على رؤوس الأصابع إذا لم تكن الطريق مرصوفة، حتى لا يهترئ حذائي؟ ما حاجتهم إلى الكتابة عن أخيهم أنه يمر بأيام بؤس وحرمان، وأنه لا يحتسي قليلاً من الشاي؟ فهل من الضروري أن يشرب جميع الناس الشاي؟ هل أنظر أنا إلى فم كل إنسان لأعرف ماذا يدخل إلى بطنه؟ مع من سلكت هذا السلوك؟ ومن أهنت هذه الأهانة؟ لا يا ماتوشكا، عيب علينا أن نجرح إنساناً لم يمسسنا بسوء. اسمعي يا فرفارا ألكسييفنا. أقول ذلك على سبيل المثال: أنا أقوم بواجبي كل يوم بهمة ونشاط وإخلاص، والرؤساء راضون عني، وهم يحترمونني (مهما يقولوا فهم يحترمونني هذا أكيد)، فإذا بإنسان يأخذ يكتب عني ويشهّر بي ويسيء إليَّ دون سبب ظاهر ودون أي

عذر مقبول. نعم، يتفق لي أنا أيضاً أن أصنع لنفسي رداء جديداً أو أشتري حذاء، فأبلغ من فرحي بذلك أن لا أنام الليل، ذلك شيء يبهج النفس، هذا شعور شعرت به، أعترف بذلك، والوصف هنا صادق. ومع ذلك يدهشني أن رئيسنا فيدور فيودورفتش قد سمح بصدور هذا الكتاب، عن غفلة منه، ذلك أن الكتاب ينال منه أيضاً.

صحيح أن هذا الموظف الكبير ما يزال شاباً، وأنه يحب أحياناً أن يرفع صوته. ولكن لماذا لا يجب أن نعترض إذا صرخ قليلاً؟ هل من الضروري أن لا يؤنب أحدنا تأنيباً شديداً حين يجب التأنيب؟ أنا أسلم بأنه يغضب أحياناً من دون سبب ظاهر، ولكن هذا أمر لا غنى عنه، إظهاراً للمهابة وتهذيباً للناس. إنّ من الواجب أن يوحي إليهم بهذا الاحترام المفيد. ذلك إننا معشر البشر - أقول هذا بيني وبينك - لا نفعل فعلاً حسناً إلّا إذا شعرنا بشيء من الخشية. ما من أحد يفكر في غير مصالحه، وفي غير تقدمه، فهو يريد أن يُذكر هنا، وأن يُشاد به هناك، أما أن يعمل فذلك ما يحاول أن يتملص منه ما وسعه التملص. ثم إنّ الموظفين ليسوا جميعاً في رتبة واحدة، فبعضهم فوق بعض درجات، ولا غرابة والحالة هذه أن يختلف بعضهم عن بعض لهجة وحذلقة على حسب الرتبة. ذلك من طبيعة الأمور. وكذلك بُني العالم يا ماتوشكا. إنّ الحياة الاجتماعية تعتمد على مظاهر السلطة التي يصطنعها بعضنا تجاه بعض، وعلى الطريقة التي يتخاطب بها بعضنا مع بعض لوماً وتأنيباً. ومن دون هذه الاحتياطات لا يمكن أن يوجد العالم، ولا يمكن أن يقوم نظام في أي مكان. لذلك يدهشني حقاً أن يسمح فيدور فيودوروفتش بنشر هذا الكتيب الجارح المؤذي سهواً أو إهمالاً.

وأي شيطان دفع هذا الكاتب إلى الكتابة؟ وما نفع هذا الذي كتبه؟ هل سيرسل إليَّ أحد القراء معطفاً جديداً بعد أن يقرأ هذه القصة؟ هل سيشتري لي حذاءين؟ لا يا فارنكا، إن الناس سيقرأون القصة، ثم لا يزيدون على أن يرغبوا في معرفة تتمتها. يحاول المرء أن يختبئ ما وسعه الاختباء، ويجهد أن يكون صغيراً ما أمكنه ذلك ويبذل قصاراه في سبيل أن لا يلتفت إليه أحد، حتى ليخشى أحياناً أن يظهر أنفه في الخارج لأنه لا يحب أحكام الناس، ولأنه يخشى أن يجعله الناس أضحوكة لغير سبب، ثم إذا هو يرى حياته المدنية والعائلية كلها معروضة مبسوطة في الأدب بلا خجل ولا حياء ولا حشمة ولا عذر، وإذا كل شيء مذاع مطبوع مكشوف ومعرًّى، يحكم عليه الناس ويضحكون منه ويهزأون به! لن يستطيع المرء أن يخرج بعدئذ إلى الشارع، لأن كل شيء قد بلغ من دقة الوصف في الكتاب أن الناس سيعرفونه حتى من مشيته. وكان يهون الأمر لو أن الكاتب قد كفّر عن كتابه بتخفيف الخاتمة عن طريق إضافة شيء يلطف القصة. كان في وسع المؤلف مثلاً عندما وصف كيف قصف الرجل المسكين بالقراطيس، أن يذكر ان هذا الرجل كان إنساناً فاضلاً، وإنه كان مواطناً صالحاً، ولا يستحق أن يعامله زملاؤه هذه المعاملة، لأنه كان يحترم دائماً من هم أكبر منه سناً (وهكذا يكون المؤلف هنا قد يضرب مثلاً صالحاً)، وأنه لم يؤذ أحداً طوال حياته، وأنه آمن بالله وأنه حين مات (اذا أصرّ المؤلف على أن يميته) حزن عليه جميع الناس وبكوه. كان من الأفضل أيضاً أن لا يموت المسكين، وإنما يُعمل ما يجب من أجل أن يُعثر له على المعطف، أو أن يستدعيه فيدور فيدوروفتش- لا... ماذا أقول؟- أقصد أن يستدعيه الجنرال حين علم بفضائل هذا المرؤوس، فيبلغه أنه نال ترقية، وأنه سيعطى

راتباً حسناً. بذلك كان يمكن إنقاذ كل شيء: فيعاقَب الأشرار وتكافأ الفضيلة، ويرتدع الزملاء الخبثاء. بهذه الخاتمة كان يمكن أن أختم أنا القصة. ماذا في هذه القصة من خير، ماذا فيها من جمال خارق؟ إن المؤلف لم يزد على أن حكى واقعة مبتذلة، لم يزد على أن وصف شيئاً مستمَداً من الحياة اليومية! كيف خطر ببالك يا عزيزتي الغالية أن ترسلي إليَّ كتاباً كهذا الكتاب؟ إنه كتاب مغرض يا فارنكا. ثم إنها قصة غير معقولة. لأنه لا وجود لموظفين من هذا النوع. لا، لا، سوف أشكو أمري إلى السلطات يا فارنكا، سوف أشكو أمري، قررت ذلك.

خادمك المخلص

ماكار دييفوشكين

27 تموز (يوليو)

إن الأحداث الأخيرة، وكذلك رسائلك، قد أذهلتني وأفزعتني، ولكنني فهمت أخيراً كل شيء بعد الذي روته لي فيدورا. لماذا بلغ بك الحزن واليأس هذا المبلغ؟ لماذا ألقيت بنفسك إلى الهوّة التي تضطرب فيها الآن؟ هلا قلت لي لماذا يا ماكار ألكسييفتش؟ إن الشروح التي قدمتها لم تقنعني أبداً. ألم أكن على حق حين أصررت على قبول العمل المجزي الذي عُرض عليَّ؟ ألا تعترف بأنني كنت على حق؟ ثم إن حادثتك الأخيرة قد أخذت تقلقني حقاً. لقد كنت أشعر طبعاً انني مدينة لك كثيراً منذ كنت تؤكد لي أن ما تنفقه في سبيلي ليس إلّا مدّخرات ادَّخرتها للطوارئ. ولكنني أعلم الآن أنك لم تكن قد ادخرت شيئاً، وأنك حين عرفت عرضاً ما أعاني من

بؤس، رق قلبك لي فقررت أن تساعدني بانفاق رواتب عدة أشهر قبضتها سلفة، وأعلم أيضاً أنك مضيت بعد ذلك تبيع ملابسك أثناء مرضي. إنّ اكتشافي لهذه الحقيقة قد جعلني في وضع أليم جداً، حتى صرت أتساءل الآن كيف يمكن أن أقبل كل هذا، وماذا يجب أن يكون رأيي فيه! لماذا لم تكتف يا ماكار ألكسييفتش بحسناتك الأولى التي دفعتك اليها الشفقة ومشاعر القرابة فحسب، بدلاً من الاندفاع في إنفاق المال في أمور لا فائدة منها ولا طائل تحتها كما فعلت بعد ذلك؟ لقد خنت صداقتنا يا ماكار ألكسييفتش حين لم تكن صريحاً معي فأخفيت عني الحقيقة. أنا اليوم وقد أدركت أن دريهماتك الأخيرة قد ضاعت في شراء أدوات زينة لي وتبعثرت ثمناً لسكاكر ونزهات وتذاكر مسرح وهدايا كتب، أكفِّر تكفيراً باهظاً عن تلك اللذات بعذاب الضمير من فرط الندم على خفّتي التي لا تغتفر (لأنني كنت أقبل منك ذلك كله من دون أن أراعي وضعك). إنّ كل ما فعلته بغية أن تفرحني يستحيل الآن إلى عذاب لي ولا تبقى منه إلّا حسرات عقيمة. لقد لاحظت كآبتك منذ مدة، ورغم أني توقعت في كثير من الهم والقلق أن يحدث حادث اليم، فإن ما حدث ما كان ليخطر لي على بال. ما هذا؟ كيف يمكنك أنت يا ماكار الكسييفتش أن تستسلم لمثل ذلك اليأس؟ ما عسى يقول عنك جميع اولئك الذين يعرفونك، ما عسى يكون رأيهم فيك. كيف يمكنك أنت يا من كنا نحترمك أنا وجميع الناس لطيب قلبك وتواضع نفسك ورجاحة عقلك، كيف يمكنك أن تسقط في تلك الرذيلة الممقوتة التي أحسب أنها لم تعهد فيك قط حتى الآن؟ يا لهول ما شعرت به حين علمت من فم فيدورا أنهم لَمّوك من الشارع سكران، وأن الشرطة قادتك إلى منزلك! لقد صعقت من الدهشة وذهلت عن

نفسي وتبلّه عقلي في تلك اللحظة، رغم أنني كنت أتوقع أن يحدث شيء غير عادي، لأنك كنت قد غبت عنا أربعة أيام. هل فكرت يا ماكار الكسييفتش في ما سيقوله رؤساؤك حين يعلمون سبب تغيبك؟ تقول لي إن جميع الناس يسخرون منك الآن، وأن جميع جيرانك أصبحوا يعرفون صداقتنا، وأن سخرياتهم وأمازيحهم لا تنساني أنا أيضاً. لا تحفل بهذا يا ماكار الكسييفتش، وهدئ روعك، ناشدتك الله! وإني شديدة القلق أيضاً بسبب ذلك الذي وقع لك مع الضباط. لقد سمعت بهذا النبأ على نحو غامض. قل لي، أرجوك، ما معنى هذا كله؟ كتبت لي أنك لم تكن تجرؤ على مصارحتي، وأنك كنت تخشى أن تفقد صداقتي إن اعترفت لي، وأنك كنت في ذروة اليأس، لأنك لا تعرف كيف تساعدني أثناء مرضي، وأنك بعت كل ما عندك حتى تجنبني الذهاب إلى المستشفى، وتقول إنك اقترضت مالاً من جميع الجهات، وإن مناقشات كانت تقوم بينك وبين صاحبة البيت في كل يوم. ولكنك إذ أخفيت عني الحقيقة فقد اخترت أسوأ الحلول. وأنا أعلم الآن كل شيء على كل حال. كنت لا تريد أن تضطرني إلى الاعتراف بأنني السبب في وضعك الحالي البائس، ولكنك بسلوكك الآن تحزنني حزناً أشد، وتجعلني أقاسي ألماً أكبر. كل هذا يقلقني ويبث الاضطراب في نفسي يا ماكار ألكسييفتش. آه يا صديقي! إن الشقاء مرض معد، فيجب على الأشقياء والمساكين أن يتجنب بعضهم بعضاً، يجب عليهم أن يتحاشوا أي اتصال بينهم، حتى لا تزداد آلامهم بعدوى متبادلة، لقد جئتك بمحن لم تعرفها من قبل في حياتك المتواضعة المنعزلة. إنه ليعذبني عذاباً شديداً وإنه ليقتلني أن أدرك اليوم ذلك.

اكتب لي الحقيقة كلها صراحة! قل لي ماذا حدث وكيف أمكنك أن تتخذ قرارا بالقيام بمثل هذا العمل! طمئني عمّا آلت إليه أحوالك وإذا كنت تستطيع ذلك. ليست الأنانية هي ما يدفعني الآن إلى الكلام عن طمأنينتي وهدوئي، وإنما تدفعني إلى ذلك صداقتي لك، وتحضني عليك المودة التي محضتك والتي لا يمكن أن تُمحى من قلبي يوماً. أنتظر ردك. لقد أخطأت الظن فيَّ والحكم عليَّ يا ماكار ألكسييفتش.

صديقتك المخلصة الودود

فرفارا دوبروزيولوفا

28 تموز (يوليو)

عزيزتي الغالية فرفارا ألكسييفنا

لك ما تشائين. أما وقد انتهى الآن كل شيء وأخذت الأمور تعود إلى مجراها الطبيعي شيئاً بعد شيء، فسأقول لك يا ماتوشكا ما يلي: إنك تخشين مما قد يُظن بي ويُقال عني، لذلك أسارع فأصارحك يا فرفارا ألكسييفنا بأن سمعتي هي عندي أغلى شيء في هذا العالم، لذلك أعتقد أن عليَّ وأنا أبلغك أنواع الشقاء التي عانيتها وضروب الفوضى التي وقعت فيها، أن أذكر لك في الوقت نفسه أنه ما من أحد من رؤسائي علم بما حدث، أو سيعلم به يوماً، وأن رؤسائي سيظلون يظهرون لي إذن نفس التقدير الذي كانوا يظهرونه لي من قبل. أمر واحد يقلقني ويرهقني هو أنني أخشى النمائم والإشاعات. في منزلنا ما تنفك صاحبة البيت تصيح وتصرخ، وإن تكن، منذ دفعت لها جزءاً من دينها عليَّ بفضل روبلاتك العشرة، أصبحت لا تزيد

على أن تتذمر. أما السكان الآخرون فليس هناك ما أشكوه فيهم. إنّ سلوكهم معي حسن. كل ما في الأمر أن عليَّ أن أتحاشى اقتراض شيء من المال منهم، فمتى لم أقترض منهم شيئاً من المال كانوا في غاية اللباقة هم أيضاً. وأحب في ختام هذه الشروح أن تعلمي يا ماتوشكا أن تقديرك هو أثمن ما أملك في هذا العالم، وذلك ما يعزيني في هذه الساعة عن الفوضى العارضة التي ألمّت بحياتي. لقد انجلت الغمة ولله الحمد، وانقضت الضربة الأولى والاضطرابات الأولى من هذه المأساة. وقد أمكن أن تحتمليها دون أن تعدّيني صديقاً خان الصداقة، أو رجلاً أنانياً، لأنني حاولت أن أحتفظ بك قريبة مني فخادعتك لعجزي عن الانفصال عنك يا من أحبك وأرى فيك ملاكي الصغير. لقد عدت إلى العمل بهمة ونشاط، وأنا أقوم بواجبي اليومي على خير وجه. حتى أن أوستاش ايفانوفتش لم يقل كلمة واحدة حين مررت أمس أمامه. لا أكتمك يا ماتوشكا أن ديوني تعذبني وتضنيني وتقتلني قتلاً، وكذلك خلوّ خزانتي من الثياب، ولكنني أعود فأقول إن هذا كله لا قيمة له، فأرجوك بل أتوسل إليه يا ماتوشكا أن لا يحزنك هذا الأمر أيضاً. لقد أرسلت إليَّ نصف روبل آخر. إنّ نصف الروبل هذا قد طعن قلبي طعناً يا فارنكا. انظري أين أصبحنا، انظري إليّ أين آلت أمورنا! لست أنا من يساعدك الآن إذن! يا لي من شيخ عجوز أبله!... بل أنت التي تهبّين إلى نجدتي يا عزيزتي اليتيمة المسكينة! يجب أن نشكر لفيدورا أنها استطاعت أن تحصل على شيء من المال. وليس لي الآن أي أمل من هذه الناحية يا ماتوشكا، لن أقبض شيئاً، فاذا فتح باب الأمل، فلن يفوتني أن أبلغك ذلك تفصيلاً. ولكن النمائم، النمائم المقيتة الكريهة، هي ما يعذبني أكثر من أي شيء آخر، وداعاً يا ملاكي الصغير. أقبّل يدك

الجميلة، وأضرع إليك أن تحرصي على الشفاء من مرضك. لست أفيض في الكتابة إليك الآن لأن عليَّ أن أمضي إلى عملي، لأنني أريد أن أبرهن على همتي وإخلاصي عسى أن أمحو خطيئتي وعسى أن ينسوا تغيبي. أرجئ إلى المساء تتمة شروحي في موضوع جميع تلك الأحداث، وكذلك في موضوع حادثتي مع الضباط.

صديقك الذي يحترمك ويحبك حباً عاشقاً

ماكار دييفوشكين

28 تموز (يوليو)

آه يا فارنكا، يا فارنكا، الخطيئة هي الآن خطيئتك! الذنب الآن ذنبك! وسوف يظل هذا الذنب جاثماً في ضميرك. لقد استطعت برسالتك أن تقلبي دماغي رأساً على عقب، أن تلقيني إلى اضطراب ما بعده اضطراب.. الآن، الآن فقط، إنما أدرك، حين أغوص هادئاً إلى أعماق قلبي، أنني كنت على حق على حق تماماً. ما عن استهتاري الأخير أتحدث هنا (دعينا من ذلك الاستهتار، ولا تعودي إلى الكلام عليه)، وإنما أتحدث عن حبي لك، فأقول إنه لم يكن جنوناً مني أن أحبك، لا لم يكن حبي لك جنوناً قط. يجب أن أقول لك يا ماتوشكا أنك لا تعرفين شيئاً. ولو كنت تعرفين لماذا وقع ما وقع، ولماذا كان حقاً أن أحبك، لقلت غير الكلام الذي قلتِه. إنّ جميع تلك الكلمات الحكيمة العاقلة التي تزجينها إلي، أنت لا تقصدينها. إنك تكتبينها، ولكن الذي في قلبك شيء آخر. أنا من ذلك على يقين. يا ماتوشكا، لا أعرف الآن ولا أتذكر تذكراً واضحاً تلك القصة التي وقعت لي مع

الضباط. ولكن يجب أن تعلمي يا ملاكي أنني كنت قد مررت قبل ذلك بفترة مضطربة أقصى الاضطراب. تخيلي أنني كنت منذ شهر بكامله لا يكاد يمسكني عن الانهيار إلّا خيط واهن إن صحَّ التعبير. كنت في وضع ينذر بأن الكارثة وشيكة. كنت أختبئ منك، وأحاول أن لا يلمحني أحد في منزلنا أيضاً. ولكن صاحبة المنزل قامت بفضيحة وأخذت تصرخ، طبعاً ليس يهمني أن تصرخ، فلتصرخ ما شاءت، ولكن المسالة أن صراخها أخجلني وأشعرني بالعار... تلك نقطة أولى. والنقطة الثانية أنها كانت قد علمت بصداقتنا، لا أدري كيف، فأخذت تصيح في أرجاء المنزل كله مشهِّرة بهذه الصداقة قائلة أموراً تبلغ من الفظاعة أنني تجمدت ذعراً وسددت أذنيَّ حتى لاأسمع ما تقول ولكن من المؤسف أن السكان الآخرين لم يسدوا آذانهم مثلي، بل فتحوها واسعة وأرهفوا السمع... حتى صرت لا أعرف أين أختبئ...

ذلك كله يا ملاكي الرقيق، هذه المصائب التي تراكمت تراكماً رهيباً، هي ما أجهز عليّ وانتهى بتحطيمي تحطيماً كاملاً. وعلمت فجأة من فيدورا أموراً غريبة: علمت أن زائراً وقحاً جاء إليك وألحق بك إهانة إذ عرض عليك أمراً شائناً مخزياً. لقد طعنك هذا الرجل طعناً أصاب أعماق قلبك يا ماتوشكا، أنا أعلم ذلك قياساً على ما شعرت به أنا أيضاً من أنني طعنت. في تلك اللحظة يا ملاكي، في تلك اللحظة تماماً، إنما زلّت قدمي، وترنحت وسقطت في الهوة. هرعت أخرج من المنزل يا فارنكا وقد اعتراني غضب جنوني لا يوصف، غضب لا عهد لي بمثله من قبل. كنت أريد أن أذهب إلى ذلك الشخص الحقير، إلى ذلك المجرم الذي لا حياء له، دون أن

أعرف ماذا أريد أن أصنع، ولأنني لا أطيق يا ملاكي الصغير أن يلحق بك أحد إهانة. آه ما كان أشد حزني! ما كان أعمق تعاستي! وكان المطر ينهمر غزيراً في ذلك اليوم، فالوحل في كل مكان، والجو كالح جهم حزين. فكرت أن أعود إلى المنزل وأن أعدل عما عقدت عليه النية!... وفي تلك اللحظة إنما وقعت يا ماتوشكا... التقيت بإميل، أعني إيميلين ايلتش، وهو موظف في إدارتنا، أو موظف سابق، لأنه لم يعد موظفاً، فقد صُرف من الخدمة، ولا أدري ماذا يعمل الآن، فهو يذهب هنا وهناك ليعيش. التقينا فمشيْنا معاً، ثم تبعته، وهكذا حدث ما حدث... ثم... ولكن أية متعة يمكن أن تجديها يا فارنكا في قراءة قصة أنواع العذاب التي قاساها صديق، وفي معرفة صنوف التدهور التي عاناها، وألوان الغوايات التي تردّى فيها؟ المهم أن إيميلين هذا هو الذي دفعني وحرضني في اليوم الثالث عند المساء: فذهبت إلى ذلك الشخص، إلى ذلك الضابط. كنت قد حصلت على عنوانه من بوّاب عمارتنا. والحقيقة أنني كنت أراقب هذا الشاب منذ مدة طويلة. كنت أراقبه منذ كان يسكن في منزلنا... الخلاصة... إنني أدرك اليوم أنني أرتكبت خطأ، لأنني لم أكن في حالتي الطبيعية حين أعلموه بقدومي. يجب أن أقول يا فارنكا، حتى أكون صادقاً أنني لا أتذكر على وجه الدقة ما حدث عندئذ. كل ما أذكره أنه كان في بيته ناس كثير، كان بيته يمتلئ ضباطاً، اللهم إلّا أن أكون قد رأيت الشخص شخصين... الله أعلم... لا، ولا أتذكر أيضاً ماذا قلت له، لكني أتذكر أنني تكلمت كثيراً، يحضني على ذلك استياء شديد.

وعندئذ، نعم عندئذ، إنما أخرجوني ودحرجوني إلى آخر السلم... لا! لم يدحرجوني، بل دفعوني دفعاً فحسب. وأنت تعلمين

البقية يا فارنكا، تعلمين على أيّ حال عدت إلى منزلي. هذا هو كل شيء. لا شك أنني بهذا قد أهنت نفسي، وضيّعت كرامتي، وهدرت مهابتي. ولكن ما من أحد علم بالأمر. وإذن فكأن شيئاً لم يحدث. ألا تظنين ذلك يا فارنكا. ومما أعلمه علم اليقين على كل حال هو أن هياسنت، أو سسوفتش، قد هجم في السنة الفائتة على شخص بطرس بتروفتش، في مكتبنا، هجوماً كهذا الهجوم، ولكنه فعل ذلك سراً، خفيةً، على غير علم أحد. استقدمه إلى غرفة الحارس وكنت أنا أراقبهما من شق الباب. فرأيته يتصرف كما ينبغي التصرف في مثل هذه الحال، ولكن بطريقة رفيعة نبيلة، لأن أحداً لم يره غيري. وما قيمة أن أراه أنا؟ أنا لست شيئاً، أقصد أنني لم أقصّ الحكاية على أحد. وبعد ذلك الحادث لم يتظاهر هياسنت وبطرس بتروفتش بشيء البتة. لاحظي أن بطرس بتروفتش رجل معتز بنفسه، حريص على سمعته أشد الحرص، لذلك لم يرد لأحد شيئاً، حتى إنهما ما يزالان يتبادلان التحيات ويتصافحان أمام الناس. لست أنكر يا فارنكا، ولن أحاول أن أنكر أنني سقطت سقوطاً مريعاً. لا أنكر هذا، والأنكى من ذلك أنني فقدت اعتباري في نظر نفسي. لا شك أن هذا الشقاء قد كتب عليَّ منذ ولدت، ولا شك أن ذلك قدَري، وما من إنسان في هذا العالم يمكن أن يفلت من قدره... أنت تعلمين ذلك. هذا هو يا فارنكا الشرح الكامل والسرد الدقيق لما قاسيت من مكاره وما عانت من تدهور. وهذه كلها أمور يمكن أن لا تقرأ. وفيم قراءتها وقد استوى كل شيء الآن؟

اني أشعر بشيء من الإعياء يا ماتوشكا، وقد فقدت كل بشاشة في النفس وكل فرحة في القلب. لذلك أكتفي بأن أؤكد لك ما أشعر

به نحوك من تعلق وحب واحترام، وأظل، يا عزيزتي المحترمة جداً فرفارا ألكسييفنا:

خادمك المطيع

ماكار دييفوشكين

29 تموز (يوليو)

السيد العزيز ماكار ألكسييفتش

قرأت رسالتك، فاوشكت أن أصيح من فرط الدهشة. أحد شيئين يا عزيزي: إما أنك تخفي عني شيئاً ما، وأنك لم تقص عليَّ إلّا جانباً من المكاره التي وقعت لك، وإما أنك، يا ماكار ألكسييفتش، ما تزال تعاني اضطراباً نفسياً...

إن رسائلك تدل على شيء من ذلك في الحقيقة... تعال إليَّ، ناشدتك الله، زرني في هذا اليوم نفسه. اسمع، تعال إلينا للعشاء هكذا بغير كلفة. إنني أجهل جهلاً تاماً كيف تعيش في مسكنك، وهل تفاهمت مع صاحبة البيت أخيراً. أنت لا تكتب إليَّ شيئاً في هذا الموضوع، كأنك تتعمد السكوت عن هذه المسألة. أودعك الآن يا صديقي. ولكني أرجوك أن تأتي إلينا اليوم، تعال حتمًا. والأصلح على كل حال أن تتعشى كل يوم معنا. إنّ فيدورا تجيد الطهي. وداعاً.

المخلصة لك

فرفارا دوبروزيولوفا

أول آب (أغسطس)

عزيزتي فرفارا ألسكييفنا!

إنه ليسعدك يا ماتوشكا أن الله وهب لك فرصة الرد على الإحسان بالإحسان، وأن تبرهني لي على الشكر والامتنان. إنني أقدر هذا يا فارنكا، وأؤمن بطيبة قلبك الصغير، قلب الملاك، فلست أعتب عليك إذن، ولكن لا تذكّريني، كما فعلت في المرة الماضية، بأنني في أواخر أيامي قد اندفعت في أعمال طائشة كأعمال المجانين. لقد أثمت، نعم إذا كنت تصرين على أن تصِفي عملي بأنه آثم... ولكن يشق على نفسي، يا صديقتي الطيبة الشهمة النبيلة، أن أسمع هذه الأشياء من فمك أنت. ذلك قاس على نفسي. لا تؤاخذيني إذا قلت هذا الكلام يا ماتوشكا. إنّ شيئاً في صدري يتمزق.إنّ الفقراء أصحاب نزوات وبدوات. الطبيعة أرادت لهم ذلك. الفقير إنسان متشدد كثير الشك والحذر. له طريقة خاصة في رؤية العالم، فهو يلتفت نحو كل عابر سبيل، ويلقي على ما حوله نظرات قلقة وجلى، ويسترق السمع إلى كل كلمة، متسائلاً: أتراهم يتكلمون عنه؟ أتراهم يطلقون ملاحظة من الملاحظات عن مشيته المتعثرة المضحكة؟ أتراهم أرادوا أن يقرأوا ما في نفسه ساخرين؟ ها هم أولاء يُنْعمون فيه النظر، ليروا هيئته من الجهة اليسرى، ثم ليدرسوا هيئته بعد ذلك من الجهة اليمنى، ذلك أنهم يعلمون يا فارنكا أن الإنسان الفقير لا يساوي أكثر من خرقة بالية، وأنه لا يطمع لنفسه في أي نوع من الاحترام، مهما يقل القائلون ومهما يكتب الكاتبون! آه من هؤلاء الكتّاب الثرثارين! آه من هؤلاء الذين ما ينفكون يسودون أوراقاً! فمهما يتقنوا صف العبارات وتنميق الجمل، سيظل الإنسان الفقير

على ما هو، ولن يتغير فيه شيء. أما لماذا سيظل ما هو لا يتغير فيه شيء، فلأن هؤلاء الناس جميعاً يرون أن كل شيء لديه يجب أن يكون مكشوفاً مبسوطاً أمام الأعين معروضاً للأبصار، فلا شيء في نفسه يجب أن يظل سراً أو أن تكون له حرمة. ليس له أن يكون ذا كرامة أو كبرياء.. حرام عليه ذلك! خذي هذا المثال: لقد حكى لي إيميليان منذ مدة أن بعض الناس نظموا له اكتتاب تبرع من أجل مساعدته فكان جميع المكتتبين يعتقدون أن من حقهم أن يشرعوا في تحقيق يشبه أن يكون رسمياً، يجلو لهم شخصه ويكشف لهم عن حياته. لقد ظنوا أنهم يهدون إليه دريهماتهم. كذبٌ هذا. الحق أنهم دفعوا ثمن رؤية رجل فقير. كل شيء في هذا الزمان يتم على نحو عجيب يا فارنكا، حتى البر والإحسان... ولكن لعل الأمر كان كذلك في جميع الزمان، من يدري! أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن هؤلاء الناس لا يعرفون كيف يتصرفون من أجل أن يفعلوا الخير، وإما أنهم مسرفون في المكر والحذق. تلك أمور لعلك تجهلينها يا ماتوشكا: ألا فلتعلميها إذن الآن.أنا جاهل في كل ما عدا هذا، أما هذا فأعلمه حق العلم. قد تسألينني لماذا يعرف الفقير هذا؟ لماذا يفكر الفقير على هذا النحو؟ هي التجربة يا عزيزتي، التجربة وحدها. هو يعرف مثلاً أن ذلك السيد الذي يمشي في الشارع على مسافة بضع خطوات منه متجهاً إلى أحد المطاعم، يقول لنفسه: «وددت لو أعلم ما عسى يأكل اليوم هذا الموظف البائس. أما أنا فسوف آمر لنفسي بطبق من شواء، وأما هو فلا شك أنه سيكتفي بجريش مسلوق بلا زبدة»، هناك ناس من هذا النوع يا فارنكا، هناك بشر يقضون أوقاتهم كلها في تأملات من هذا القبيل. إنّ أولئك الكتّاب الوقحين وأولئك المخربين الأوغاد الذين ترينهم يتنزهون في الشارع، فلا يكون لهم

من هَمٍّ إلّا أن يلاحظوا هل يضع فلان على الأرض راحة قدمه كلها أم هو يمشي على رؤوس الأصابع، يحبون أن يعرفوا إذا كان في حذاء ذلك الموظف البسيط ثقوب تخرج منها أصابع قدميه عارية؟ هل كماه مهترئين حتى الكوعين؟ إنهم يلاحظون ذلك ثم يصفونه وينشرونه كتباً كريهة مقيتة! فيم يهمهم أن يكون كمايّ مثقوبَيْن حتى الكوعين؟ اغفري لي يا فارنكا إذا جئتك بتشبيه فظ فقلت إن الرجل الفقير يشعر في هذه الأمور كلها بنفس الحياء الذي تشعرين به أنتِ كفتاة. فأنت لا تحبين طبعاً- واغفري لي هذا التشبيه الثقيل أيضاً- أن تتعرّي أمام الناس. فكذلك الرجل الفقير، لا يحب أن يحشر أحد أنفه في خدره ليرى كيف يعيش. لم يكن من الخير إذن يا فارنكا أن أهان في المرة الماضية بالتواطؤ مع أعدائي الذين يحاولون أن ينالوا من شرف رجل فاضل ومن عزّة نفسه.

كنت أشعر اليوم بضيق شديد في المكتب، كنت أتجمع على نفسي كقنفد أو كعصفور منتوف. خيل إليّ أن العار يلتهمني ويحرقني من أخمص القدمين إلى قمة الرأس. كنت متضايقاً من نفسي بَرِماً بها يا فارنكا. وكيف لا يخجل المرء ولا يرتبك حين يظهر كوعه من كم قميصه وحين تتراقص أزرار ردائه على طرف خيط؟ كان كل شيء في هندامي فوضى، هذا الصباح، كأنما عن عمد. إنّ المرء يفقد شجاعته في مثل هذه الظروف. ثم... لقد أخذ ستيفان كارلوفتش نفسه يحدثني في بعض الأعمال اليوم. فما هي إلّا لحظة حتى انطلقت منه صيحة تعجب قائلاً: «آ... يا ماكار ألكسييفتش، باتوشكا...» لم يكمل قول ما كان يدور في فكره، ولكنني حزرت ذلك فوراً، فاصطبغ وجهي بالحمرة، حتى لقد احمرّت صلعتي.

الحق أن صيحة التعجب تلك كانت تبدو عابرة لا شأن لها، ومع ذلك فهي تقلقني، وهي تثير في رأسي أفكاراً لا حصر لها. أتراهم في الدائرة قد علموا بما جرى؟ وقاني الله شر هذا، ما عسى يقع لو علموا؟ لا أكتمك أنني أشتبه في شخص معين. إنّ هؤلاء الأشقياء لا يعرف قلبهم الرحمة ولا الشفقة. سوف يفضحونني، سوف يبيعون كل أسرار حياتي، لا حرمة لشيء عندهم.

أنا أعرف الآن من الذي فضحتي. إنّ راتازاييف هو الذي دبر هذه المكيدة. إنه يعرف أحد الموظفين في دائرتنا، فلا بد أنه قص عليه الأمر عابراً أثناء حديث جرى بينهما، مضيفاً إليه أموراً من عنده كما أتخيَّل، أو لعله تحدث عن الأمر في دائرته هو، فتسربت الإشاعة من هناك إلى دائرتنا. ذلك أن جميع سكان منزلنا، بغير استثناء، يعرفون تلك القصة، ويومئون إلى نافذتك بالإصبع. وأمس، حين ذهبت أتعشى عندك، وقفوا جميعاً على النافذة، وروت صاحبة المنزل المثل السائر الذي يتحدث عن الشيطان يحوم حول الطفل، ثم قالت بعد ذلك كلمة نابية في الكلام عليك. ولكن هذا كله لا يعَدّ شيئاً إذا قيس بما يبيته راتازاييف من نية حقيرة، وهي أن يضعنا أنا وأنت في الأدب، وأن يصفنا وصفاً ساخراً. لقد صرح هو نفسه بذلك، ونقل إليَّ أقواله أناس شرفاء من سكان منزلنا. انقلب عقلي رأساً على عقب منذ سمعت هذا الكلام. أصبحت لا أستطيع ان أفكر في شيء ولا أعرف أي قرار اتخذ. لماذا نخفي عن أنفسنا يا ملاكي اللطيف أننا بآثامنا قد آثرنا سخط الله علينا؟ اقترحت يا ماتوشكا أن ترسلي إليَّ كتاباً أتسلى بقراءته. ألا سحقاً لهذا الكتاب! لا أريد كتباً، بَئسَت الكتب كلها! فهي لا تساوي شيئاً وليس لها أيّ قيمة. ما هي

إلّا قصص غير معقولة. ما هي إلّا حكايات سخيفة مستحيلة! ليست الروايات إلّا بلاهات وغباوات كتبها أشخاص عاطلون عن العمل، من دون أن يكون لهم هدف إلّا أن يملأوا فراغهم! ثقي يا ماتوشكا، ثقي بما أقول فهو نتيجة خبرتي الطويلة! لا تلقي بالاً إلى أولئك الذين يحدثونك عن كاتب اسمه شكسبير!- يظهر أن في الأدب كاتباً بهذا الاسم- دعيك من شكسبير ومن غير شكسبير! إن شكسبير هذا لا يساوي شيئاً هو أيضاً... ما ذلك كله إلّا ترّهات وتفاهات!. ما ذلك كله إلّا تلفيقات واختراعات تتخذ حجة لإصدار كراريس في هجاء الناس والسخر منهم والضحك عليهم.

المخلص لك

ماكار دييفوشكين

2 آب (أغسطس)

السيد العزيز ماكار ألكسييفتش

لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب؟ لسوف يصلح كل شيء بمعونة الله. لقد جاءت فيدورا بشغل كثير، لي ولها، وشرعنا نعمل فوراً في كثير من الهمة والنشاط والحماسة. لعلنا نستطيع بذلك أن نذلل جميع المصاعب. تعتقد فيدورا أن آنّا فيودوروفنا ليست غريبة عن متاعبي الأخيرة. ولكن هذا لا يهمني الآن. إنني أشعر اليوم بفرح خاص. تقول إنك تنوي اقتراض بعض المال! إياك ثم إياك! فلن تستطيع الخروج من المأزق متى آن أوان السداد. الأفضل من هذا أن تزداد قرباً منا، وأن تكثر زياراتك لنا. أما صاحبة بيتك فلا تعبأ بها ولا تلقِ إليها بالاً. وأما عن أعدائك ومضطهديك، فأنا على يقين من أنك

تعذب نفسك بشكوك لا محل لها ولا داعي لها يا ماكار ألكسييفتش! راقب نفسك! قلت لك في المرة الأخيرة إن كلامك يدل على أنك تعاني اضطراباَ شديداً. أودعك الآن، إلى اللقاء. أنتظرك عندي اليوم. لا تتخلف.

المخلصة لك

ب.د

3 آب (أغسطس)

ملاكي اللطيف فرفارا ألكسييفنا!

أسارع فأنبئك، يا شعاع ضيائي، إن بعض الآمال قد أشرقت في نفسي. كتبت تقولين لي يا ملاكي الصغير أن عليَّ أن لا أقترض شيئاً من المال. ولكنني يا حمامتي لا أستطيع أن أستغني الآن عن الاقتراض. إنّ حالتي سيئة منذ الآن، فكيف إذا حصل لك شيء لا قدر الله. إنّ جسمك ضعيف. وأنا أكتب إليك في هذه اللحظة لأقول لك أن الاقتراض لا بد منه ولا غنى عنه. لذلك أتابع محاولة الاقتراض.

إن مكاني في المكتب يا فرفارا ألكسييفنا يجاور مكان إيميليان ايفانوفتش. ليس هو إيميليان الذي تعرفينه. إنه إيميليان آخر يعمل موظفاً مثلي، ونحن أقدم موظفي الدائرة: نحن عماداها إن صحَّ التعبير. هو إنسان طيب النفس مخلص، ولكنه صموت يظل مبتعداً عن الناس، منطوياً على نفسه، يوحي مظهره بأنه دب حقاً. ولكنه في مقابل ذلك رجل لا يكل ولا يمل من العمل. وله قلم ما أروعه!..

خط إنجليزيّ قح! يجب أن أعترف، حتى أكون صادقاً، بأن خط هذا الرجل المحترم لا يقل جمالاً عن خطي. لم تقم بيننا صلة قوية حتى الآن، وكنا نقتصر على تبادل تحيات مثل: «صباح الخير»، «مع السلامة»، الخ... وكنت في بعض الأحيان إذا احتجت إلى موسى أبري بها قلمي أتجه إليه قائلاً: «أعرني الموسى».. الخلاصة أن كل شيء بيننا كان لا يزيد على التزام المواضعات التي تقضي بها اللياقة. وها هو ذا يسألني في هذا الصباح على حين فجأة: «ما بالك يا ماكار ألكسييفتش؟ إنك تبدو شارد اللب كثير التفكير». أدركت أنه يريد لي خيراً. فقلت له «والله... يا إيميليان ايفانوفتش، الأمر كيت وكيت». طبعاً لم أذكر له كل شيء، معاذ الله! لا ولن أذكر له كل شيء يوماً. ولو أردت ذلك لما تجرأت على كل حال. كل ما هنالك أنني كشفت له عن بعض الأمور الجزئية، وأسررت إليه أنني في ضيق، الخ... فأجابني بقوله: ولماذا لا تقترض شيئاً من المال ما دام الأمر كذلك يا عزيزي؟ إذهب إلى بطرس بتروفتش، فإنه يقرض بفائدة. ولقد سبق أن أقرضني بفائدة معتدلة محتملة.آه يا فارنكا، لقد وثب قلبي من صدري حين سمعت هذه الكلمات. وأخذت أفكر وأفكر. قلت لنفسي من يدري؟ قد يلهم الله بطرس بتروفتش، هذا الرجل المحسن، أن يقرضني أنا أيضاً. وأجريت حسابي فقدرت أنني سأستطيع أن أدفع لصاحبة البيت ديناً علي، وانني سأستطيع أن أساعدك أيضاً، وأنني سأستطيع أن أحسّن هندامي قليلاً آخر الأمر. ذلك أنه من المخجل أن يكون هندامي على ما هو عليه الآن. لقد أصبحت أشعر بضيق وحرج في المكتب، ناهيك عن أولئك الساخرين الأشرار الذين لا ينتظرون إلّا حجة من أجل أن يستهزئوا. وهَبيني لا أحفل بهم بل أدعهم وشأنهم... إنّ من الممكن أن يمر

صاحب المعالي بمكتبي، وهذا يحدث من حين إلى حين، ومن الممكن لا قدر الله، أن يلقي عليَّ نظرة فيرى ملابسي غير لائقة، وهو رجل يعتقد أن النظافة وحسن الهندام أهم من أي شيء آخر. صحيح أنه لن يقول لي شيئاً. ولكنني سأموت في مكاني من فرط الحياء والخجل والاضطراب. ذلك ما قد يحدث. لذلك استجمعت شجاعتي، ودسست خجلي في جيبي المثقوبة، وتوجهت نحو بطرس بتروفتش ممتلئاً بالأمل مرتعشاً من الخشية في آن واحد. لكن الأمور لم تنته إلى ما أحب يا فارنكا. تخيلي لأن ذلك كله لم يجدني نفعاً. كان في تلك اللحظة مشغولاً يكلم تادي ايفانوفتش، فدنوت منه من جانب، وشددت كمه قائلاً: «بطرس بتروفتش، هيه... بطرس بتروفتش»، فالتفت إليّ، فتابعت اشرح له أنني في حاجة إلى ثلاثين روبلاً، الخ. فلم يفهم في أول الأمر ما أريد، حتى إذا شرحت له الأمر مرة أخرى، أخذ يضحك لكنه لم يجب بل اكتفى بالصمت. وكررت طلبي، فقال لي عندئذ: «هل عندك رهن؟» ثم عاد ينهمك في كتابته، متابعاً عمله دون أن ينظر إليّ. اضطربت قليلاً. ثم أجبته قائلاً: «لا ليس عندي رهن يا بطرس بتروفتش». وحاولت أن أقنعه بأنني سأرد إليه القرض متى قبضت راتبي، وأنني لن أتأخر عن السداد لحظة، فذلك عندي واجب مقدس. وناداه أحد في تلك اللحظة، فمضى إليه، وأخذت أنتظر، فلما عاد جعل يبري قلمه كأنه لم يلاحظ وجودي. فاستأنفت كلامي قائلاً له: «أما من وسيلة يا بطرس بتروفتش؟ أما من طريقة؟». ولكنه ظل صامتاً لا يجيب، متظاهراً بأنه لم يسمعني. فانتظرت بضع دقائق أخرى واقفاً قربه. ثم قررت أن أحاول محاولة أخيرة، فشددت كمه مرة ثانية، فلم ينبس بحرف، حتى إذا فرغ من بري قلمه عاد ينهمك في الكتابة فلم يسعني إلّا أن

أنصرف عنه. هؤلاء يا ماتوشكا أناس أخيار جديرون بالاحترام ما في ذلك ريب، ولكنهم مسرفون في الكبر والصلف والزهو، فلا يعرف المرء كيف يأخذهم. نحن صغار جداً بالقياس إليهم يا فارنكا. لذلك أكتب إليك هذا كله.

وقد أخذ ايميليان ايفانوفتش يضحك حين رويت له القصة، وهز رأسه إلى ذلك هو أيضاً. ولكنه في مقابل هذا بث في نفسي بعض الأمل يا فارنكا. إنه رجل طيب شهم. وعدني بأن يوصي بي شخصاً يعرفه يقيم، يا فارنكا في حي فيبورج، ويقرض بفائدة أيضاً، وهو موظف بالدرجة الرابعة عشرة فيما يظهر. يدعى ايميليان اتفانوفتش. إنّ الرجل سيقرضني المبلغ حتماً سأمضي إليه، ما رأيك؟ ألست على حق؟ لا غنى لي عن الاقتراض يا فارنكا. صاحبة البيت تقول إنها ستطردني، وهي ترفض أن تقدم لي طعام العشاء. حذائي في حالة يرثى لها يا ماتوشكا، وأنا في حاجة إلى أزرار، وإلى أشياء أخرى كثيرة أيضاً. ما عسى يحدث لو لاحظ أحد من رؤسائي هندامي الرث؟ سيكون ذلك مصيبة، سيكون ذلك كارثة حقاً.

ماكار دييفوشكين

4 آب (اغسطس)

عزيزي ماكار ألكسييفتش

ناشدتك الله يا ماكار ألكسييفتش أن تحصل على مال بأي وسيلة، أن تقترض مالاً بأقصى سرعة. ما كنت لأرضى أن أطلب منك مساعدة في الظروف الراهنة، ولكنك لا تعرف الوضع الذي أنا فيه. يستحيل علينا أن نبقى في هذا المسكن بأية حال. لقد أصابتني

مكاره رهيبة، ولا تستطيع أن تتخيل مدى الاضطراب النفسي الذي أعانيه في هذه اللحظة.

تصور يا صديقي أن رجلاً لا نعرفه، رجلاً مسناً يشبه أن يكون شيخاً عجوزاً مع أوسمة كثيرة، جاء إلينا هذا الصباح. دهشت من مجيئه أشد الدهشة، لأنني لا أعرف لزيارته سبباً. كانت فيدورا قد خرجت منذ لحظة لشراء شيء. أخذ الرجل يلقي عليَّ الأسئلة تلو الأسئلة، فهو يسألني عن معيشتي وعن مشاغلي، ثم إذا هو يصرح لي فجأة قبل أن أفرغ من الاجابة على أسئلته، بأنه عم ذلك الضابط، وبأنه قد استاء كثيراً من السلوك السيئ الذي سلكه معي ابن أخيه فعرَّضني لسوء السمعة، وقال إن ابن أخيه صبي غر طائش العقل، وعرض علي أن أكون في حمايته ورعايته، وأكد في الوقت نفسه أن عليَّ أن لا ألقي بالاً إلى الشبان، مضيفاً إلى ذلك أنه يقدر ظروفي ويعطف عليَّ عطف الأب على ابنته، ويشعر نحوي شعور الأب نحو ابنته، وأنه على استعداد لأن يساعدني في كل أمر. فاحمرَّ وجهي وتساءلت ماذا يجب أن يكون رأيي في هذا الكلام، ولكنني لم أتسرع فأشكره. وما هي إلّا لحظة حتى رأيته يمسك يدي عنوة، ويلامس خدي، ويقول إنني فتاة جميلة، وأنه افتتن بي حين لاحظ أن لي نقرتين في وجنتي (الله أعلم ماذا قال في هذا!) وأراد أخيراً أن يقبلني بحجة أنه شيخ عجوز (ما كان أبشعه!) وفي هذه اللحظة دخلت فيدورا. فاضطرب قليلاً وعاد يؤكد مرة أخرى أنه يقدرني ويحترمني لما أتصف به من تواضع ولما يتصف به سلوكي من استقامة، وأنه يتمنى أن أثق فيه وأن لا أخشاه قط. ثم جذب فيدورا إلى ركن من الغرفة وأراد أن يعطيها بعض المال متذرعاً بحجج غريبة. لكن فيدورا رفضت أن تأخذ المال طبعاً. وقرر الرجل أخيراً أن ينصرف، ولكنه جدد تأكيداته

واعداً أن يعود مرة أخرى، وأن يجيئني بقرطين (كان يبدو مضطرباً هو نفسه) ونصحني أن أستبدل بشقتي شقة أخرى، وأوصاني بمنزل وصفه بأنه جيد جداً وبأنه لن يكلفني أجراً. وصرح بأنه يشعر بكثير من العطف نحوي لأنني فتاة شريفة عاقلة. ونصحني أن أتجنب الشبان الذين فسدت أخلاقهم، وذكر أنه يعرف آنـّا فيدوروفنا، وأنها كلفته بأن يبلغني أنها ستزورني هي أيضاً. فهمت في تلك اللحظة كل شيء فتملكني غضب شديد حتى أصبحت كالمسعورة. هذه أول مرة في حياتي أتعرض فيها لمثل هذا الموقف. صرخت في وجهه حانقة ساخطة. فاضطرب اضطراباً شديداً. وهبت فيدورا في تلك اللحظة إلى نجدتي، فأخرجته من البيت إخراجاً يوشك أن يكون طرداً. وخلصنا إلى أن آنـّا فيدوروفنا هي التي دبرت الأمر كله، وإلا فكيف له أن يعرفنا!..

أتوجه إليك الآن يا ماكار ألكسييفتش ضارعة أن تساعدنا. ناشدتك الله ألا تتركنا على مثل هذا الوضع! اقترض مالاً، ولو مبلغاً ضئيلاً، لأننا لا نملك ما ندفعه نفقات انتقال، ومن المستحيل علينا قطعاً أن نمكث هنا بعد الآن. ذلك رأي فيدورا أيضاً. لا بد لنا من خمسة وعشرين روبلاً. سأردها إليك، ساجنيها بعملي. ستأتيني فيدورا بأشغال جديدة بعد بضعة أيام، فإذا كنت متردداً عن الاقتراض لأن الفائدة باهظة مثلاً، فلا توقفك هذ الصعوبة، بل وافق على كل شيء. سأرد إليك المبلغ كاملاً، ولكن ناشدتك الله لا تتركني بلا سَنَد. يحز في نفسي طبعاً أن أزعجك في الظروف الحالية، ولكنك الآن أملي الوحيد، ولا أمل لي سواك. وداعاً يا ماكار ألكسييفتش. فكر فيَّ، وليكلل الله مساعيك بالنجاح.

ب.د

4 آب (أغسطس)

يمامتي، عزيزتي، فرفارا ألكسييفنا

إن هذه الضربات الكثيرة التي يباغتك بها القدر ترهقني وتضنيني. إنّ هذه النوازل الرهيبة تهشم قلبي وتشل روحي. إنّ هذا النوع من المتطفلين الذين تعددت أنواعهم، ومن الشيوخ العجز الذين يبعثون على الاشمئزاز، لا يشيعون الحزن واليأس في قلبك وحدك يا ملاكي الرقيق، بل لقد آلوا على أنفسهم فوق ذلك أن يجهزوا عليَّ أنا إجهازاً كاملاً. ولسوف يصلون إلى مبتغاهم، هؤلاء الطفيليون، أؤكد لك ذلك. ذلك أنني أوثر الآن أن أموت جوعاً على أن لا أهبّ إلى مساعدتك. إذا لم أساعدك فذلك هو الموت عندي يا فارنكا، الموت الأكيد، الموت المحقق. وإذا أنا ساعدتك فستبتعدين عني، ستطيرين إلى بعيد يا طائري الصغير، ستهجرين عشك الصغير الذي باغتك فيه البوم الحقير يريد أن يقضي عليك ضرباً بالمناقير. ذلك ما يعذبني ويضنيني يا ماتوشكا. ولكن كيف أمكنك يا فارنكا أن تكوني قاسية هذه القسوة كلها أنت أيضاً؟ ما هذا الذي يدور في خلدك؟ إنهم يضطهدونك ويهينونك، فتتألمين وتتعذبين يا طائري الصغير، ثم اذا أنت تزيدين على ذلك فتلومين نفسك على أنك تزعجيني وتضايقيني. إنك تعدين بأن تكدّي في العمل وتجهدي نفسك حتى تردّي الدين، فكأنك تريدين أن تقتلي نفسك قتلاً، وأنت على ما أنت عليه من سوء الصحة ووهن الجسم، في سبيل أن نسدد المال في مواعيده. هلا فكرت يا فارنكا في ما تقولين؟ لماذا تقدّرين أن عليك أن تضاعفي جهدك في ما تقومين به من أعمال الخياطة، وأن ترهقي نفسك، وتعذبي روحك بهذه الهموم كلها، وأن تتعبي

عينيك الجميلتين، وتهدمي البقية الباقية من قواك؟ صحيح يا ملاكي أنني امرؤ لا يصلح لشيء، ولكنني سأحاول أن أكون مفيداً لك على الأقل. سأذلل جميع العقبات. سأحصل على عمل إضافي خارج الوظيفة. سأنسخ لكتّاب كثر، أفرض نفسي عليهم، وأجبرهم على أن يعهدوا إليَّ بأعمال، لأنهم في حاجة إلى ناسخين. ولكنني لن أسمح لك بأن تقتلي نفسك في الشغل، لن أرضى أن تنفذي مشروعك المقيت هذا. سوف أقترض مالاً يا ملاكي الرقيق، اطمئني. تطلبين مني يا يمامتي أن لا يصدني الربا الفاحش عن الاقتراض. ولكن ذلك لن يصدني يا ماتوشكا، لا لن أخاف، لن يثنيني أي شيء بعد الآن. سوف أطلب قرضاً مقداره أربعون روبلاً ورقاً يا ماتوشكا. ليس هذا بكثير يا فارنكا، أليس كذلك؟ هل تقدّرين أنهم سيقرضونني أربعين روبلاً على الثقة؟ هل يمكن أن يثقوا بي لأول وهلة؟ هل أستطيع، أعني هل أستطيع في رأيك أن أوحي بالثقة والاطمئنان دفعة واحدة؟ أقصد: هل توحي بذلك هيئتي، هل يوحي بذلك منظري؟ هل أحدث في نفس من يراني انطباعاً حسناً؟ حاولي أن تتذكري يا ملاكي الرقيق هل أحدث في نفس من يراني أثراً حسناً من أول نظرة؟ هل يرتاح إليَّ الناس حين يرونني؟ ذلك أنني أشعر بنوع من الرهبة حين ألقي على نفسي هذا السؤال، أشعر بخوف مرضي والحق يقال. من هذه الروبلات الأربعين سوف أحتفظ لك يا فارنكا بخمسة وعشرين، ثم أعطي صاحبة البيت روبلين فضة، أما الباقي فأنفقه على نفسي، على حاجاتي. صحيح أن من المستحسن أن أعطي صاحبة البيت أكثر من ذلك، حتى لقد يكون هذا ضرورياً لا غنى عنه. ولكن فكري في الأمر أنت نفسك يا ماتوشكا. احسبي النفقات التي لا بد منها، ترى أنه يستحيل عليَّ أن أنقد صاحبة المنزل أكثر من روبلين فضة.

غير وارد إذن أن أفعل ذلك، من الأفضل أن لا نتحدث فيه. سوف أشتري حذاء لي بروبل فضة. إنني أتساءل: هل يمكن أن يتماسك حذائي القديم حتى الغد، هل يمكن أن أنتعله لأذهب إلى المكتب في الغداة. أحتاج أيضاً إلى عصبة عنق، ذلك أن العصبة العتيقة قد بليت منذ سنة. ولكن لمَّا كنت قد وعدتني أن تفصلي لي عصبة من مآزرك العتيقة، بل وصدرة أيضاً، فإنني لا أفكر الآن في شراء عصبة أو صدرة. حُلّت إذن مشكلة الحذاء والعصبة. أحتاج عدا هذا إلى أزرار، لأنني فقدت نصف أزرار سترتي. إنني لأرتعش حين أتصور أن صاحب المعالي قد يرى ما أنا فيه من فوضى! ما عساه يقول عندئذ يا رب! على أنني لم أسمع الملاحظات التي قد يبديها في هذه الحالة، لأنني سأموت على الفور، سأموت خجلاً وحياء وشعوراً بالعار! آه ما أقسى هذا يا فارنكا! سيبقى لي إذن بعد كل هذه النفقات التي لا بد منها ثلاثة روبلات ورقاً، وسيكفيني هذا المبلغ لأقيم أودي، وكذلك لأشتري نصف رطل من التبغ، لأنني لا أستطيع يا ملاكي الرقيق أن أعيش بلا تدخين: منذ تسعة أيام لم أضع الغليون في فمي مرة واحدة. في وسعي أن أشتري لنفسي هذا التبغ من دون أن أقول لك ذلك، ولكنني أخجل أن أفعل. أتعيشين أنت في مثل هذا البؤس، وتحرمين نفسك من كل شيء، ثم أبدد أنا المال في سبيل ملذات صغيرة تافهة؟ لذلك ترينني أحدثك في هذا الأمر الآن حتى لا يرهقني عذاب ضمير. يجب أن أعترف لك بصراحة يا فارنكا، أنني الآن في وضع هو الدمار بعينه، وضع ما مررت بمثله في حياتي أبداً. إنّ صاحبة البيت تحتقرني، وما من أحد يحترمني. مصاعب من جميع الجهات، ثم ديون وديون، وفي المكتب، حيث لم يكن زملائي يحبونني كثيراً حتى قبل الآن، ساء وضعي مزيداً

من السوء يا ماتوشكا. إنني أحاول أن لا ينتبه إليَّ أحد، فأنكمش على نفسي، وأختبىء عن الناس، وأتسلل إلى مكاني في المكتب تسللاً، حتى أتحاشى نظرات الآخرين وحتى لا أرى شيئاً أنا أيضاً. هذه أمور لا أكاد أملك من الشجاعة ما يمكنني من البوح بها... وما قولك إذا رفض أن يقرضني؟ لا... لا... الأفضل يا فارنكا أن لا أفكر في هذا، وأن لا أهدم قلبي بمثل هذه الخواطر. ومن أجل ذلك إنما أكتب إليك الآن... لأجنبك التفكير في مثل هذا الأمر، لأقيك العذاب الذي سوف تعانيه إذا خطرت ببالك فكرة سيئة كهذه الفكرة. يا رب، يا رب! ما عسى يحدث لنا في مثل تلك الحالة؟ ما عسى يحدث لنا إذا رفض أن يقرضني؟ صحيح أنك لن تستطيعي الانتقال من بيتك عندئذ، وأنك ستظلين في هذا المنزل، فتمكثين قريبة مني غير بعيدة عني. ولكن من جهتي.. يا إلهي.. سوف أعجز حتى عن العودة إلى بيتي اذا أخفقت في مسعاي، سوف أهلك نفسي عندئذ في مكان ما، سوف أموت. لقد طالت رسالتي. ويجب أن أحلق ذقني. من الأفضل أن يحلق المرء ذقنه... من المستحسن دائماً أن يعنى المرء بمظهره. أسأل الله أن يعيننا ويشد أزرنا. وسوف أصلي الآن ثم أمضي إلى مسعاي.

م. دييفوشكين

5 آب (أغسطس)

السيد العزيز جداً ماكار ألكسييفتش

ليتك لا تعذب نفسك هذا التعذيب كله على الأقل! أليس ما بنا من شقاء كافياً لتزيد عليه هذا التعذيب الذي توقعه في نفسك؟ أرسل

إليك ثلاثين كوبكاً. يستحيل عليَّ أن أفعل أكثر من ذلك إطلاقاً. فاشتر ما أنت في أمس الحاجة إليه حتى تعيش إلى الغد على كل حال. لم يبق لنا شيء تقريباً، ولا أدري ما عسى يكون أمرنا في الغد. ذلك محزن يا ماكار ألكسييفتش ولكن لا يفيد في شيء أن تحزن هذا الحزن كله: لقد أخفق مسعاك، فما حيلتنا وماذا نستطيع أن نفعل؟ فيدورا تؤكد أن ذلك ليس بكارثة، وأنه في إمكاننا أن نبقى في هذا المسكن إلى حين، ولن ينفعنا كثيراً أن ننتقل إلى مسكن آخر على كل حال، ففي وسعهم دائماً أن يعثروا علينا إذا هم أصروا. ومع ذلك أرى أنه لا يستحسن أن نبقى هنا الآن ولولا أنني حزينة جداً لكتبت إليك شيئاً في هذا الموضوع.

غريب طبعك يا ماكار ألكسييفتش! إنك تسرف في الأسى لأحزان الآخرين. وعلى هذا سوف تقضي حياتك كلها شقياً تعيساً إلى أبعد حدود الشقاء والتعاسة. إنني أقرأ كل رسالة من رسائلك بانتباه شديد، فأدرك أنك تعذب نفسك من أجلي، وأن الهموم تقع على كاهلك في سبيلي، وأن حزنك عليَّ أشد من حزنك على نفسك في أي وقت من الأوقات. سيقول جميع الناس طبعاً إنك رجل طيب القلب. أما أنا فأرى أن هذا إسراف في طيبة القلب. ما أقوله الآن هو نصيحة من صديقة تخلص لك الود يا ماكار ألكسييفتش، أنا شاكرة لك، شاكرة لك جداً، جميع الجهود التي بذلتها في سبيلي. أعرف هذه الجهود، وأشعر إزاءها بأعمق الامتنان والتأثر. أنظر إلى الأمر بنفسك واحكم فيه: إنه ليحزّ في نفسي ويؤلمني أشد الألم أن ألاحظ، بعد كل المصائب التي نزلت بك والتي كنت أنا سببها على غير إرادة مني، أنك ما تزال حتى الآن لا تعيش إلّا بي ولي، فكأن العالم كله خلا

إلا من افراحي وأتراحي ومشاكلي. لو كان على المرء أن يأسى هذا الأسى كله لما يقع لغرباء، وأن يتعذب هذا العذاب لآلآم كل إنسان من الناس، لأصبح أشقى أهل الارض طراً. حين جئت اليوم آيباً من مكتبك هالني منظرك. كنت شاحب الوجه، مذعوراً يائساً، مشعث الهيئة غريب السحنة. لماذا كنت تخاف من أن أحزن وأن أقلق. حتى إذا لاحظت أنني مرتاحة تخففت من عبئك فجأة. لا تعذب نفسك يا ماكار ألكسييفتش، لا تنحدر إلى هوّة الحزن واليأس، كن عاقلاً، أرجوك، أضرع اليك. لسوف ترى أن جميع الأمور ستنحل، وأن كل شيء سينتهي إلى خير. وإلا فلن تستطيع أن تعيش متألماً لآلام الآخرين هذا التألم دائماً. وداعاً يا صديقي. أضرع إليك. لسوف ترى أن جميع الأمور ستنحل، وأن كل شيء سينتهي إلى خير. لا يمكن أن تعيش متألماً لآلام الآخرين هذا التألم دائماً. وداعاً يا صديقي. أضرع إليك مرة أخرى أن لا تسرف في القلق عليَّ.

ب.د

5 آب(أغسطس)

يمامتي، عزيزتي فارنكا!

طيب، يا فارنكا، طيب. أنت ترين أن إخفاقي في الحصول على مال حتى الآن ليس بالكارثة الكبيرة. طيب طيب. هأنذا راض سعيد امتثالاً لأمرك. وأني لأفرح حين أتصور أنك أصبحت لا تفكرين في تركي أنا الشيخ العجوزالفقير، وأنك باقية في هذا المسكن. الحق أن قلبي طفح فرحاً حين قرأت ما تقولينه في رسالتك عن العواطف التي أكنّها لك، وحين رأيت أنك تعرفين كيف تقدرين هذه العواطف

حق قدرها. لا أتحدث عن هذا افتخاراً، بل لأنني أرى فيه برهاناً على العاطفة التي تحملينها لي ما دمت تقلقين أيضاً لما آلت إليه حالة قلبي. طيب يا عزيزتي، ما لنا ولقلبي الآن. دعينا من قلبي الآن. إنك تأمرينني بأن أتحلّى بالشجاعة. طيب يا ملاكي الرقيق. أنا أعلم أنه لا بد للمرء من الشجاعة. لكن فكري أنت في الأمر يا ماتوشكا، واقطعي فيه برأي: ما الحذاء الذي أذهب به غداً إلى العمل؟ تلك هي المسألة يا ماتوشكا. هذا أمر يمكن أن يقتل المرء قتلاً، يمكن أن يدمره تدميراً كاملاً؛ لا سيما وأنني لا أتألم على نفسي فحسب، ولا أتعذب من أجلي وحدي. ثم إنه يستوي عندي أن أخرج بلا معطف ولا حذاء في هذا الجو البارد وهذا الصقيع المتجلد، أنا قادر على احتمال ذلك مستعد لقبول كل شيء. فأنا إنسان بسيط، إنسان صغير، ولكن ما عسى يقول الآخرون، يا رب، ما عسى يقول أعدائي، ما عسى تقول هذه الألسنة الطويلة كلها، حين يرونني أخرج بلا معطف؟ من أجلهم، من أجل الناس، إنما يضطر المرء إلى ارتداء معطف وانتعال حذاء أيضاً. من أجل الناس إنما يتجمل المرء بهذه الأشياء ما في ذلك ريب. فأنا إذن في حاجة إلى حذاء، يا روحي، يا ماتوشكا، صوناً لشرفي ومحافظة على سمعتي؛ صدقي يا ماتوشكا أن الحذاءين المثقوبين يسيئان إلى سمعتي وشرفي كليهما، صدقي تجربة عجوز عاش طويلاً وعرف العالم واختبر الحياة وخبر الناس. صدقي ما أقوله لك أنا، لا ما يكتبه أولئك المخربشون الذين يسوّدون صفحات طويلة ويُسمّون أدباء.

لم أقص عليك، يا ماتوشكا، تفاصيل ما جرى أمس. لقد تألمت كثيراً، وعانيت من عذاب النفس في ذلك الصباح وحده أكثر مما

عانيت خلال سنة برمتها. إليك ما حدث: نهضت من فراشي وغادرت البيت في ساعة مبكرة جداً من الصباح، حتى أستطيع أن أجده في منزله وأن أصل إلى عملي بعد ذلك من دون تأخر. كان المطر يهطل، وكان الشارع مليئاً بالوحل. تدثرت بمعطفي. ومضيت أسعى في الشارع وأنا أتمتم: «يا رب، اغفر لي آثامي، وهب لي النجاح في مسعاي»، حتى إذا مررت أمام كنيسة، رسمت إشارة الصليب، وأعلنت لله توبتي عن كل ما قارفت من شر، وخطر ببالي في تلك اللحظة أنني لا أستحق أن أخاطب الله. سرت منكفئاً على نفسي، لا أريد أن أنظر في ما حولي. سرت لا يعنيني الطريق الذي أسلكه. كانت الشوارع مقفرة وكان المارة القلائل الذين أصادفهم يبدون مهمومين منهمكين: ولا عجب في ذلك، فمن ذا الذي يخرج في مثل هذه الساعة ومثل هذا الجو متنزهاً؟ والتقيت بجماعة من العمال متسخي الأيدي، أقبلوا عليَّ يدفعونني عابرين... يا لهم من أفظاظ غلاظ! تركتني عندئذ شجاعتي، واعتراني خوف، حتى أصبحت لا أريد أن أفكر في المبلغ الذي يجب عليَّ أن أقترضه، ولا أجرؤ أن أفكر فيه، وأنما أسير ضارباً في الأرض على غير هدى. وقرب جسر «الانبعاث» انفلت نعل أحد فردتي حذائي حتى كاد ينفصل عن الحذاء، ولكنني تابعت سيري لا أدري كيف! وهأنذا ألمح النَسّاخ أرمولاييف على حين فجأة سائراً في اتجاه عكس الاتجاه الذي كنت سائراً فيه. وقف أرمولاييف أمامي ونظر إليَّ وظل يتابعني ببصره كأنه يتمنى لو يطلب مني بعض المال ليشرب به خمراً. قلت في نفسي عندئذ «هذا هو الأوان حقاً!» وكنت أشعر بتعب شديد، فتوقفت أستريح بضع لحظات، ثم تابعت سيري. بحثت في ما حولي عن شيء يمكن أن أقف عليه تفكيري نشداناً للسلوى وسعياً

إلى بث شيء من الشجاعة في نفسي. ولكنني لم أستطع إلى ذلك سبيلاً: كان يستحيل أن أثبت أفكاري على أي شيء. يضاف إلى ذلك أنني كنت قد اتسخت بالوحل اتساخاً شديداً حتى صرت أستحي من نفسي. وأخيراً لمحت من بعيد بيتاً خشبياً أصفر اللون له درابزين. قلت لنفسي: «ذلك هو البيت الذي وصفه لي إيميليان ايفانوفتش، هنا يسكن ماركوف» (ماركوف هو الرجل الذي يقرض بفائدة يا ماتوشكا). نسيت في تلك اللحظة كل شيء. ورغم ثقتي بأن منزل ماركوف هو هذا المنزل قطعاً، أردت أن أتحقق من ذلك، فدنوت من البواب وسألته «أهذه دار ماركوف يا أخ؟» فأجابني بفظاظة وغلظة كأنه كان غاضباً من أحد، أو كأنه كان يحسب كل كلمة يقولها: «نعم هي دار ماركوف».

يا لهؤلاء البوابين ما أشد عبوسهم وتجهّمهم! ومع أن هذا لا يعنيني فقد خلف في نفسي أثراً مزعجاً. هذه حقيقة صادقة دائماً: إن كل ما يقع لنا يناسب حالتنا النفسية، فإذا كان المرء شجيّ النفس معتكر المزاج، فلا يقع له الّا أحداث مزعجة. مررت أمام الدار ثلاث مرات، فكانت عزيمتي تخور مزيداً من الخور في كل مرة. قلت لنفسي: «لا، لا، سوف يرفض ان يقرضني، فهو أولاً لا يعرفني، وهو ثانياً لن يرضيه مظهري». وقلت لنفسي أخيراً: «القدر هو الذي يقرر. على الأقل لا ألوم نفسي على أنني لن أحاول. وما يُقتل المرء لأنه حاول». قررت آخر الأمر إذن أن أفتح الرتاج في رفق. فما إن فعلت حتى انقضّت عليَّ نازلة جديدة: إنه كلب شرير صغير. حيوان حقير غبيّ، غضب مني، فأخذ ينبح بكل ما يملك من قوة، لا يتوقف عن العواء الحانق لحظة واحدة!... يا له من كلب قذر!... إن أموراً يسيرة

من هذا النوع، وأشياء صغيرة تافهة كهذا الشيء، يمكن أن تجهز على إنسان، وأن تخرجه عن طوره أحياناً، وتبدد دفعة واحدة كل العزم الذي كان قد عقد عليه أمره! ودخلت الدار أقرب إلى الموت مني إلى الحياة، وهناك وافتني مصيبة جديدة. اجتزت عتبة باب المدخل في ظلام دامس، فكنت لا أعرف أين أضع قدمي، وكانت هناك امرأة، نعم امرأة، تصب دلوا من اللبن في آنية، فلما صدمتها أفلت الدلو من يديها، فانسكب اللبن على الأرض. طفقت المرأة تعول وتوعوع! يا لها من حمقاء! وقالت:» هلا نظرت أين تسير يا عجوز، عما تبحث هنا يا قرد؟» وانطلقت منها ألفاظ أخرى قاسية، ثم أخذت بعدها تنتحب فما تتوقف عن الانتحاب؟ أروي لك هذا كله يا ماتوشكا، لأن هذه القصص تقع لي دائماً في هذا النوع من الشؤون. كأنني أنقل قلقي وارتباكي إلى الآخرين، ولا بد لي دائماً في مثل هذه الحالة من أن أجد شيئاً يهدّىء توتري. وهرعت إلى المكان عجوز شمطاء سمعت الصراخ. إنها صاحبة البيت ما في ذلك من ريب. تقدمت إليها رأساً وسألتها: «أهنا يسكن السيد ماركوف؟» فقالت «لا» ثم نظرت إليَّ من أخمص القدمين إلى قمة الرأس، فأضافت بعد ثانية أو ثانيتين: «ماذا تريد منه؟» فشرحت لها الغرض الذي جئت من أجله... قلت إن إيميليان ايميلتش... الخ الخ. «فأنا أحب أن أكلمه في عمل». فنادت العجوز ابنتها، وهي صبية شبّت عن الطوق، ولكنها حافية القدمين، وقالت لها «اذهبي فنادى أباك، إنه هناك عند المستاجرين. تفضل أيها السيد». دخلت الغرفة. إنها حجرة لائقة، قد علقت على جدرانها لوحات هي صور جنرالات، جنرالات فحسب، وفيها ديوان، ومنضدة مستديرة، وأصيص زهر. فلما لبثت وحيداً أخذت أفكر: ماذا لو انصرفت، ماذا لو ذهبت من دون أن

أنتظر التتمة؟» يميناً يا ماتوشكا لقد تمنيت أن أهرب! قلت لنفسي: «خير لي أن أعود في الغد، فسيكون الجو في غد أفضل. خير لي أن أصبر قليلاً، فالنهار غير ملائم وما حصل غير مشجع: لقد تسببت بأن يُسفحَ دلو اللبن على الأرض، وهؤلاء الجنرالات المعلقة صورهم على الجدران عابسون كثيراً. خير لي أن أعود غداً» وفيما كنت أتجه نحو الباب أريد الخروج، دخل عليَّ الرجل. كان أشيب الشعر، له عينا وغد، يرتدي ثوباً من ثياب المنزل ملطخاً بالدهن والوسخ، ويشد على خصره حبلاً اتخذه حزاماً. سألني عن الهدف من زيارتي، فذكرت له أن إيميليان ايفانوفتش هو الذي أرسلني إليه، وأنني في حاجة إلى أربعين روبلاً، وأنني جئت إليه لأكلمه في هذا العمل... ولكنه لم يدع لي أن أنهي كلامي، وقرأت في عينيه فوراً أن كل أمل قد ضاع. قال» لا داعي إلى الكلام في أعمال، فليس معي مال. أتراك تملك رهناً تقدّمه؟» فأجبته بأنني لا أملك ما أرهنه، ولكن إيميليان ايفانوفتش... الخلاصة قلت إنني في حاجة ملحة إلى المال. أصغى إلى كلامي في هذه المرة حتى النهاية. فلما انتهيت قال:» لا جدوى، ليست القضية قضية إيميليان ايفانوفتش. القضية أنه ليس عندي مال. هذا كل شيء...». قلت لنفسي: الأمر إذاً كما قدّرت، وكما توقعت، وكما تنبأت. وددت في تلك اللحظة لو تنشقّ الأرض فتبتلعني. وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي كله، وأحسست بساقيَّ تضعفان، وبظهري ينمل. نظرت إليه، فرأيته ينظر إليَّ هو أيضاً وكأنه يقول: مالك لا تنصرف؟ ماذا تنتظر بعد؟» لو كنت في ظروف غير هذه الظروف لمتّ في أرضي خجلاً وعاراً. وسألني الرجل فجأة: «ما حاجتك إلى هذا المال؟» (لقد تجرأ أن يلقي عليَّ هذا السؤال يا ماتوشكا)، ففتحت فمي أهمّ بالكلام حتى لا أبدو غبياً، لكنه لم

يشأ حتى أن يصغي إليّ، بل كرر يقول: «لا، لا، ليس عندي مال، ولولا ذلك لقدمت لك هذه الخدمة راضياً مسروراً». وجدت في مبادرته للسؤال فرصة تدفعني للمحاولة. حاولت أن أقنعه، فتكلمت وتكلمت، قائلاً إن المبلغ ليس بالمبلغ الضخم، وإنني سأرده إليه في موعده، بل قبل موعده أيضاً، وأضفت انني أقبل الفائدة التي يفرضها، وانني سأرد إليه كل شيء، وحلفت له على ذلك. لقد انصرف ذهني إليك في تلك اللحظة يا ماتوشكا، فكرت في ما تقاسين من شقاء وعذاب، وفي ما تلاقين من مصاعب، وما تعانين من بؤس. وتذكرت أيضاً نصف الروبل ذاك الذي أرسلته إلي. صاح الرجل يقول: «لا،لا، لا داعي إلى الكلام على الفوائد، كان يهون الأمر لو كان لديك رهن. أما بغير رهن فلا... وليس عندي مال على كل حال. يميناً ليس عندي مال... وإلا لكان يسرني أن أقرضك يشهد الله..». تجرأ أن يحلف وأن يُشهِدَ الله، يا له من لص!...

ذلك ما حدث يا ماتوشكا،لا أتذكر الآن كيف خرجت من عنده، ولا كيف قطعت حي فيبورج، وإنما وجدتني بعد حين على جسر «الانبعاث». كنت أشعر باعياء رهيب؟، فأنا خائر القوى متجمّد مرتعش؛ ولم أستطع أن أصل إلى مكتبي إلّا في الساعة العاشرة. أردت أن أنظف نفسي قليلاً في الدهليز، ولكن سيناجريف، الخفير، نبّهني إلى أن ذلك محظور، ف» تتلف الفرشاة، والفرشاة ملك الدولة يا سيدي العزيز» هكذا قال. إنهم يعاملونني الآن على هذا النحو من المعاملة يا ماتوشكا، أنا في نظرهم أهون شأناً من حصيرة، ذلك ما يرهقني ويضنيني يا فارنكا. ليست مصاعب المال هي التي تقتلني، وإنما تقتلني هذه الإذلالات، وهذه الهمسات، وهذه الابتسامات وهذه السخريات؛ وقد أرى صاحب المعالي يبدي ملاحظة من

الملاحظات في شأني في يوم قريب! آه يا ماتوشكا... لقد انقضت الأيام الجميلة... أعدت اليوم قراءة رسائلك إليّ. ألا ما أتعسني يا ماتوشكا، ألا ما أشقاني، وداعاً يا صديقتي العزيزة، والله أسأل أن يحميك ويرعاك.

م. دييفوشكين

حاشية: حاولت أن أقص عليك المصيبة ساكباً فيها شيء من فكاهة ودعابة. ولكنني لم أستطع فعل ذلك في هذه الساعة. لقد أردت أن أعمل بنصائحك. سأجيء إليك يا ماتوشكا، سأجيء حتماً.

11 أب (أغسطس)

فرفارا ألكسييفنا، يمامتي، ماتوشكا، لقد ضعت، ضعنا كلانا، ضعت أنا وضعت أنت، ضياعاً لا خلاص منه، ولا عودة عنه، سمعتي... كرامتي... كل شيء انتهى الآن. سوف أهلك، وسوف تهلكين أيضاً يا ماتوشكا. سوف نهلك معاً، ولا أمل لنا في نجاة، وأنا الذي قدتك إلى هذه الهاوية، نعم أنا... إنهم يستهزئون بي يا ماتوشكا، ويحتقرونني إنهم يجعلونني أضحوكة... صارت صاحبة البيت تهينني وتشتمني بلا حرج. صرخت في وجهي اليوم، قذفتني بكل ما يخطر على البال من ألفاظ، عاملتني كما لا تعامل الأرض. وفي المساء أخذ أحد أصدقاء راتازاييف يقرأ بصوت عال مسوّدة رسالة كنت قد كتبتها لك ثم سقطت من جيبي سهواً. لا تستطيعين يا ماتوشكا أن تتخيلي السخريات التي سمحوا لأنفسهم بها في هذا الأمر. لقد ضحكوا ملء أشداقهم، هؤلاء الخونة، وقالوا عنا ما يقال وما لا يقال من غمزات ولمزات. هرعت إلى غرفتهم أُخجِل

راتازاييف. لمته على أنه خان الصداقة. قلت له إنه خائن. ولكن راتازاييف هذا أجابني بانني أنا الخائن، لأنني أقوم بغزواتي سراً. قال لي: «لقد أخفيت عنا الحقيقة فما أنت ألا غاوٍ عتيق، ما أنت ألا لوفلاس محنَّك!» إنهم جميعاً يطلقون علي الآن اسم لوفلاس، ولا ينادونني إلّا بهذا الاسم، ولا يعرفونني إلا بهذا الاسم، فهل تفهمين يا ملاكي الرقيق، هل تفهمين؟ إنهم على علم بكل شيء، إنهم يعرفون الآن كل شيء. يعرفون كل شيء عنك أنت أيضاً يا صديقتي العزيزة! يعرفون تفاصيل حياتك. فهموا كل شيء، وهذا كله كان يمكن أن يهون. ولكن حتى فالدوني، الخادم، يشاركهم. طلبت منه اليوم أن يذهب إلى البقال ليشتري لي بعض الأشياء، فرفض أن يذهب بحجة أنه مشغول، فلما قلت له «من واجبك أن تطيع» أجابني بقوله: «لا، ليس من واجبي أن أطيعك أنت أيها السيد». حتى إذا لم أطق احتمال هذه اللهجة الجارحة من هذا الفلاح الجاهل فوصفته بأنه غبي، قال لي: «إذا كنت أنا غبياً مرة فأنت غبي مرة ونصفاً». فقدّرت أنه سكران، وأن الخمرة هي التي جعلته وقحاً هذه الوقاحة كلها، فقلت له: لا شك أنك سكران أيها الوقح»، فلم يتورع أن يجيبني بقوله: «أكان يمكن أن أشرب خمراً بمالك؟ أنت لا تملك ما تشرب به كأساً صغيرة. أنت تستجدي دريهمات من امرأة». وأضاف قوله: «ويعد نفسه بعد ذلك سيداً!». انظري أين صرت الآن يا ماتوشكا. لقد أصبحت أستحي أن أحيا يا فارنكا. صرت كالمذنب الذي شُدّ إلى عمود تشهيراً به وفضحاً له. هويت إلى أدنى ما يهوي إليه متشرد بغير جواز سفر! يا لها من محن! يا لها من محن رهيبة! لقد سقطت، سقطت سقوطاً كاملاً! ضعت، ضياعاً لا عودة عنه.

م.د.

13 آب (أغسطس)

عزيزي الغالي جداً ماكار ألكسييفتش!

جميع المصائب تهبط علينا. أصبحت لا أدري ما الذي سأصير إليه. ما عساك صانعاً الآن؟ ذلك أنني لا أستطيع أن أفيدك في شيء الآن. لقد احترقت يدي اليسرى بالمكواة اليوم. سقطت المكواة مني غفلة على يدي وأحرقتها... أصابتها برضّة وأحرقتها في آن واحد. يستحيل عليَّ أن أعمل الآن.

أما فيدورا فهي مريضة منذ ثلاثة أيام. إنني قلقة قلقاً فظيعاً. أرسل إليك ثلاثين كوبكاً فضة. لم يبق لنا شيء تقريباً، ومع ذلك، يعلم الله كم أتمنى أن أساعدك على مصاعبك الراهنة. أكاد أبكي أسفاً وحسرة. الوداع يا صديقي. لسوف يعزيني كثيراً أن تزورنا اليوم.

14 آب(أغسطس)

ماذا دهاك يا ماكار ألكسييفتش؟ ناشدتك الله قل لي ماذا دهاك. أأنت لا تخاف الله؟ إنك توشك أن تفقدني عقلي تماماً، عار عليك! إنك تضيّع نفسك تضييعاً كاملاً، هلا فكرت في سمعتك على الأقل؟ أنت رجل شريف النفس نبيل القلب ذو أنفة وكبرياء. فما عسى يحدث إذا عرف جميع الناس سلوكك؟ لن يبقى لك عندئذ إلّا أن تموت خجلاً وحياء وشعوراً بالعار! هلا رحمت شعرك الأشيب؟ هلا خشيت الله؟ لقد صرحت فيدورا بأنها لن تساعدك بعد اليوم أبداً. ولن أعطيك أنا قرشاً واحداً في المستقبل. انظر إلى أين قدتني يا ماكار ألكسييفتش! أتظن أنه يستوى عندي أن تكون جيد السلوك أو سيئ السلوك؟ إنك ما تزال تجهل ما أعانيه بسببك! لقد أصبحت لا

أجرؤ أن أظهر على سلم الدار: فجميع الجيران يتفرّسون في وجهي ويومئون إليَّ بأصابعهم ويذيعون عني أشياء فظيعة، بل لا يتورَّعون عن أن يقولوا «إنني هائمة غراماً بسكّير»! أتظن أن سماع مثل هذه الأقوال أمر ممتع؟ حين يؤتى بك إلى البيت سكران فإن جميع سكان المنزل يهزّون أكتافهم احتقاراً ويشيرون إليك قائلين: «هو ذا يعيدونه إلى بيته!» انني أستحي عنك، فلا أعرف ماذا أقول. يميناً لأتركنَّ هذا البيت، لأعملن خادمة في أي مكان. أما أن أبقى هنا فمستحيل. كتبت إليك أرجوك أن تأتي إلينا فلم تفعل. إنّ دموعي وآهاتي لا تأثير لها فيك إذن يا ماكار ألكسييفتش! من أين حصلت على مال تشرب به خمراً؟ أرحم نفسك ناشدتك الله! لسوف تهلك هلاكاً سخيفاً! يا له من عار فوق ذلك، يا له من تلطيخ للشرف! إن صاحبة بيتك لم تسمح لك أن تدخل غرفتك في مساء أمس، فاضطررت أن تقضي الليل في الدهليز. أعرف كل شيء لا تستطيع أن تتخيل ما أعاني من آلام حين أعلم بهذه الأمور. تعال إلينا يا ماكار ألكسييفتش، لسوف تتسلى عندنا. سوف نقرأ معاً، وسوف نستحضر بعض الذكريات. ستقص علينا فيدورا قصص أسفارها إلى الحج. ارحمني يا صديقي العزيز، لا تضيّع نفسك، ولا تقُدني إلى الضياع أيضاً. أنا لا أعيش إلّا لك. ومن أجلك إنما أبقى هنا. إعلم هذه الحقيقة وتصرف على هديها. كن كريماً على نفسك، واصمد للشقاء. تذكر القول المأثور: ليس الفقر عيباً. وفيم اليأس على كل حال؟ لسوف تنقضي هذه الهموم وهذه المتاعب. ولسوف تصلح الحال بعون الله. وإنما يجب عليك الآن أن تصبر. أرسل إليك عشرين كوبكاً، فاشترِ تبغاً واشترِ ما تشتهي، ولكن لا تنفق هذا المال في الإثم! ناشدتك الله، تعال إلينا! تعال دون تردّد! قد تكون خجلان منا، فما تحب أن تظهر

أمامنا. تغلب على هذا الشعور. هذا خجل زائف. يكفي أن تتوب توبة صادقة. ضع أملك في الله يصلح الله أمركـ.

ب.د.

19آب (أغسطس)

فرفارا الكسييفنا، ماتوشكا!

أنا أشعر بالخجل، يا طائري الجميل، يا فرفارا ألكسييفنا، أنا أشعر بالعار. ولكن هل ما فعلته أمر خارق يا ماتوشكا؟ أي ضير فيه؟ لماذا يكون حراماً على المرء أن يُفرِحَ نفسه قليلاً، وأن يتيح لقلبه شيئاً من الانشراح؟ إنني حين أشرب أنسى التفكير في نعل حذائي. والنعل شيء تافه، وسيظل إلى الأبد تافهاً وضيعاً قذراً بالياً. بل إن الحذاء نفسه شيء حقير، كان حكماء اليونان لا ينتعلون أحذية. لماذا يجب علينا نحن أن نهتم كل هذا الاهتمام بشيء هيّن هذا الهوان. هل في هذا ما يدعو إلى نقدي وإهانتي؟ هل في هذا ما يدعو إلى احتقاري؟ ايه يا ماتوشكا يا ماتوشكا! لشد ما أظهرت في رسائلك من قلق لهذا الأمر! أما فيدورا فقولي لها على لساني إنها امرأة تافهة مضطربة مفتونة بالفضائح، وهي إلى ذلك غبية جداً، غبية غباء لا سبيل إلى مغالبته. كلمة أخرى في موضوع شَعري الشائب: لقد أخطأت في هذه النقطة أيضاً يا عزيزتي الغالية، لأنني لست ذلك الشيخ الهرم الذي تتصورين. إيميليان يبعث إليك بتحياته. كنت تقولين في رسالتك أنك حزنت حزناً شديداً وأنك بكيتِ، فاعلمي إذن أنني حزنت حزناً شديداً أيضاً وأنني بكيت أيضاً. وفي الختام أتمنى لك أن تكوني في صحة جيدة وأن تكوني راضية مسرورة. أما

أنا فإنني في صحة جيدة وراضٍ مسرور، وما زلت يا ملاكي اللطيف صديقك:

ماكار دييفوشكين

21 آب (أغسطس)

سيدتي وصديقتي العزيزة فرفارا ألكسييفنا!

أحسّ بأنني مذنب، أشعر بأنني آثم في حقك. ولكنني لا أرى أية فائدة في الاعتراف لك بذلك كله يا ماتوشكا، مهما تقولي! حتى قبل أن أرتكب الإثم، كنت أعرف ذلك، وكنت أحس ذلك. لقد تدهورت وهويت إلى الحضيض لشعوري بخطيئتي. ماتوشكا! أنا لست شريراً ولا قاسياً، ومن يشأ يا يمامتي أن يعذب قلبك الصغير المعبود، لا بد أن يكون نمراً كاسراً على الأقل. وأنا لي نفس كنفس الحمل وداعة، وليس بي ميل إلى الوحشية الدموية كما تعلمين. ينتج عن ذلك، يا ملاكي اللطيف، أنني لست مسؤولاً عن سلوكي تماماً، فلا قلبي ولا فكري يتحملان تبعة هذا السلوك. فإذا سالتني عن الجاني، قلت لك لا أدري من الجاني في حقيقة الأمر. تلك قصة سوداء مظلمة، قصة غامضة يا ماتوشكا. لقد أرسلت إليَّ ثلاثين كوبكاً فضة، ثم أرسلت إليّ عشرين كوبكاً بعد بضعة أيام: فأخذ قلبي يئن حين نظرت إلى هذه القروش تتصدق عليَّ بها يتيمة فقيرة. لقد احترقت يدك، وبعد قليل لن يكون معك ما تسدّين به رمقك، ثم أنت تبكين طالبة إليّ أن أشتري لنفسي تبغاً. فماذا كان يجب عليَّ أن أفعل في هذه الحالة؟ هل كان يجب أن. أرضى بسلبك مالك كما يفعل لص من قطاع الطرق، وأن آخذ هذا المال من دون أن يعذبني ضميري أيتها اليتيمة

المسكينة؟ لقد فقدت عندئذ شجاعتي يا ماتوشكا، وخارت قواي، أعني أنني أحسست في أول الأمر، على غير إرادة مني، أنني لا أصلح لشيء، وانني أنا نفسي لست أفضل من نعل حذائي، فرأيت إذن أنه من غير اللائق أن أقدّر نفسي أي تقدير، وأن أهب لنفسي أي اعتبار، وأيقنت انني أتفه من التفاهة، وأنني شيء مخجل، شيء حقير لا كرامة له. فلما فقدت احترامي لنفسي على هذا النحو، واستسلمت لإنكار مزاياي وكرامتي، شعرت أنني قد ضعت. وكانت تلك اللحظة هي لحظة السقوط، السقوط الذي لا مهرب منه. إنّ القدر هو الذي أراد ذلك. نعم هو القدر. ولا يد لي في الامر، ولا حيلة لي فيه، ولست أنا الجاني. خرجت من المنزل أنشد استنشاق الهواء فحسب. لكن كل شيء كان يساهم في دفعي إلى الشقاء ذلك اليوم. الطبيعة تبدو شديدة الحزن والأسى والشجن، والجو بارد، والمطر ينهمر. وكان طبيعياً أن أجد إيميليان في طريقي... ذلك أمر لا مفرَّ منه. كان إيميليان قد رهن كل ما يملك للحصول على قروض لم يلبث أن أنفقها. فلما التقيت به لم يكن قد أكل شيئاً منذ يومين، وكان يفكر في رهن أشياء لا يستطيع المرء حقاً أن يرهنها، فما هي بالأشياء التي تُرهَن. فماذا تريدين يا فارنكا؟ لقد خضعت... خضعت لا استسلاماً لميل شخصي، بل رحمة بالإنسان. هكذا سقطت في الإثم يا ماتوشكا، ما أكثر ما بكينا معاً يا ماتوشكا، أنا وهو!... وتكلمنا عنك. إنه إنسان طيّب، إنسان له قلب من ذهب. إنسان حساس جداً. إنني أشعر بذلك شعوراً قوياً يا ماتوشكا. ذلك هو السبب في أن مصائب كثيرة تنزل بي... إنّ السبب في ذلك هو أنني أحس بالأمور إحساساً قوياً... أنا أعرف فضلك عليَّ يا يمامتي فمنذ عرفتك أخذت مزيداً من الحب يوماً بعد يوم. كنت قبل أن ألقاك، يا ملاكي الرقيق، إنساناً

منعزلاً، إنساناً لا يعيش حقاً. إنساناً يشبه أن يكون نائماً. كانوا جميعاً، أولئك التعساء، يزعمون أن لي دماغاً متحجّراً، وكانوا يهزأون بي ويسخرون مني صراحة، حتى صرت أحتقر نفسي بنفسي. كانوا يؤكدون أنني غبيّ أبله، حتى صدّقت أنني كذلك فعلاً. فلما ظهرت لي أضأتِ وجودي كله، وغمرت بالنور حياتي المظلمة القاتمة. صار كل شيء يشع. وفزت بالطمأنينة الداخلية حين أدركت بفضلك أنني لست أسوأ من غيري. فليس يعوزني إلّا البريق الخارجي، وشيء من اللمعان والمظهر، ولكنني إنسان بالقلب والفكر. حتى إذا أدركت أخيراً واأسفاه، أن القدر يهجم علي ويفتك بي رغم كل شيء؛ حتى إذا اندفعت، وقد أذلّني القدر، فأنكرت عزة نفسي وكرامتي، غلبني الشقاء على أمري، وأرهقتني الكوارث تتلو الكوارث، فخارت عزيتني وهويت إلى قاع اليأس. أما وقد عرفت آلان كل شيء يا ماتوشكا، وعرفت كيف حدث لي ذلك الامر، فانني أضرع إليك دامع العينين أن لا تلحّي مزيداً من الإلحاح، وأن لا تلقي عليَّ أسئلة جديدة في هذا الموضوع، فإن قلبي ليتمزق، وأشعر بمرارة ثقيلة وحسرة لا تطاق.

وأنا إذ أعبِّر لك عن احترامي يا ماتوشكا، أبقى صديقك الأمين الوفيّ:

ماكار دييفوشكين ن أفعل أن

3 أيلول (سبتمبر)

لم أكمل رسالتي السابقة يا ماكار ألكسييفتش، لأنني كنت حزينة حزناً شديداً. لم أملك القدرة على مواصلة الكتابة. تمر بي لحظات

أحب فيها أن أكون وحيدة أستسلم لحزني وكآبتي من دون أن يراني أحد. وقد أصبحت هذه اللحظات تكثر في حياتي يوماً بعد يوم. إنّ في ذكرياتي شيئاً يصعب تفسيره وتعليله يجذبني إليها جذباً لا سبيل إلى مقاومته، جذباً يبلغ من القوة أنه يتفق لي في بعض الأحيان أن أبقى ساعات طويلة لا أشعر بشيء مما حولي، وأنسى الحاضر نسياناً تاماً. إنّ كل شعور في حياتي الراهنة، سواء أكان بهيجاً أم أليماً أم كئيباً، يوقظ في نفسي العواطف التي تماثله من حياتي الماضية. وإلى عهد طفولتي، إلى عهد طفولتي الذهبي، إنما ينصرف ذهني وتنصرف أحلامي عندئذ في أكثر الاحيان، وبعد هذه الأحلام أشعر دائماً بإرهاق شديد. لقد أصبحت ضعيفة، فالأحلام النفسية تضنيني، ذلك يفاقم ما أنا فيه من تضعضع الصحة ووهن العافية.

ولكن الصباح في هذا اليوم مضيء نيّر تذهّبه الشمس بأشعتها وقلما نرى له مثيلاً هنا في الخريف، وقد بثَّ هذا الصباح الحياة في نفسي وأنعشها، فإذا قلبي فرح منذ نهضت من فراشي. هو الخريف إذن قد وصل! لشد ما كنت أحب هذا الفصل من فصول السنة في الريف! لقد كانت حياتي النفسية غنية غنى كبيراً في ذلك الحين، رغم أنني كنت ما أزال طفلة. كنت أوثر أماسي الخريف على أصباحه. أتذكر الآن بحيرة صغيرة كانت تقع في سفح رابية، غير بعيدة عن منزلنا. أتذكر هذه البحيرة حتى لكأنني أراها بعيني في هذه اللحظة: كانت واسعة كبيرة، هادئة رائعة، صافية مضيئة كأنها البلّور، كان سطحها يبدو ساكناً سكوناً تاماً في بعض الأحيان متى كان المساء هادئاً. ما من ورقة تتحرّك على الأشجار التي تحفّ بشطآنها. الماء يشبه أن يكون غافياً، فهو راكدٌ كأنه مرآة. الهواء طري، يكاد يكون

بارداً. والندى يحط على العشب وأضواء تشتعل في الأكواخ عند الشاطئ. وقطعان الماشية تؤوب. تلك هي الساعة التي كنت أحب أن أتسلل فيها من المنزل فأمضي إلى قرب بحيرتي أحلم وأغرق في تأملات صامتة. هذه نار حطب جاف تحترق في كوخ أحد الصيادين قرب الماء، وهذا ضوء لهب ينعكس سحائب سحائب على صفحته. السماء تبدو باردة، زرقاء زرقة عميقة، تقطعها أخاديد متوهّجة عند الأفق، ثم تصفر الأخاديد شيئاً بعد شيء. الهلال يظهر في السماء. والهواء يشبه أن يكون له رنين. يكفي أن يطير عصفور على حين فجأة، أو أن تنزلق حصى تدفعها نسمة خفيفة، أو تنبجس على سطح البحيرة سمكة تصفق الماء، حتى يسمع المرء هذه الأصوات كلها. وكان الظلام يتكاثف شيئاً فشيئاً من بعيد، فكل شيء يبدو كأنه يغرق هناك في ضباب، بينما يصبح للأشياء القريبة حواش أوضح وحدود أدق كأنها مقدودة قداً بسكين. إنّ كل شيء يظهر عندئذ بيّناً مجلوّاً: القارب الصغير المنسي قرب الشطآن، الجزر الصغيرة الصامتة المنثورة هنا وهناك، البرميل المهجور في مكان على ضفة البحيرة. ومن حين إلى حين تهب نسمة فتغضن صفحة البحيرة، ويرتجف غصن من أغصان السيتس الصفراء الأوراق بين أعواد القصب. وهذا طائر متأخر من طيور السمج يطير على حين فجأة، ثم يغطس في الموجة الباردة ليستأنف بعد ذلك طيرانه صافقاً بجناحيه إلى أن يختفي في الضباب...كنت أتأمّل حالمة، وأصغي إصغاء شديداً. ما أعذب الجو في تلك اللحظات! وما أعظم ما كنت أشعر به من سعادة! كنت أيامئذ صبية صغيرة. كنت أحب الخريف حباً جماً حين يتقدم الفصل فيجني الفلاحون قمحهم ويفرغون من أعمالهم في الحقول. ذلك أوان السهرات الطويلة الجميلة داخل الاكواخ

بانتظار الشتاء الذي يُقبِل. الطبيعة تصطبغ عندئذ بألوان قاتمة، والسماء الجهمة تغشاها غيوم مظلمة، والأوراق الصفراء تتراكم فتشكل بُسطاً رخوة عند أطراف الغابات المعرّاة؛ الحرج يزرقّ ويخضرّ في أول الأمر ثم يصير إلى سواد، ولا سيما عند السماء، حين يسقط بخار رطب، فتنبجس الأشجار من الضباب انبجاس عمالقة، في منظر من أشباح مرعبة. كان يتفق لي أحياناً أن أتلبّث أثناء نزهة من النزهات، فاذا أنا أراني متخلفة وحيدة على حين فجأة. كنت عندئذ أغذّ الخطى خائفة، وأرتعش ارتعاش ورقة في مهب الريح، وقد تملّكني ذعر شديد من تصور شبح رهيب أو عملاق شرير قد ينبجس من وراء جذوع الأشجار المخيفة بين لحظة وأخرى. وكانت الريح ترعش الغابة على حين بغتة فتملؤها همهمة صمّاء في أول الامر، ثم تتسع الهمهمة وتتكاثر مجتاحة أرجاء الغابة شيئاً بعد شيئ، مثيرة في جميع الجهات آهات حزينة وأنّات غامضة. والريح في جريانها المستميت تهوي على الأغصان المستدقة فتنزع عنها أوراقها الصغيرة بغتة، وتجرفها أمامها في زوبعات غضبى حانقة. وهذه أسراب من الطيور تهبّ على حين فجأة كأنها مذعورة، فتجري وراء الأوراق الميتة وهي تطلق صرخات حادة، وتشكل جموعها الكثيفة سحائب طويلة تسوِّد السماء وتحجبها تماماً. ما أشد الخوف الذي كان يخنق صدري في تلك اللحظات! كان يخيل إليَّ عندئذ انني أسمع صوتاً يدمدم على مقربة مني قائلاً: «اركضي، اركضي، اهربي أيتها البنية، لا تتلبثي في هذا المكان، لأن أموراً رهيبة تتهيأ هنا، اركضي، اسرعي، فرّي.. فكان الهلع يشلني شلاً، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً، وكنت أطلق ساقيَّ في الريح مسرعة في الجري ما أمكنني الإسراع، فما أصل إلى المنزل إلّا وقد تقطعت أنفاسي من

اللهاث. الغرفة ممتلئة صخباً ومَرَحاً. الأطفال توزَّع عليهم أعمال سهلة، فهم يقشرون البازلاء أو يقشرون خضاراً أخرى؛ وعيدان من خشب طري رطب تطقطق في المدفأة. وكانت المربية العجوز أوليانا تحدثنا عن الزمان الماضي، وتقص علينا حكايات مرعبة يدور فيها الكلام على الساحرات وعلى أرواح عائدات من العالم الآخر. فكنا نحن الأطفال نتراصّ ونتقارب متلاصقين، مبتسمين ابتسامة من يشعر بالأمن والطمأنينة، ولكننا نصمت على حين فجأة قلقين: «هس... ما هذا الصوت؟ كأن أحداً يقرع الباب». ولكن لا شيء من ذلك... وإنما هو مغزل العجوز فلوروفنا يدمدم دمدمته الهادئة. ما كان أشد الضحك الذي ينفجر عندئذ في رهطنا؛ ثم كان يتفق لنا ألا نستطيع سبيلاً إلى النوم في الليل، لأن مخاوف عجيبة تستبد بنا، أو لأن أحلاماً مرعبة تلاحقنا. وكنا نستيقظ أحياناً فما نجرؤ أن نتحرك بل نظل ساكنين تحت أغطيتنا مرتعشين. ولكننا ننهض في الصباح نضرين نضارة الزهور. كنت ألقي نظرة نحو النافذة فأرى البرية من خارج المنزل قد تجلدت، وأرى صقيعاً دقيقاً قد تعلق بالأغصان العارية، وأرى طبقة من الجليد رقيقة كالورق قد فرشت صفحة البحيرة، وأرى بخاراً أبيض يتصاعد على سطحها، وأسراب العصافير تطير في السماء وتملأ الهواء زقزقات فرحة. الشمس ترسل أشعتها الساطعة في جميع الجهات، فتسقط على طبقة الجليد الرقيقة فتحطمها تحطيم الزجاج. كل شيء مضيء فرح نير. وتعود النار تزفر في الموقد. ونتحلق حول السماور، ثم نأخذ نضحك متى ظهر لنا من وراء الزجاج ذلك البوز الأسود، بوز كلبنا بولكان الذي ترتعد فرائصه من البرد لأنه قضى الليل في الخارج، والذي أخذ يحيينا محركاً ذيله في فرح. ويمرق أمام نوافذنا أحد

الفلاحين مسرعاً، على عربة يجرها حصان قوي. إنه ماضٍ إلى الغابة ليجيء منها بشيء من حطب. إننا نشعر جميعاً برضى عظيم وسعادة كبيرة!... لقد كان المحصول وافراً، والقمح يتكدس في الحقول حيث تسطع تحت ضوء الشمس بيادر ضخمة يغطيها القش. إنها للذة أن يرى المرء هذه البيادر؛ فيشعر المرء عندئذ بطمأنينة وثقة وسعادة: لقد وهب الله لكل واحد رزقاً طيباً. فالجميع يعلمون أن الخبز لن يعوزهم في هذا الشتاء. الفلاح الصغير يعرف أن امرأته وأولاده لن يجوعوا في أيام البرد الشديد. لذلك فالفتيات ما تنفك تطلق أغانيها الراعشة في السهرات الطويلة مدوّية بغير انقطاع، وما تنفك جوقاتها تصاحب حلقات الراقصين في أحواش المزارع بلا توقف. ولذلك أيضاً تخضل الأعين في الكنيسة يوم الأحد شكراً للخالق على ما وهب وأعطى... ألا ما كان أجمله من عهد، ذلك العهد الذهبي من طفولتي!

هكذا رأيتني أبكي فجأة بكاء طفلة، بعد استرسالي في استحضار تلك الذكريات كلها. رأيت ذلك الماضي رؤية واضحة جداً، جلية جداً، دقيقة جداً. وانبثق هذا الماضي في نفسي مضيئاً ذلك الضياء كله، بينما الحاضر حالك هذه الحلكة، مظلم هذا الظلام... ترى كيف ينتهي هذا كله؟ يراودني في بعض اللحظات يقين قوي يشبه أن يكون رؤية، بأنني سأموت في هذا الخريف. أنا في الواقع مريضة جداً، مريضة جداً جداً. إنني أفكر في الموت كثيراً، ولكنني لا أريد أن أموت هنا، لا أريد أن أدفن في هذه الأرض غير الكريمة. من يدري؟ قد أضطر إلى ملازمة فراشي قريباً، كما حدث في المرة الماضية إبان الربيع، مع أنني لما أبرأ من مرضي تماماً بعد. في هذه

اللحظة مثلاً أشعر بوهن شديد جداً. لقد غابت فيدورا طول النهار لشؤون تخصها، فبقيت في البيت وحيدة. وقد أصبحت أخشى الوحدة والعزلة منذ زمن. إنني أتصور دائماً أن في الغرفة أحداً لا أراه، ولكنه قريب مني يكلمني. يحدث لي هذا خاصة بعد أن أسترسل في تأملات طويلة، ثم أرتد فجأة إلى الواقع الراهن. إنّ غمّاً ثقيلاً يعتريني في مثل هذه اللحظات، فأشعر بخوف شديد. لذلك تراني أبعث إليك اليوم برسالة طويلة هذا الطول كله.

إن تلك المخاوف تتبدَّد وتزول حين أكتب. أودعك الآن خاتمة هذه الرسالة، فلم يبقَ عندي ورق، ولا أستطيع مزيدًا من الكتابة على كل حال. نفد ما حصلت عليه من بيع ثيابي وقبعتي الصغيرة، فلم يبق لي منه إلّا روبلًا واحدًا فضة. أحسنت إذ دفعت لصاحبة البيت روبلين. ستهدأ الآن لبعض الوقت.

يجب عليك أن تدبر أمرك بحيث تصلح رداءك قليلاً. أستودعك الله. إنني متعبة مرهقة. لا أدري لماذا أصبحت واهنة هذا الوهن كله. إنّ أيسر جهد يرهقني. ما عساني فاعلة إذا جاءني شغل؟ إن ذلك كله يقتلني قتلاً في الواقع.

ف.د

5 ايلول (سبتمبر)

يمامتي، عزيزتي فارنكا!

عانيت اليوم مشاعر مختلفة. أولاً: لم يفارقني الصداع لحظة طوال النهار. من أجل أن أخفف عن نفسي قليلاً مضيت أتنزه على شاطئ

فونتانكا. المساء مظلم رطب. لقد هبط الليل منذ الساعة الخامسة. ولم تكن السماء ممطرة، ولكن الضباب لا يقلّ عن مطر غزير. إنّ سحابات كبيرة تنزلق من السماء. ورصيف القناة يزدحم بالناس. وكان جميع هؤلاء الناس يلوح في وجوههم المرعبة حزن شديد وعبوس قاس، فكان ذلك يغرق المرء في جو من الكآبة والأسى: فلاحون سكارى، نساء ثرثارات فطس الأنوف ينتعلن أحذية لكن رؤوسهن عارية، عمال وحوذيون... وهنا وهناك رجل يحث الخطى وراء عمل من الأعمال، وصبية صغار، وعامل أقفال بمعطف مخطط، له وجه ضامر سوَّده الدخان، يحمل في يده قفلاً. وبعد ذلك بقليل جندي محال على التقاعد يشبه أن يكون عملاقاً من العمالقة، ينتظر فرصة أن يبيع لأحد المارة موسى أو خاتماً من البرونز. ذلك هو الجمهور الذي رأيته هناك. طبعاً لم يكن الوقت الذي خرجت فيه إلى النزهة هو الساعة التي يخرج فيها وجهاء الناس. وما الفونتانكا أخيراً إلّا قناة لعبور المراكب. يا للفوضى التي يراها المرء هناك! إن المرء ليعجب كيف يمكن لهذه الأشياء جميعاً أن تجد متسعاً لها في ذلك المكان... أمر صعب فهمه: فلاحات يقفن على الجسور أمام بسطاتهن التي تحمل حلوى رطبة وتفاحاً يوشك أن يكون عفناً. إنهن قذرات جداً، هاته النساء، مبللات الثياب. شيء يثير الحزن في القلب، هذه النزهة على فونتانكا. البلاط رطب تحت الأقدام، وعلى الجانبين مبان عالية قاتمة سوَّدها الدخان. أمامي الضباب. وفوق رأسي الضباب. مساء قاتم مظلم يبعث الكآبة في النفس.

فلما انحرفت نحو شارع جوروخوفايا كان الليل قد أطبق، فأخذوا يشعلون الفوانيس. منذ زمن لم يتفق لي أن مررت في شارع

جوروخوفايا. يا له من شريان صاخب يعج بالضوضاء! ما أغنى واجهات المخازن في هذا الشارع! كل شيء هنالك يسطع ويتلألأ: الأقمشة، والأزهار وراء الزجاج، القبعات الصغيرة المزدانة بأشرطة ملونة. قد يتوهّم المرء أن هذه الأشياء كلها ليست إلّا للزينة. ولكن لا: هنالك أناس يشترون هذه الأشياء ليهدونها إلى نسائهم. شارع مترف باذخ. وتوجد في شارع جوروخوفايا مخابز ألمانية كثيرة، أغلب الظن أن الذين يستغلون هذه المخابز أناس على جانب عظيم من الغنى والثراء. ما أكثر العربات التي تمر في كل لحظة! كيف تستطيع أرض الشارع أن تحتملها؟ إنها مركبات فخمة، يتلألأ زجاجها كأنه مرايا، وليس في داخلها إلّا قطيفة وحرير، وللخدم فيها مظهر أرستقراطي جداً، على أكتافهم تلتمع الشارات المقصبة، وعلى جنوبهم تتدلى سيوف. كنت أنظر في كل عربة من هذه العربات التي تمر. إنها ملآى بسيدات يرتدين أجمل الثياب، لعلهن أميرات أو كونتيسات. هي الساعة التي تخرج فيها هذه الصفوة من أبناء المجتمع الراقي ذاهبة إلى حفلات الرقص أو اجتماعات السهر. لا بد أن تكون رؤية أميرة أو سيدة عظيمة، عن كثب، منظراً شائقاً. أحسب أن هذا لا بد أن يكون ممتعاً، أما أنا فلم يتح لي أن أرى هذا المنظر في حياتي، اللهم إلّا من بعيد، كما رأيته في هذا المساء وأنا ألقي نظرة إلى داخل العربات. لقد انصرف خيالي إليك في تلك اللحظة- آه يا يمامتي- يا صديقتي العزيزة! إن قلبي لينزف دماً متى فكرت فيك. لماذا أنت شقيّة هذا الشقاء كله يا فارنكا، يا ملاكي الرقيق؟ أهذه السيدات خير منك؟ أي ميزة لهن عليك؟ أنت طيبة جميلة مثقفة، فلماذا يكون حظك هذا الحظ؟ لماذا تعيش النفوس الطيبة النبيلة في الشقاء والهجران، بينما لا يحتاج غيرها حتى إلى

البحث عن السعادة لأن السعادة هي التي تلقي بنفسها بين ذراعيه؟ أعرف يا ماتوشكا أن هذا التفكير شر، أعرف أن هذا التفكير حرام، فهو لبرالية وزندقة وإلحاد. ومع ذلك فانني أتساءل صادقاً باسم الحقيقة المقدسة نفسها: لماذا خُلقت بعض النساء للسعادة، بقرار من القدر، منذ كن في أرحام أمهاتهن، بينما نساء أخريات يرين النور في ملاجئ أيتام؟ ما أكثر ما تهبط السعادة على ايفان ما، ايفان غبي، وكأنه القدر يقول له: «ما أنت يا هذا إلّا ايفان ما، ولكنني أريد لك أن تعيش في رغد وفرح، وتتمتع بخيرات أجدادك، تشرب وتأكل وتلهو. فاغرف من هذه الملذات ما شاء لك هواك. فمن أجل هذا خلقت يا عزيزي، وهكذا يجب أن تكون». أعرف يا ماتوشكا ان هذه الأفكار إثم، إثم كبير، ولكن المرء يسقط في هذا الإثم على غير إرادة منه في بعض الأحيان. لماذا لا تملكين أنت أيضاً مركبات فخمة يا طائري الجميل الرقيق؟ لو ملكت مثل هذه المركبات لهبَّ جنرالات يستجدون منك نظرات عطف حين تمرّين. جنرالات، لا أناس تافهون مثلي. وللبست حريراً وذهباً، لا ثياباً عتيقة من غليظ القماش كما تلبسين الآن. ولكنت أشبه بتمثال من الخزف نضارة وامتلاء وازدهار خدين، لا نحيلة هزيلة ضامرة الوجه كما تظهرين اليوم. لو كنت كذلك لكان حسبي أنا، من أجل سعادتي، أن ألمحك في الشارع وراء نافذة ساطعة الأضواء، وأن ألمح خيالك يغيب على جدار، حسبي عندئذ، حتى تفيض نفسي بهجة، يا طائري الصغير الجميل، أن أتصور أنك سعيدة، راضية فرحة. فانظري أين نحن الآن؟ كأنما لا يكفيك أن أناساً أشراراً دفعوك إلى الشقاء، فلا بد أن يجيء أيضاً رجل حقير وقح سافل يهينك ويسيء إليك في عقر بيتك. يكفي أن يكون هذا الوقح مرتدياً رداء أنيقاً، وأن ينظر إليك من خلال

نظارة ذات إطار ذهبي، حتى يظن أن كل شيء مباح له، وان عليك أن تصغي إلى أحاديثه السفيهة متسامحة راضية، أليس الأمر كذلك حقاً أيها الأصدقاء الطيبون؟ ولماذا هذا كله؟ لأنك يتيمة، ولأنك بلا سند، لأنك محرومة من صديق قوي يستطيع أن يحميك! ما هذا الرجل السافل، وما هؤلاء الناس الذين لا يخشون أن يهينوا طفلة فقيرة مثلك؟ ليس هؤلاء الأوغاد بشر، إنهم عدم... إنهم يتظاهرون بالوجود حتى يُلتفت إليهم ويُحسب حسابهم، ولكنهم ليسوا في الواقع شيئاً! أنا من هذا على يقين عميق. تلك هي حقيقة هؤلاء الناس، وفي رأيي يا صديقتي العزيزة أن العازف على أرغن برباريا الذي رأيته اليوم في شارع جوروخوفايا أجدر بالاحترام منهم. صحيح أنه يجرّ نفسه في الشوارع من الصباح إلى المساء جاهداً أن يحصل على بضع كوبكات قديمة مهترئة تتيح له أن يأكل من جوع، ولكنه سيد نفسه يكفل رزقه دون أن يستجدي أحداً. إنه لا يريد صدقة. بالعكس: هو يجهد في سبيل لذة الآخرين، وكأنه يقول: «أنا مفيد بمقدار ما أمكنني، أحاول أن أسليك ما وسعني ذلك». صحيح أنه بائس، وأن كبرياءه لا تخفف شيئاً من بؤسه. ولكنه بائس ممتلئ النفس نُبلاً. صحيح أنه متعب ويتجلد من شدة البرد، ولكنه يعمل، ويستمر يعمل، على طريقته طبعاً. هناك ناس كثير من هذا القبيل يا ماتوشكا، هناك ناس كثير من هؤلاء الرجال الشرفاء، من هؤلاء الرجال الذين لا يجنون مالاً كثيراً كما يجب (تبعاً لمقدار العمل الذي يقومون به وتبعاً لفائدة هذا العمل)، ولكنهم لا يدينون لأحد بشيء، ولا ينشدون عطف أحد، ولا يأكلون من خبز أحد. أنا من هؤلاء الرجال يا صديقتي، أنا مثل ذلك العازف على أرغن برباريا. لا أقصد أنني مثله، لا، ليس هذا ما أردت أن أقوله، لست مثله أبداً.

ولكنني مع ذلك أشبهه بمعنى ما، أشبهه من جهة نبل الجهد. أنا أجهد مثله على قدر ما تطيق قواي، وأعمل ما أستطيع عمله. ليس لما أعمله تأثير كبير... أنا أعرف ذلك... ولكن ما من إنسان يقدر أن يعطي أكثر مما عنده.

إذا كنت أحدثك عن العازف على أرغن برباريا، يا ماتوشكا، فلأنني شعرت اليوم بثقل الفقر مضاعفاً. لقد وقفت أنظر إلى العازف. وافتني أفكار سود، فجعلت نفسي أمامه، عسى أن تزاولني تلك الأفكار السود. كان قد وضع آلته تحت نافذة من النوافذ. وتجمع حوله نفر قليل: أنا وحوذيون، وفتاة كبيرة، وبنية صغيرة قذرة شعثاء، ثم صبي صغير في العاشرة من عمره، كان يمكن أن يكون جميلاً لولا ما يظهر في وجهه من مرض: إنه هزيل شديد الهزال، كل ما يرتديه قميص فوقه معطف صغير لا يكاد يغطيه، وهو حافي القدمين تقريباً. كان الصبي يصغي إلى الموسيقى فاغراً فاه في سنّه تلك. كان لا يستطيع أن يحول بصره عن الدمى التي تدور فوق الأرغن، بينما يداه وقدماه تتجمدان من شدة الصقيع. وكان يرتجف من البرد عاضاً بأسنانه طرف كمه. لاحظت أنه كان يمسك ورقة صغيرة في يده المقبوضة. ومرّ سيد فقذف للعازف على الأرغن بقطعة صغيرة من النقد، وسقطت في درج يحجبه شبك من وراءه يرقص فرنسي وسيدات جميلات. فلما سمع الصبي رنين قطعة النقد ارتعش ونظر فيما حوله وجلاً، وإذ حسب أنني أنا الذي قذفت قطعة النقد هرع نحوي فمد إليَّ الورقة مرتجف اليدين، وقال لي مرتعش الصوت:» اقرأ« ففضضت الورقة وقرأتها. هي قصة معروفة. وهذا ما كان مكتوباً في الورقة: «أنا أم هذا الولد أيها المحسنون، وأنا أحتضر. أولادي الثلاثة جياع. ساعدوهم اليوم، فإذا مت تذكرتكم

في العالم الآخر ودعوت لكم، لأنكم رحمتم أولادي». ماذا تريدين يا صديقتي العزيزة؟ تلك حالة شائعة. الأمر واضح. ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ لم أعطه شيئاً. ولقد طعن قلبي أن أضطر إلى رفض تقديم معونة. كان الصبي الصغير المسكين قد ازرقّ وجهه من شدة البرد، ولعله كان جائعاً، ومن يدري على كل حال: ربما كان صادقاً غير كاذب، بل لا شك في أنه قال الحقيقة. أنا أعرف هذه الأمور. ولكن الأمر الذي يثير حفيظتي أن لا تراعي هاته الأمهات أولادهن، فيرسلنهم إلى الشارع بهذه البطاقات أشباه عراة في مثل هذا الجو البارد. لعلها امرأة حمقاء لا إرادة لها. أظن انها مهجورة لا يعنى بها أحد، فهي تبقى في منزلها حزينة يائسة، ولعلها مريضة فعلاً. ومع ذلك كان ينبغي لها أن تتجه إلى أحد تطلب معونة. وقد تكون امرأة كاذبة ترسل ابنها الهزيل الجائع إلى الشارع عامدة لتوهم الناس بأنها مريضة. فما عسى أن يتعلم هذا الصبي الشقيّ حاملاً بطاقات من هذا النوع؟ أي درس سيستمده من الحياة؟ سوف يقسو قلبه، هذا كل شيء. فهو يمشي، ويركض، ويستجدي، والناس يمرون مسرعين لا يلتفتون إليه ولا يسمعون كلامه. إنهم قساة لا يحسون، والعبارات التي يقذفونه بها جواباً على سؤاله تصيب قلبه بجروح عميقة: «امض، ابتعد، اذهب، أيها الولد البطال... أنت كذاب. هذه قصص معروفة». ذلك ما يسمعه من جميع الناس، فيمتلئ قلبه حقداً على البشر. عبثاً يرتعش من شدة البرد هذا الصبي الصغير الشقيّ، المذعور ذعر عصفور صغير سقط من عش تداعى. لقد تجلّدت يداه وقدماه من الصقيع. وتقطعت أنفاسه من القر. وسيأخذ يسعل في ذات يوم. فما هي إلّا فترة قصيرة حتى يتسلل المرض إلى جسمه تسلل الأفعى ليستقر في صدره. ثم ينحني الموت عليه في ركن

مظلم وسخ يتمدد فيه بلا من يُعنى به أو يرعاه أو يمد له يد العون... تلك هي حياته. ذلك ما يمكن أن تصير إليه حياة إنسان في هذا العالم لمجرّد أنه وُلد في عائلة فقيرة بائسة. آه يا فارنكا! انه ليشق على قلب المرء أن يسمع أحداً يطلب صدقة ثم يكون مضطراً أن يمضي دون أن يُعطى شيئاً، مكتفياً بأن يقول للسائل: «الله يعطيك». ثمة استجداء يطيق المرء أن يسمعه دون أن يحفل به كثيراً (ذلك أن هناك طرقاً شتى في التضرع إلى المارة يا ماتوشكا) فهناك ضراعات بطيئة منغَّمة يحس المرء حين يسمعها أنها عادة مألوفة ولحن محفوظ، ذلك هو الاستجداء المستمر المحترف. ففي مثل هذه الحالة لا يشعر المرء بألم شديد حين لا يعطي المستجدي شيئاً: فهؤلاء متسوِّلون مزمنون ألفوا هذه الحياة، فيقول المرء لنفسه حين يلقاهم إنهم قادرون على تذليل مصاعبهم، فقد تعلموا كيف يدبرون أمورهم وكيف يخرجون من مآزقهم. غير أن هناك ضراعات لا يحس المرء حين يسمعها أن صاحبها قد ألِفها حتى أصبحت عنده عادة من العادات، فلها نبرة خاصة، وهي تتصف بأنها خشنة حتى لتكاد تكون قاسية مرعبة. في هذا اليوم مثلاً حين تناولت الورقة من يد هذا الصبي، ولمحت على بعد خطوتين، قرب سياج الأشجار، بائساً آخر لم يكن يستوقف المارة، ولكنه اتجه إليَّ على حين فجأة قائلاً: «أعطني خمس كوبكات أيها السيد من مال الله». قال ذلك بصوت يبلغ من التقطع والقسوة حد أنني شعرت بما يشبه الرعب، ولكنني لم أعطِ السائل شيئاً، لأنني كنت أنا نفسي لا أملك شيئاً. يجب أن أقول أيضاً إن الأغنياء لا يحبون أبداً أن يشكو الفقراء حظهم جهاراً. ويظهر أن هذا يؤذيهم ويزعجهم. والبؤس مزعج دائماً على كل حال، كأن أنّات الفقراء تقلق نوم الأغنياء. يجب أن أعترف لك يا صديقتي الغالية

جداً أنني أكتب إليك هذه الأشياء كلها، أولاً لأخفف عن نفسي، وثانياً لأطلعك على ما وصل إليه أسلوبي. لا شك أنك لاحظت أن أسلوبي قد تحسن منذ زمن. لقد تعلمت الكتابة. ومع ذلك فإنني في هذه اللحظة أشعر بكآبة تبلغ من القوة أنني صرت أجد متعة في العطف على نفسي رغم علمي بأن ذلك لن يغير من حالي شيئاً، ولكنه ينصفني بعض الإنصاف. ذلك واقع يا صديقتي العزيزة. إنه ليتفق لنا أحياناً أن نصغِّر أنفسنا في نظر أنفسنا، أن نخفض من قيمة أنفسنا، فما نعد أنفسنا شيئاً، وأن نهوي بذلك إلى القاع من الشعور بالتلاشي. وإذا جاز لي أن أعمد هنا إلى التشبيه فلعلني أستطيع أن أقول ان السبب في ذلك هو أنني انا نفسي أشبه ذلك الصبي الفقير الذي سألني صدقة منذ حين. أحب يا ماتوشكا أن أعمد هنا إلى التشبيه فلعلني أستطيع أن أقول السبب في ذلك هو أنني أنا نفسي أشبه ذلك الصبي الفقير الذي سألني صدقة منذ حين. أحب يا ماتوشكا أن أعمد في التعبير هنا إلى الرمز والتشبيه، فاستمعي إليَّ: إنه يتفق لي يا صديقتي العزيزة جداً، وأنا ذاهب إلى عملي في الصباح المبكر، أن أتأمل منظر المدينة التي تستيقظ وترتد إلى الحياة بينما تتصاعد في الهواء أدخنة المصانع وتبدأ الشوارع تتحرك كمرجل يغلي، وتضطرب في صخب ما ينفك يتزايد حتى يشمل كل شيء. وقد يتفق لي أن أبلغ من الافتتان بالمشهد الذي ينتشر أمامي، لكني، وعلى حين فجاة، أحسّ بما يشبه أن يكون لطمة بالسبابة تسقط على أنفي المسرف في الفضول، فأغذّ الخطى مبتعداً مسرعاً شاعراً على حين بغتة بأنني صغير، وأتابع طريقي قائلاً لنفسي إن هذه الحياة الصاخبة لم تُخلق لي. ولكن ألا فكري في الأمر وتساءلي عما يجري وراء الجدران المسودة بالدخان من هذه المباني الحجرية الكبيرة.

حاولي أن تنفذي إلى أسرارها وقولي لي بعد ذلك ألست على خطأ حين أخفض من قيمة نفسي على ذلك النحو، وحين أستسلم لذلك النوع من التصاغر والتضاؤل! لاحظي يا فارنكا إنني أتكلم هنا على سبيل الرمز، فما يجوز أن يُفهم كلامي بحرفيته. انظري ماذا يختبىء وراء هذه المنازل الشامخة: هذا رجل بسيط من العاملين في حرفة من الحرف يستيقظ من نومه، في ركن مظلم مملوء بالدخان، في جحر رطب موبوء يسمونه غرفة أو مسكناً لأنه لا مفر من تسميته كذلك. إنه طوال الليل لم يحلم إلّا بالخدش الذي أحدثه مقصه في الجلد أمس سهواً حين كان يقد منه حذاء، كأن هذه النازلة يجب أن تلاحق الرجل حتى في نومه. صحيح أن الرجل ليس إلّا صاحب حرفة، ليس إلّا حَذّاء فقيراً، فهو يعذر إذا اقتصر تفكيره واقتصرت أحلامه على الشيء الذي يستأثر بمشاغله كل يوم، فإن أولاده ليصيحون، وامرأته لتتضور جوعاً. وليس الحذّاؤون وحدهم هم الذين يستيقظون على هذه الحالة النفسية أيضاً. وما كان ذلك ليعد شيئاً، وما كان ليستحق أن يُذكر لولا أمر آخر يضاف إليه يا ماتوشكا: ذلك الأمر الآخر هو أن في ذلك المبنى نفسه، في الطابق الذي يقع فوق هذا الطابق أو تحته، يوجد بيت فاخر الأثاث أنيق الرياش؛ والرجل الذي يسكن هذا البيت قد حلم هو أيضاً بحذاءين. صحيح أنهما غير الحذاءين اللذين حلم بهما الحذاء. فلعلهما يختلفان شكلاً، ويمتازان أناقة. ولكن ذلك لا يمنع أنهما حذاءان. ذلك هو الرمز في ما أقوله يا ماتوشكا: نحن جميعاً حذّاءون من بعض النواحي. وما كان ليعُدّ هذا كله شيئاً أيضاً. وإنما البلاء أنه ما من أحد إلى جانب الشخص الغبي يهمس في أذنه قائلاً: «ألا تستحي يا فلان أن لا تفكر إلّا في هذه الأشياء، وأن لا تنشغل إلّا بذاتك. أن

تحيا لنفسك وحدها؟ أنت لست حذّاء. وأولادك في كمال الصحة وتمام العافية، وامرأتك ليست جائعة. هلا نظرت في ما حولك عسى أن تقع على ما هو أهمّ من هذه الهموم، وما هو أنبل من التفكير بالأحذية؟» ذلك ما أردت أن أقوله لك يا ماتوشكا على سبيل الرمز. قد أكون في هذه اللحظة مسرفاً في جرأة التفكير واستقلال الرأي يا صديقتي. ولكنها فكرة تراودني أحياناً وتلازمني من وقت إلى وقت، فتخرج من قلبي عندئذ أقوال عنيفة على غير إرادة مني. لقد اخطأت إذن حين خفضت من قيمة نفسي، وحططت من قدرها، متأثراً بضجة المدينة وصخبها وهديرها. وفي الختام: لعلك تخطئين يا ماتوشكا إذا وقع في وهمك شيء من هذا. إنني لا أهبط إلى الافتراء على نفسي، ولا ألفّق شيئاً، ولا أنقل شيئاً عن كتب. وإنما هي الحقيقة.

عدت إلى منزلي طافح النفس حزناً. وجلست إلى منضدتي، وسخنت إبريق الشاي على السماور وتهيأت لاحتساء كأس أو ربما كأسين في هدوء؛ وإني لفي ذلك إذا بذلك الرجل الفقير البائس الذي يسكن معنا في المنزل، أقصد جروشكوف، يدخل عليَّ. كنت قد لاحظت في ذلك الصباح أنه كان يحوم حول سكان المنزل الاخرين، حتى لقد ظهر لي في لحظة من اللحظات أنه يحاول الاقتراب مني. يجب أن أقول لك عابراً يا ماتوشكا، انهم أشد فقراً وأكثر بؤساً مني! تصوري: زوجة! وأطفال! لو كنت في مكان جورشكوف لما عرفت ماذا أصنع حقاً! هذا جورشكوف يدخل عليَّ إذن وقد علقت بأهدابه عبرة صغيرة قذرة على عادته، ها هو ذا يحييني ويقرع نعليه، ولكنه يبدو مرتبكاً مضطرباً لا يستطيع أن ينبس بكلمة. أقعدته على كرسي. صحيح أن الكرسي مكسور، ولكن ليس عندي كرسي آخر.

قدمت له كأساً من الشاي. فاعتذر في أول الأمر ورفض؛ ثم اعتذر، وانتهى أخيراً إلى تناول الكاس الذي كنت أمدها اليه. أراد أن يشربه بلا سكر. فلما أصررت على أن يحليه بشيء من السكر جعل يعتذر من جديد، وظل يرفض مدة طويلة قائلاً إنه لا حاجة للسكر. ثم رضي أن يلقي في الكأس قطعة صغيرة جداً من السكر، قال بعدها إن الشاي حلو جداً جداً. انظري إلى أي حد من المذلة يمكن أن يؤدي الفقر بالإنسان، قلت: «ما عساك قائلاً لي يا عم». فقال: إليك المسالة! وأخذ يشرح لي ما هو فيه من عسر وضيق... قال: «يا ماكار ألكسييفتش، ناشدتك الله... ساعد هذه الأسرة البائسة. ليس عندنا طعام لزوجتي وأولادي. ولا أطيق، أنا الأب، أن أحتمل هذا». أردت أن أجيبه، ولكنه لم يدع لي أن أتكلم. قال: «إنني أخشى جميع من في هذا المنزل يا ماكار ألكسييفتش. ليس معنى هذا انني أخاف منهم، ولكنني... أشعر بحرج. هم جميعاً أناس متكبرون، أناس ذوو شان. ولقد خشيت أن أزعجك أيضاً، أيها المحسن، لأنني أعلم أن لك متاعبك وهمومك أنت أيضاً، وأنك لا تستطيع أن تهب الكثير. ولكن اقرضني مبلغاً صغيراً على الأقل. لقد تجاسرت فطلبت منك هذا، لأنني أعرف أنك إنسان طيب شهم، لأنني أعلم أنك كنت أنت نفسك في ضيق وعسر، وأنك ما تزال تعاني متاعب كثيرة، وأن قلبك، لهذا السبب، يمكن أن يتألم لآلام الآخرين وأن يشفق عليهم ويرحمهم...»، وختم كلامه يرجوني أن أغفر له جرأته، وأن أعفو عن مخالفته الأدب في ما أقدم عليه. أجبته بأنني أود لو أساعده، ولكنني لم يبق معي شيء، لم يبق معي شيء البتة. فعاد يلحّ قائلاً: «ماكار ألكسييفتش لست أطلب الكثير... يكفيني...» (قال ذلك واصطبغ وجهه في تلك اللحظة بحمرة شديدة بلغت شعره) «زوجتي

وأولادي جياع... ألا تستطيع أن تقرضني بضع كوبكات؟...»، انقبض صدري انقباضاً رهيباً. قلت لنفسي: إنهم يفوقونني بؤساً. لم يكن قد بقي معي إلّا عشرين كوبكاً حصلت عليها سلفة؛ وكنت أنوي أن أشتري لنفسي في الغد أشياء لا غنى عنها. قلت له تقريباً ما يلي: «لا، لا، يا عزيزي، آسف... مستحيل...». قال: «ماكار ألكسييفتش. اعطني أي شيئ... اقرضني ولو عشرة كوبكات». قالها بكلمات مرتجفة. عندئذ لم أستطع أن أقاوم مزيداً من المقاومة. فأخرجت من الدرج كوبكاتي العشرين، وأعطيته إياها... هل أخطأت يا ماتوشكا؟ آه... يا له من بؤس! يا له من بؤس، وتحدثنا بعد ذلك. سألته: «ماذا صنعت يا أخي، ماذا صنعت حتى غرقت في هذا الشقاء كله، ولماذا ظننت وأنت على ما أنت عليه من فقر، أن عليك أن تستأجر غرفة بخمسة روبلات فضة؟». فشرح لي أنه استأجر هذه الغرفة منذ ستة أشهر، وأنه دفع أجرها عن ثلاثة أشهر سلفاً، ثم انبجست صعوبات، وساءت حاله وتفاقم وضعه حتى أصبح لا يعرف الآن أين يضع رأسه!.. مسكين!.. كان يأمل أن تحل قضيته في هذه الأثناء... وقصته قصة حرجة مزعجة.. تصوري يا فارنكا أنه مضطر للمثول أمام المحكمة متقاضياً في أمر لا أعرف ما هو.. الدعوى قائمة بينه وبين تاجر سرق الدولة في مقاولة. واكتشف التلاعب والاختلاس، فأحيل التاجر إلى القضاء، فجرَّ معه جورشكوف، وأقحمه في هذه الورطة مع أن المسكين لم يشارك في الامر.. اللهم إلّا أن نقول أنه شارك فيه مشاركة غير مباشرة. فلا ذنب له إلّا انه كان مهملاً بعض الإهمال، ولم يكن على قدر كاف من الحيطة والحذر، فغابت عنه مصلحة الخزينة، وذلك أمر لا يُغتفر... والقضية قديمة ينظر فيها القضاة منذ سنين ولما يُفرغ منها ويبتّ فيها، فهناك وقائع جديدة

تظهر من حين إليّ حين بغير انقطاع، فتزيد متاعب جورشكوف. قال لي جورشكوف مؤكداً: «لم أقترف الفعل المشين الذي أُتّهم به. لست مذنباً في هذا الأمر، لم أرتكب أية سرقة، ولا خنت الأمانة ولا أسأت استعمال الثقة.. ولقد أصابته هذه القضية بضرر كبير. فقد طُرد من الوظيفة، ورغم أنه لم تثبت عليه جناية معينة، فإنه يستحيل عليه قبل أن تثبت براءاته تماماً أن يحصل من هذا التاجر على سداد مبلغ ضخم يدين به التاجر له ولكنه ينكره عليه أمام القضاء. أنا أصدق كلامه. ولكن المحكمة لم تقتنع واأسفاه. يجب أن أقول أن القضية معقدة جداً، متشابكة كثيراً، مفتولة الخيوط على غير حد، فلا سبيل إلى فكها وحلها. وما ان يظن أن نقطة من النقاط قد اتضحت وظهرت إلى النور حتى يعود التاجر إلى التعمية والتضليل بحيل بارعة ومكر حاذق. إنني أشارك جورشكوف شقاءه يا صديقتي العزيزة وأشاطره ألمه وعذابه، وأشعر نحوه بعطف شديد. رجل بلا عمل، ولا يمكن أن يجد عملاً لأنه فقد ثقة الناس به. ولقد أنفق جميع ما سبق أن ادّخره. والقضية تطول وتطول، وتزداد تعقيداً يوماً بعد يوم. وهذا ولد جديد يولد له، فيزيد ميلاده الطين بلة، وتزداد النفقات في غير داع إلى زيادة وهم على ما هم عليه. ويمرض الابن: فهذه نفقات أخرى. والأم مريضة. والأب نفسه مصاب بمرض قديم لم يعالجه. لقد عانى هذا المسكين من العذاب ما لا يتصوره خيال. لكنه يدّعي أن القضية تقترب من الحل، فما هي إلّا أيام وتثبت براءاته ما في ذلك ريب. لقد آلمني وضعه كثيراً يا ماتوشكا، حاولت أن أسرّي عنه، وأن أقوّي عزيمته. إنه إنسان أعزل خائف. وهو في حاجة إلى أن يشعر بشيء من حماية. ولذلك تلطفت في الكلام معه، فكنت دمثاً رقيقاً.

أودّعك يا ماتوشكا، واسأل الله أن يرعاك وأن ينعم عليك بالصحة والعافية. حين أفكر فيك، فكأن بلسماً يمسّ روحي الموجَعة. ورغم أني أتألم لك. فإن تألمي هذا عذاب في نفسي.

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

9 أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا، عزيزتي فرفارا ألكسييفنا!

أكتب إليك وأنا في حالة نفسية فظيعة. لقد هزني الحادث المروع الذي وقع اليوم فقلب نفسي رأساً على عقب. إن رأسي يدور، والأشياء تتراقص أمام بصري. آه يا صديقتي الغالية! كيف أستطيع أن أقص عليك ما حدث؟ ما كان لأحد أن يتصوّر ما وقع، ما كان لأحد أن يتنبأ بما وقع. لا بل يستحيل أن لا أكون قد أوجست بما وقع! بلى بلى، لقد خمنته تخميناً غامضاً، حزره قلبي حزراً. بل لأتذكر أنني رأيت حلماً في يوم من الأيام، وأحسب أن ما وقع إنما كان مدار حلمي عليه.

إليك ما جرى. سأقصه عليك ببساطة، لا أتكلف أسلوباً، ولا أصطنع زخرفة ولا تنميقاً، بل أرويه بالكلمات التي يلهمني إياها الرب. ذهبت إلى عملي في هذا الصباح، فجلست في مكاني وأخذت أكتب. يجب أن أقول لك يا ماتوشكا أنني قد نسخت في الليلة البارحة ايضاً. جاء تيموتي ايفانوفتش فاقترب من منضدتي وتفضل فأمرني بنفسه أن أعيد نسخ نص هو وثيقة مستعجلة وهامة

جداً كما قال. نظر في عينيّ وأوصاني قائلاً: «أعد نسخ هذا يا ماكار ألكسييفتش، بأجمل خط تستطيعه، إعمل على نسخه بعناية عظيمة وسرعة كبيرة، فيجب أن تقدَّم الوثيقة في هذا اليوم للتوقيع». يجب أن أسر إليكِ هنا، يا ملاكي الرقيق، أنني لم أكن بالأمس مرتاح البال، بل كنت مكدر النفس معتكر المزاج، حتى لقد كنت أتحاشى أن أنظر في ما حولي: إن حزناً عميقاً وكآبة قاتمة قد استبدا بنفسي. كان قلبي في صقيع، وكانت نفسي في ظلام، وكان التفكير فيك لا يبارحني لحظة يا طائري الصغير. أخذت أنسخ، فنقلت النص نقلاً جميلاً جداً، لا يمكن أن يؤخذ عليه عيب. ولكن كيف أشرح لك ما حدث. هل الشيطان هو الذي دفعني إلى ذلك؟ أم هي قوة خفية من قوى القدر تدخلت في الأمر؟ أكانت المسالة محتومة لا مفر منها؟ المهم أنني أسقطت من النص عند النسخ سطراً بكامله. ونشأ عن ذلك أن معنى النص أصبح... يا رب يا رب!... لم يبق للنص معنى البتة.. ولم يتسع الوقت للحصول على التوقيع بالأمس. وإنما قدَّموه إلى صاحب المعالي اليوم. ذهبت أنا إلى مكتبي في الصباح كالعادة دون أن يخطر على بالي شيء، واستقريت في مكاني إلى جانب إيميليان ايفانوفتش. يجب أن أذكر لك يا صديقتي العزيزة أنني قد أصبحت منذ زمن أشد خجلاً من أي وقت مضى، وأصبحت أشعر بشيء من الحرج والاضطراب والخشية بغير انقطاع. حتى لقد غدوت في الآونة الأخيرة أتحاشى أن أنظر إلى زملائي وأتجنّب أن ينظروا إليَّ. أصبح يكفي أن يصر كرسي أحد جيراني حتى أشعر فوراً أنني أقرب إلى الموت مني إلى الحياة من شدة الرعب. وعلى هذه الحالة النفسية إنما كنت اليوم أيضاً، ملتصقاً بمقعدي خافضاً رأسي منكمشاً انكماش قنفذ. حتى إن وليم كيموفتش (وهو رجل مناكد رهيب لا

نظير له في العالم بأسره) لم يسعه إلّا أن يقول لي بصوت عالٍ يستطيع أن يسمعه الجميع: «ما بك في هذا الصباح يا ماكار ألكسييفتش، إن لك وجهاً عجيباً، هيء هيء هيء!...» قال ذلك وجعّد وجهه تجعيداً لم يملك معه جميع من كانوا هناك إلى جانبه أو إلى جانبي إلّا أن ينفجروا ضاحكين، عليَّ طبعاً... لا يشعرون بأي حرج بل يمعنون في قهقهة لا يثنيهم عنها شيء. أما أنا فقد انكمشت على نفسي وصغرت جسمي واحمرّت أذناي وأغمضت عينيّ وجمدت في مكاني على هذه الحال لا أتحرك. تلك هي عادتي في ظرف كهذا الظرف، إذ غالباً ما يلبثون عندئذ أن يدعوني وشاني. وإني لكذلك إذا أنا أسمع ضجة، وأسمع وقع خطوات سريعة في الممر ذاهبة آيبة. وسمعت- أهذا حق أم أن اذنيّ تخدعاني؟- سمعت صوتاً يناديني، سمعت صياحاً ينطق باسمي. إنهم يستدعون دييفوشكين! أخذ قلبي يرتجف في صدري، واعتراني ذعر قد أستطيع أن أقول إنني لم أشعر بمثل هذا الرعب يوماً في حياتي. التصقت بمقعدي مزيداً من الالتصاق كأنني لم أسمع شيئاً، وكأنني أتظاهر بأنني غير موجود؛ ولكن الضجة تكبر وتقترب، وها هي ذي تدوي فوق أذني «دييفوشكين، دييفوشكين، أين دييفوشكين، أين دييفوشكين؟» كذلك صاح صوت. وقال الصوت يخاطبني «ماكار ألكسييفتش... أنت مطلوب إلى مكتب صاحب المعالي. هيا أسرع، لقد جعلت من النص الذي نسخته كارثة» ذلك كل ما قاله الصوت، ولكن هذا الذي قاله الصوت كان كافياً... أليس كذلك يا ماتوشكا. كان كافياً كل الكفاية. ألا ترين ذلك؟ أحسست أن صاعقة أصابتني، تجمدت من شدة الذعر، وشعرت أنني فقدت حواسي. نهضت عن مكاني وصرت كأنني آلة أتحرّك، وأنا أقرب إلى الموت مني إلى الحياة.

اجتازوا بي حجرة أولى فحجرة ثانية، إلى أن بلغوا بي مكتب صاحب المعالي. رأيتني فجأة هنالك، واقفاً أمامه. يستحيل عليَّ أن أصف لك الخواطر التي دارت في رأسي في تلك اللحظة. أظن أنني نسيت حتى أن ألقي السلام من فرط اضطرابي. كنت كالمعتوه، وكانت شفتاي ترتجفان، وكانت ساقاي تصطكان. ولهذا ما يبرره يا ماتوشكا. أولاً كنت أشعر بالخجل والعار. لقد وقع بصري مصادفة على مرآة كانت إلى يميني، فكان ما رأيته خليقاً بأن يجعلني أبدو مجنوناً تماماً؛ وثانياً كنت قد بذلت دائماً كل ما أستطيع من جهد حتى لا يلتفت إليَّ أحد، وحتى لا يراني أحد، متظاهراً بأنني غير موجود في هذا العالم، حتى أن صاحب المعالي لم يكن قد شعر بوجودي في دائرته على أغلب الظن. لعله سمع عَرَضاً باسم موظف اسمه دييفوشكين، ولكنه لم يدخل حتماً في التفاصيل، ولا اهتم لأمري أي اهتمام.

بدأ صاحب المعالي يقول بصوت غاضب حانق: «كيف أمكن أن تفعل هذا يا أيها السيد؟ أين كانت عيناك إذن؟ تلك وثيقة خطيرة كنت في حاجة ملحّة إليها فها أنت ذا قد أفسدتها! ما بالك ساهماً شارد اللب؟» قال صاحب المعالي هذا ثم التفت إلى أوستاش إيفانوفتش. أدركت من خلال ضباب كلمات متقاطعة تسقط على أذني» إهمال، غفلة، أنت تجلب لنا المتاعب». فتحت فمي لا أدري لماذا. أردت أن أستغفر، أن أطلب الصفح والعفو، ولكنني لم أستطع. أأهرب؟ لم أجرؤ أن أحاول ذلك. وعندئذ.. وعندئذ يا ماتوشكا، حدث شيء يبلغ من القسوة أن قلمي في هذه اللحظة يسقط من يدي خجلاً وعاراً حين أتذكره. إنّ زرّي، هذا الزر الذي لم يكن يشده إلى مكانه إلّا خيط واهن، قد انقطع فجأة، لعنه الله (لعلني صدمته من قلة الانتباه) فإذا

هو يثب ويقفز ويدور ويتدحرج على أرض الغرفة محدثاً صوتاً كأنه صوت جرس، ثم يتوقف أمام قدمَيْ صاحب المعالي تماماً. حدث ذلك كله والجميع صامتون واجمون. كان هذا هو التعليل الوحيد، كان الجواب الوحيد الذي استطعت أن أقدمه بين يدي صاحب المعالي. لم أستطع أن أقول بعدئذ شيئاً. وكانت نتائج ذلك رهيبة. فسرعان ما لاحظ صاحب المعالي هيئتي وانتبه إلى هندامي. تذكرت في تلك اللحظة ما كنت قد رأيته في المرآة. وكأنني فقدت عقلي فأسرعت أريد ان ألتقط الزر. أحسب أنني أصبحت لا أعرف ماذا أصنع. لقد ملت على الأرض وأردت أن أمسك الزر، ولكنه أفلت من يدي وعاد يدور ثم يدور، فلم أستطع أن ألتقطه. الخلاصة: لقد لمعت أيضاً بخراقتي. شعرت في تلك اللحظة أن البقية الباقية من قواي تبارحني، وأن كل شيء قد ضاع منذ الآن، ضاع إلى الأبد، فلا سمعة ولا كرامة. كل شيء قد انتهى وتحطم. أحسست أنني هويت. أخذت تدوي وتدندن في أذني جمل غريبة، وخيل إليَّ أنني أسمع صوت تيريز وصوت فالدوني. واستطعت أخيراً أن التقط الزر بعد لأي، فنهضت عن الأرض وانتصبت قائماً. ويا ليتني بقيت بعد ذلك ساكناً ممسكاً حزام سروالي بيدي، ولكن لا... ليس هذا ما فعلته، بل أخذت أربط الزر بالخيوط المقطوعة، كما لو كان من الممكن أن يثبت الزر بهذا في مكانه. وكنت أثناء ذلك أبتسم، نعم أبتسم. حوّل صاحب المعالي بصره عني في أول الأمر ثم عاد ينظر إليّ، وسمعته يقول عندئذ لأوستاش ايفانوفتش «ما هذا؟ هل ترى هيئته؟ ماذا أصابه، لم هو كذلك؟» آه يا ماتوشكا! ماذا يمكن ان أصبح في ظرف كهذا الظرف. وسمعت أوستاش إيفانوفتش يقول عني: «لم يكن في يوم من الأيام محل شكوى، سلوكه ممتاز، وهو يتقاضى مرتَّباً كافياً

كما تقضي الأنظمة، «فقال صاحب المعالي» ألا يمكنك أن تعطيه سلفة لتساعده قليلاً؟ «فقال أوستاش إيفانوفتش» لقد تقاضى سلفاً عن عدة أشهر... تقاضى سلفاً حتى تاريخ كذا...»أغلب الظن أن له مصاعب شخصية، ولكن سلوكه كان طيباً دائماً. ولم يلاحَظ عليه شيء قط، ولم يوجَّه إليه لوم يوماً. أحسست بحرٍّ شديد يا ملاكي الرقيق، كان لهيباً من جهنم يلفح وجهي، وقدَّرت أنني سأموت في مكاني. قال صاحب المعالي: «طيب. أعيدوا نسخ النص، ولكن بسرعة! دييفوشكين! تعال إلى هنا، ستعيد نسخ هذه الورقة، ولكن من دون خطأ هذه المرة. وبالمناسبة... «هنا التفت صاحب السعادة نحو الأشخاص الآخرين وأصدر إليهم أوامر شتى، فتفرقوا، فما كادوا ينصرفون حتى أسرع صاحب السعادة يخرج محفظة نقوده، ويستلّ منها ورقة مائة روبل، وقال: «إليك هذا. إنني أعطيك ما أستطيع، فخذه بلا كلفة، وسترده إليَّ في المستقبل». قال ذلك ووضع الورقة في يدي. ارتعشت يا ملاكي، أحسست أن نفسي تهتز اهتزازاً قوياً. كنت لا أدري ماذا يحدث لي. أردت أن أتناول يده لأقبلها. فرأيت وجهه وهو يحمرّ حتى الشعر. يميناً لا أبالغ. إنني أقول لك الحقيقة دقيقة كاملة يا ماتوشكا: لقد أمسك يدي الوضيعة وهزّها مصافحاً، هزّها كما لو كنت نَدّاً من أنداده، كما لو كنت أنا أيضاً جنرالاً. ثم قال لي: «انصرف الآن... لقد عملت ما أستطيع... لا ترتكب أخطاء في المستقبل. أما هذه المرة فالله غفور رحيم».

إليك الآن يا ماتوشكا ما عقدت النية عليه: إنني أطلب إليك وإلى فيدورا كما كان يمكن أن أطلب ذلك إلى أولادي لو كان لي أولاد، أن تدعوا الله له. أقصد أن يكون الأمر كما يلي: لا تكون دعوات

الأولاد وصلواتهم من أجل أبيهم بل يتوجهون بالدعاء كل يوم وإلى الأبد من أجل صاحب المعالي. هناك شيء آخر أريد أن أعبر عنه يا ماتوشكا؛ وها أنذا أؤكده جهاراً نهاراً. اصغ إليّ يا ماتوشكا: إنني أحلف صادقاً أن ما أبهجني في هذه الحادثة، رغم كل الآلام العظيمة التي عانيتها في الأيام الحالكة من بؤسنا، ورغم كل الحزن العميق الذي كان يضني قلبي حين كنت أفكر فيك أو حين كنت أرى شقاءنا أو حين كنت أدرك وضعي ومَذَلّتي وعجزي، أقول إن الذي أبهجني في هذه الحادثة، رغم كل ذلك ليس هو المائة روبل بقدر ما هو تفضل صاحب السعادة بمصافحة يدي الوضيعة، يدي أنا الذي لا أساوي قشة، أنا السكّير! لقد رد إليَّ بذلك احترامي لنفسي، وهو بهذه البادرة الكريمة قد أنعش روحي، وجعل حياتي رضية إلى الأبد. أنني لعلى يقين قوي، مهما تكن خطاياي عند الله العلي القدير، أن دعائي له بالسعادة والهناء والنصر والتوفيق، سترقى إلى السماء وسيستجيب لها الرب!..

ماتوشكا، أنا الآن في هذه اللحظة مضطرب اضطراباً رهيباً أحس أن نفسي مهتزة أعمق الاهتزاز. قلبي يخفق خفقاناً قوياً كأنه يريد أن يثب من صدري. وأنا أشعر عدا ذلك بوهن شديد في جسمي كله. أرسل إليك خمسة وأربعين روبلاً ورقاً. وسأدفع لصاحبة البيت عشرين روبلاً، ثم احتفظ بالباقي لنفسي: بعشرين روبلاً أصلح ثيابي، فيبقى لي خمسة عشر روبلاً أصرفها في تدبير معاشي. ولكن جميع هذه المشاعر التي تراكمت طوال هذا النهار قد هزّتني هزاً عميقاً وزعزعت كياني من الجذور. سأرقد لأستريح قليلاً. على أنني الآن هادئ. كل ما هنالك أن نفسي تشبه ان تكون محطمة من الانفعال، فأنا

أحسها، هنالك في أعماق كياني، ترتجف وترتعش وتهتز. سأجيء إليك زائراً. أما الآن فإنني مضطرب الفكر بعد هذه الانفعالات كلها كأنني سكران... إنّ الله يرى كل شيء يا ماتوشكا... الله يرى كل شيء يا يمامتي المعبودة.

صديقك المحترم

ماكار دييفوشكين

10 ايلول (سبتمبر)

عزيزي الغالي جداً ماكار ألكسييفتش!

إنني مغتبطة أشد الاغتباط لسعادتك، وأقدر المزايا الأخلاقية الرفيعة التي يتحلى بها رئيسك حق قدرها يا صديقي. هكذا تستطيع أن تخلد إلى شيء من الهدوء بعد تلك الآلام كلها. ولكنني أضرع إليك أن لا تستأنف تبديد المال يمنة ويسرة على غير هدى. عش حياة هادئة، حياة متواضعة إلى أقصى حد ممكن، واعزم أمرك منذ اليوم على أن تدخر كل ما تستطيع ادخاره، حتى لا تُفاجأ مرة أخرى بمصاعب لم تكن في الحسبان. أما نحن فلا تقلق علينا. أرجوك لا تقلق علينا. سنعرف أنا وفيدورا كيف ندبر أمورنا وكيف نخرج من متاعبنا بوسيلة أو بأخرى. ما كان ينبغي أن ترسل إلينا مبلغاً ضخماً هذه الضخامة، يا ماكار الكسييفتش. لسنا أبداً في حاجة إلى مثل هذا المبلغ الضخم. نحن راضيتان بما عندنا لا نطلب مزيداً. صحيح أننا نحتاج قريباً إلى بعض المال لنترك هذا المنزل، ولكن فيدورا تأمل أن تقبض في القريب مبلغاً مستحقاً لها منذ زمن. ومع ذلك سأحتفظ بعشرين روبلاً للطوارىء. أما الباقي فأردّه إليك. وفّر دراهمك يا

ماكار ألكسييفتش، صدّقني. تستطيع بعد اليوم أن تنعم بحياة هادئة، فاعتن بصحتك وكن فرحاً. كنت أود أن أطيل الكتابة، ولكنني أشعر بتعب شديد. اضطررت إلى ملازمة الفراش طول نهار أمس. أشكر لك وعدك بزيارتي. زرني يا ماكار ألكسييفتش، فأسرّ بذلك سروراً كبيراً.

ف.د

11 ايلول (سبتمبر)

أناشدك الله يا صديقتي العزيزة جداً، أتوسل اليك، أضرع إليك إلّا تتركيني الآن، ألا تبتعدي عني في هذه اللحظة التي أصبحت فيها سعيداً كل السعادة راضياً عن حياتي كل الرضى! يمامتي، لا تصغي إلى نصائح فيدورا، واعلمي أنني سأتبع في سلوكي دائماً الطريق الذي تشيرين به وترغبين فيه. سأحسن سلوكي، احتراماً لصاحب السعادة على الأقل. سيكون سلوكي حسناً جداً، سأكون مستقيماً نشيطاً. وسنظل نتبادل رسائل سعيدة هانئة، يسر كل منا إلى صاحبه بخواطره وأفكاره، ويشاطر كل منا صاحبه أفراحه وهمومه، إذا كان هنالك هموم سنقاسي منها أيضاً. سنعيش معاً فرحين منسجمين. وسنهتم بالأدب... يا ملاكي الرقيق، هل توافقين؟ تبدل مصيري تبدلاً كاملاً، تبدلاً حسناً. صاحبة البيت مثلاً أصبحت أكثر تسامحاً. وأصبحت تيريز أقل حماقة وغباء مما كنت أتصور. حتى فالدوني أصبح يظهر خفة ونشاطاً ومرونة. أما راتازاييف فقد تصالحت معه. ذهبت أراه قبل سائر السكان وأنا أفيض فرحاً. إنه فتى طيب جداً... يا ماتوشكا. اعلمي انه فتى طيب جداً... وليس ما قيل عنه من سوء إلّا

ثرثرة ظالمة وتجنياً! لقد اقتنعت ان ذلك كله لم يكن إلّا افتراء دنيئاً. لم يخطر بباله أبداً، في يوم من الأيام، أن يصفنا، أن يتخذنا موضوع رواية يكتبها. أكد لي ذلك هو نفسه. وقد قرأ لي بضع صفحات من آخر كتاب له. أما ذلك اللقب الذي أطلقه عليَّ، أعني اسم «لوفلاس» فيظهر أنه لا يشتمل على شيء من إهانة، ولا هو بالاسم المعيب. لقد شرح لي معنى هذا الاسم. هو كلمة مستمَدّة من لغة أجنبية تعني شيئاً من هذا القبيل «الفتى النشيط الجريء»، أو قولي بتعبير أقرب إلى الأناقة وأسلوب أدنى إلى الأدب، «السيد الذي يعرف ما يجب له»، ذلك هو معنى الكلمة. فليس فيها إذن شيء من غمز يجرح الشعور أو يسيء إلى الكرامة. هي مزحة غير مؤذية يا ملاكي الرقيق. ما أنا إلّا جاهل، لذلك ساءني هذا اللقب. لكن كل شيء صلح الآن، وقد اعتذرت إلى راتازاييف... ثم إن الجو جميل جداً اليوم يا فارنكا... هو جو رائع عذب... صحيح أنه كان في الصباح شيء من صقيع، وإن رذاذ من المطر والبرد قد خالط الهواء قليلاً. ولكن ذلك لم يعد شيئاً... حتى أن الهواء قد صار منعشاً من ذلك. ذهبت أشتري لنفسي حذاء، وقد عثرت فعلاً على حذاء مدهش. ثم مضيت أتجول متنزهاً في شارع نفسكي. وقرأت عدداً من جريدة «النحلة» ها... نسيت شيئاً أساسياً... يجب أن أرويه لك الآن:

إليك المسألة:

في هذا الصباح تحدثت مع إيميليان ايفانوفتش وهياسنت ميخائيلوفتش عن صاحب السعادة. نعم يا فارنكا: يظهر أنني لست الرجل الوحيد الذي حظي منه بكل هذا الكرم وهذا السخاء. لقد نعم آخرون بإحسانه أيضاً، والناس جميعاً يعرفون طيبة قلبه ونبل

نفسه. كثيرون أولئك الذين يتغنّون بفضائله ويمدحون مزاياه. وفي بيوت كثيرة تُذرف دموع العرفان بالجميل حين يجيء ذكره ويدور الحديث عليه. لقد كفل في بيته يتيمة مسكينة، وعنيَ بمستقبلها، وزوّجها من رجل محترم من موظّفي مكتبه. واهتم كذلك بابن امرأة أرمل، فعيَّنه في وظيفة من وظائف الحكومة. وقام بأعمال أخرى كثيرة من أعمال البر فحين علمت ذلك يا ماتوشكا رأيت أن من واجبي أن أنشد أنا أيضاً نشيدي الصغير في مدحه، فقصصت على الجميع بصوت عال قصة ما أغدقه عليَّ صاحب السعادة وما غمرني به. قلت لهم الحقيقة كلها، فلم أخفِ عنهم شيئاً. وضعت خجلي في جيبي. والأمر في الواقع أمر خجل وكرامة شخصية إزاء عظمة كهذه العظمة. أذعت الحقيقة جهاراً حتى لا يجهل أحد ما يتحلى به صاحب المعالي من نفس عظيمة وروح كبيرة. تكلمت بحماسة، وحرارة، من دون أن يحمر وجهي. بالعكس: كنت فخوراً بسرد هذه القصة. أفضيت لهم بكل شيء (إلا ما تعلق بك طبعاً يا ماتوشكا): حكيت لهم عن متاعبي مع صاحبة البيت، ومع فالدوني، وحدثتهم عن راتازاييف، وعن حذائي، وعن ماركوف. حدثتهم عن كل شيء، كل شيء. صحيح أن بعضهم ابتسم في بعض اللحظات. بل الحقيقة أنهم جميعاً ابتسموا؟. حتى لقد ضحكوا قليلاً. لا شك أنه قد كان في هيئتي أو في وجهي ما يبعث على الضحك، أو لعل قصة حذائي هي التي أضحكتهم... نعم هي قصة الحذاء قطعاً. ذلك أن من غير المعقول أن يضحكوا بنية سيئة. أنا على يقين من هذا. وقد ضحكوا لأنهم شبان، وربما لأنهم أغنياء أيضاً. ولكن لم يخطر ببالهم أن يسخروا من أقوالي ويستهزئوا بكلامي. ما كان لهم أن يتخذوا من مدحي لصاحب السعادة موضوع عبث وهزء. هذا مستبعد تماماً. إلّا

تظنين ذلك يا فارنكا؟

لم أصل حتى الآن إلى كمال استردادي لهدوء نفسي يا ماتوشكا. لقد هزتني هذه الأحداث كلها هزاً عنيفاً. هل عندك ما يكفيك من حطب للتدفئة؟ حاذري أن ينالك برد يا فارنكا. سرعان ما يصاب المرء بالزكام في هذا الجو. آه منك يا ماتوشكا! هل تعلمين أنك تقتليني قتلاً بأفكارك السود الحزينة تلك؟ إنني أدعو لك الله بغير انقطاع. ليتك تعلمين كم أدعو لك وكم أصلي من أجلك يا ماتوشكا! قولي: هل لديك جرابات من صوف، هل عندك ما تدثّرين به جسمك اتقاء البرد على الأقل؟ كوني حذرة يا يمامتي. إذ أعوَزك شيء فلا تغفلي أن تذكري لي ذلك: أناشدك الله لا تهيني شيخاً مسكيناً بالإحجام عن التوجه إليه في مثل هذه الحال. لا تقلقي عليَ. المستقبل باسم مشرق، ولن تكون أيامنا بعد الآن إلّا وضّاءة سعيدة.

آه يا فارنكا! ما كان أصعب وآلم تلك الأيام الشقية! لقد انقضت الآن، فلا تتحدثي عنها، هي بضع سنين ثم ننسى هذه الفترة فما تخطر لنا على بال. إنني أتذكر سنيّ شبابي. يا لذلك العهد! كان يتفق لي أن أظل أياماً بلا قرش في جيبي.. كنت أقاسي من البرد وأعاني من الجوع.. ومع ذلك ما أعظم الفرح الذي كان يملأ نفسي! كنت أقوم أحياناً بنزهة في الصباح على نهر نفسكي، فإذا لمحت وجهاً جميلاً، كان يكفيني ذلك حتى أظل سعيداً النهار كله حتى المساء! ما كان أجمله عهداً! ما كان أجمله عهداً يا ماتوشكا! ما أمتع الحياة في هذا العالم يا فارنكا! ما أمتعها في بطرسبرج خاصة! لقد تبت إلى الله بالأمس باكياً، وضرعت إلى الرب أن يغفر لي الخطايا التي انجرفت إليها خلال هذه الفترة القاتمة من دمدمات تذمر وتمرد، إلى

اتجاهات نحو اللبرالية، إلى فجور وفسق، وإلى قمار وميسر... ولقد تذكرتك في صلواتي وأدعيتي منفعلاً أعمق الانفعال. أنت وحدك، يا ملاكي الصغير الرقيق، بثثت في نفسي القوة، وواسيتني، وعزيتيني، وخففت عني، ووجهتني بنصائحك الحكيمة إلى طريق الرشاد. لن أنسى هذا يا ماتوشكا، لن أنساه أبداً. اليوم تناولت رسائلك فقبلتها جميعاً واحدة بعد أخرى! نعم يا يمامتي! أودعك الآن يا ماتوشكا. قيل لي أن هناك، على مقربة منا، رداء يُراد بيعه. سأمضي أستطلع الأمر. وداعاً يا ملاكي الرقيق، وداعاً.

صديقك المخلص اخلاصاً عميقاً

ماكار دييفوشكين

15 أيلول (سبتمبر)

السيد العزيز جداً ماكار ألكسييفتش!

إنني مضطربة أشد الاضطراب. أسمع ما حدث. يجب أن أذكر لك أولاً أنني كنت أوجس منذ زمن وقوع حادث محتوم. فانظر في الأمر بنفسك يا صديقي العزيز: إن السيد بيكوف هو الآن في بطرسبرج... لقد صادفته فيدورا. فلما لمحها استوقف عربته ودنا منها وأراد أن يعرف أين تسكن الآن. وقد رفضت فيدورا في أول الأمر أن تقول له شيئاً. فصرَّح لها وهو يضحك ضحكة صغيرة ساخرة أنه يعرف من تستضيف عندها (لا شك أن آنـّا فيدوروفنا هي التي قصت عليه كل شيء)، وعندئذ لم تستطع فيدورا أن تكظم غيظها وأن تكبح جماح نفسها، فأخذت تكيل له الشتائم في الشارع، وتصب عليه أنواع التقريع، قائلة إنه رجل لا أخلاق له وأنه سبب كل

ما قاسيته من ضروب العذاب والشقاء. فأجاب بقوله أنه ليس من المستغرب أن يكون المرء شقياً حين لا يملك قرشاً. فأجابته فيدورا بأني كنت أستطيع أن أعيش من عملي، وأني كنت أستطيع أن أتزوج، أو أن أجد وظيفة من الوظائف، ولكن سعادتي قد تحطمت الآن إلى الأبد، وأنني عدا ذلك مريضة مشرفة على الموت. فقال إنني ما زلت شابة في مقتبل العمر، وأنني أضع في رأسي أفكاراً سخيفة، وأن «فضائلنا قد حال لونها» فيما يظهر (تلك كلماته).

قدَّرنا أنا وفيدورا أنه يجهل عنواننا. ولكن تصور أنه بالأمس، بعد خروجي من البيت لشراء بعض الأشياء من قناطر جوستيني، دخل غرفتنا على حين فجأة. واضح أنه كان يتمنى أن لا يجدني في منزلي. فأخذ يسأل فيدورا عن معيشتنا مسهباً، وأخذ ينعم النظر في أرجاء الغرفة، وأحب أن يعرف شيئاً عن عملي في الخياطة، ثم ألقى على فيدورا فجأة هذا السؤال: «من هو ذلك الموظف الذي تقوم بيننا وبينه علاقات صداقة؟» واتفق أن كنت أنت مارّا في تلك اللحظة نفسها، فدلته فيدورا عليك، فنظر إليك وابتسم. وتوسلت إليه فيدورا عندئذ أن ينصرف قائلة له إن أحزاني قد هدّت قواي وجعلتني مريضة، فحسبي ما لقيته، ولا داعي لأن أتألم مزيداً من الألم حين أعود فألقاه أمامي. فصمت لحظة ثم قال إنه جاء عرضاً، فقد مر بالمكان مصادفة، وكان في وقته متسع، فدخل بغير غاية يقصدها أو هدف يرمي إليه. وأراد أن يعطي فيدورا خمسة وعشرين روبلاً، ولكنها رفضت أن تأخذ منه شيئاً بطبيعة الحال. ترى ماذا تعني هذه الزيارة؟ ماذا كان يريد منا؟ لم أستطع أن أفهم من أين عرف عنا هذه الأخبار كلها. إنني أقلّب الأمر على وجوهه وأفرض الفروض،

وأظن الظنون، فلا أهتدى إلى جواب على هذا السؤال. تدَّعي فيدورا أن أكسينيا زوجة أخيها التي تأتي إلينا أحياناً تعرف الغسالة آناستازيا، وأن ابن عم آناستازيا خفير في وزارة يعمل فيها أحد أصدقاء ابن أخ آنـّا فيدوروفنا، فلعل بعض الإشاعات قد تسربت على هذا الطريق. ومن الجائز أن تكون فيدورا مخطئة على كل حال. والحق أننا لا ندري كيف نفكر في هذا الأمر كله ولا كيف نعلله ونفسره. أمن الممكن أن يعود مرة أخرى؟ إنّ تصور هذا وحده يملؤني رعباً! حين أطلعتني فيدورا مساء أمس على ما جرى بلغت من الرعب انني أوشكت أن يغمى علي. ماذا يريدون فوق ما فعلوا؟ أنا لا أريد أن أعرفهم بعد الآن. لماذا يصرون على الاهتمام بأمري أنا المسكينة البائسة الشقية؟ آه ما أشد المخاوف التي أشعر بها في هذه الساعة! يخيل إليَّ أن بيكوف سيدخل علينا من لحظة إلى أخرى. فما عسى يقع لي عندئذ؟ ماذا يخبئ لي القدر أيضاً؟ أنا أناشدك بمحبة يسوع أن تجيء إليَّ بغير إبطاء يا ماكار ألكسييفتش. تعال إليّ، أضرع اليك، تعال.

ب.د

18 أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا، فر فارا ألكسييفنا!

حدث اليوم في منزلنا حادث حزين كل الحزن، لا يعلَّل ولا يفسَّر، ولا كان في خيال أحد أن يقع. إنّ صاحبنا المسكين جورشكوف (يجب أن أقول لك هذا عابراً يا ماتوشكا) قد أمكن أن يُرَدَ إليه اعتباره. فقد قضت المحكمة في قضيته منذ مدة طويلة، وذهب

اليوم إلى المحكمة ليتبلغ قرارها النهائي. انتهت القضية نهايه ترضيه كل الرضى. ذلك أنها برّأته من جميع ما نسب إليه، عدا أنه ارتكب أخطاء إهمال وغفلة. وقضى قرار المحكمة أن تدفع له من أموال التاجر المصادرة المبالغ الضخمة التي يستحقها، وبذلك تحسنت حالته المادية أيضاً تحسناً كبيراً. وأصبح شرفه غير ملطخ من جهة أخرى، ومعنى هذا أن جميع شؤونه قد صلحت كثيراً. الخلاصة أن جميع ما كان يتمناه قد تحقق له. عاد إلى البيت في الساعة الثالثة مضطرب الوجه شاحباً شحوباً شديداً. كانت شفتاه ترتجفان، ولكنه كان يبتسم. قبّل زوجته وأولاده. وهرعنا جميعاً إلى غرفته نهنئه، فبدت في وجهه علائم التأثر لهذه البادرة من جانبنا، وراح يحيي ويسلم في جميع الجهات ويصافح كلا منا عدة مرات. حتى لقد لاح لي أن جسمه نفسه قد كبر، فكأن قامته انتصبت، وأحسب أن العبرة الصغيرة المألوفة أصبحت غير عالقة بأهدابه. كان المسكين مضطرباً اضطراباً شديداً، فهو لا يستطيع أن يستقر في مكان لدقيقتين. كانت يده ما تنفك تقبض على هذا الشيء أو ذاك، ثم ما نلبث أن تتركه بغير داع، وكان يبتسم بلا انقطاع، ويحيي، ويجلس ثم ينهض، ثم يعود إلى الجلوس، وهو بين هذا وذاك لا يكف عن الكلام، وكان كلامه مشوشاً لا تسلسل في معانيه ولا اتساق بين أفكاره. كان يقول كلاماً من هذا النوع: «شرفي، سمعتي، أولادي، صيتي الحسن بين الناس...». حتى أخذ ينتحب فجأة في لحظة من اللحظات.. وترقرقت في مآقي أكثرنا دموع أيضاً.. وأراد راتازاييف أن يعزّيه وأن يقوّي عزيمته فقال له وهو يربت على كتفه: «مالك تتكلم عن الشرف يا عزيزي وأنت لا تملك ما تسدّ به الرمق. المال يا عزيزي! المال! ذلك هوالأمر المهم! أحمد الله على أنه وهب لك هذا المبلغ

الضخم، ذلك ما يجب أن تحمد الله عليه!». وأحسست في تلك اللحظة أن جورشكوف قد استاء. لا أقول إنه أظهر امتعاضاً، ولكنه رمى راتازاييف بنظرة غريبة، وأبعد يده عن كتفه. ذلك وضع ما كان يتخذه من قبل يا ماتوشكا. لكل إنسان طبعه على كل حال. فأنا مثلاً ما كنت لأظهر شيئاً من الزهو في مثل هذه اللحظة من السعادة. ألا يتفق لنا يا ماتوشكا أن نسرف في التحية والسلام وأن نفرض على أنفسنا مزيداً من التواضع والتذلل لا لشيء غير شهامة شبت في النفس، وحنان استولى على القلب؟. ولكن دعينا من هذا الآن، فما هو بالأمر الذي من أجله أكتب إليك في هذه اللحظة. قال جورشكوف: «نعم، أنا مغتبط بالمال أيضاً.. الحمد الله»، ثم لم يزد بعد ذلك على أن ظل يردد طول الوقت قوله: «الحمدالله، الحمدالله!...». وطلبت امرأته غداء أرقى نوعاً وأكبر مقداراً مما اعتادت أن تطلب، فلبّتها صاحبة البيت، حتى لقد أرادت أن تهيئ الطعام بنفسها. إن صاحبة البيت امرأة شهمة على طريقتها الخاصة، في بعض الأمور على الأقل.؟ وظل جورشكوف يذهب ويجيء قبل الغذاء. كان يدخل على جميع من في البيت، دُعي أم لم يُدع. يدخل الغرف مبتسماً ويجلس في كرسي ويقول بضع كلمات أو يلبث صامتاً. ثم يتكلم على حين فجأة. حتى لقد مضى عند الضابط البحار، وبلغ به الأمر حد تناول ورق اللعب، والمشاركة في اللعب طرفاً رابعاً. لعب بضع لحظات، فتاه عقله بين أوراق اللعب، فقال، «باس» عدة مرات، ثم نهض بغتة وهو يدمدم: «لا، لا، لم أشأ أن ألعب جاداً، وإنما أحببت أن أرى فحسب»، ثم انصرف. فلما لقيني في الممر تناول يدي وحدّق في عينيَّ تحديقاً غريباً بعض الغرابة، ثم ابتعد وهو ما يزال مبتسماً. لكن ابتسامته كان فيها شيء من ثقل، فهي تخلِّف في نفس من يراها

شعوراً أليماً، فكأنها ابتسامة ميت. وكانت امراته تبكي فرحاً. لقد ظللت السعادة بيتهم مرة. كان جوّ غرفتهم يشبه أن يكون جو عيد. تناولوا طعامهم مسرعين. وقال الرجل لزوجته بعد الغداء: «اسمعي يا عزيزتي: أحب أن أرتاح قليلاً»، واضطجع في سريره. نادى ابنته، فوضع يده على رأسها، ولاعب شعرها مدة طويلة. ثم التفت إلى امرأته يسألها: وابننا بتنكا؟ أين هو؟ فرسمت امرأته إشارة الصليب وأجابته خائفة مذعورة بأن ابنهما قد مات، وبأنه يعرف هو ذلك. فقال لها: «طبعاً طبعاً أنا أعرف ذلك، أنا أعرف كل شيء، أنا أعرف أن بتنكا هو الآن في ملكوت السموات». فأدركت امرأته عندئذ أن زوجها ليس في حالة طبيعية، فالحادث قد هزه هزاً عنيفاً عميقاً، فقالت له: «خير لك يا عزيزي أن تنام بضع لحظات». فقال: «نعم نعم، سأنام فوراً... أنا... قليلاً...»، وتحوَّل عنها إلى الجهة الأخرى، فظل ساكناً دقائق لا يتحرك، ثم لم يلبث أن التفت إلى امرأته من جديد، يحاول أن يقول بضع كلمات في أغلب الظن. فلما لم تسمع امرأته كلامه واضحاً سألته قائلة» ماذا تريد يا صديقي؟». ولكنه لم يجب. فانتظرت بضع لحظات، ثم قالت لنفسها: «لا شك أنه غفا». وذهبت إلى صاحبة البيت تثرثر معها قرابة ساعة. حتى إذا عادت إلى الغرفة وجدت أن زوجها لم يستيقظ بعد، وأنه ما يزال ساكناً في سريره. فقدرت أنه نائم، وجلست على كرسي، وأخذت تشتغل. قالت لنا فيما بعد أنها غرقت عندئذ في تأملاتها، فانقضى على ذلك نصف ساعة. إنها لا تتذكر الآن الموضوع الذي دارت عليه تأملاتها، وكل ما تقوله هو أنها في أثناء ذلك نسيت حضور زوجها نسياناً كاملاً، ولكنها ارتدت فجأة إلى الواقع بسبب إحساس مقلق انتابها على حين فجأة، فأذهلها هذا الصمت الغريب، هذا الصمت الذي

يسود الغرفة ويشبه صمت القبور. ألقت نظرة على السرير فلاحظت أن زوجها لم يغير وضعيته، فاقتربت منه ورفعت الغطاء، فأدركت في تلك اللحظة فقط، أن جسمه كان قد برد. لقد مات جورشكوف يا ماتوشكا. مات فجأة، كأن صاعقة نزلت عليه. أما سبب موته فأنا أجهله كل الجهل. وقد بلغت من التأثر والاضطراب لهذا الحادث يا فارنكا أنني لم أثب إلى نفسي حتى هذه اللحظة. لا أستطيع أن أصدق أن من الممكن أن يموت إنسان هذه الميتة، من لحظة إلى أخرى! مسكين جورشكوف! مسكين!... ما أكثر ما لقي من صنوف الشقاء والعذاب! يا له من مصير! يا له من مصير! ان امرأته غارقة في دموعها وفي هيئتها الآن ذعراً لا يوصف. أما البنت فقد انزوت في ركن من أركان الغرفة ساكنة لا تتحرك. إنّ في الغرفة حركة ذهاب وإياب كبيرة... وهم يتكلمون الآن عن تحقيق طبي سيتم إجراؤه.. لا أدري تماماً... ولا أستطيع أن أزوّدك بتفاصيل عن هذا الموضوع. ولكنني أتألم أشد الألم. إنه لمما يحزن النفس أن يتصور المرء أنه لا يعرف في أي يوم، في أي ساعة... من الممكن أن يموت الإنسان ميتة بلهاء في لحظة كانت فكرة الموت فيها أبعد ما تكون عن خياله.

صديقك

ماكار دييفوشكين

19 أيلول (سبتمبر)

سيدتي العزيزة فرفارا ألكسييفنا!

أسارع فأنبئك أن صديقي راتازاييف قد جاءني بعمل أقوم به لأحد الكتاب. هو مؤلف جاء يزوره فأعطاه مخطوطة كبيرة لأتولى

أنا نسخها.. لن يعوزني العمل إذن. الحمد لله. ولكن المؤسف أن خط المؤلف يبلغ من الرداءة أنني لا أستطيع قراءته، فأنا أتساءل كيف يمكنني أن أفكه. ثم إنهم يطلبون أن أنجز نسخ المخطوطة في مهلة قصيرة جداً، لأن الأمر مستعجل. يعالج الكتاب أموراً كثيرة أحس أنني لا أفهم منها شيئاً... وقد اتفقنا على أجر هو أربعين كوبكاً عن كل صفحة. أذكر لك هذه التفاصيل كلها يا صديقتي لتعلمي أن ما سأكسبه سيفيض عن حاجتي. أودعك الآن يا ماتوشكا. وسأشرع في العمل فوراً.

صديقك الوفي

ماكار دييفوشكين

23 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز جداً ماكار ألكسييفتش!

منذ سبعة أيام لم أكتب اليك، وقد شغلت خلال هذه المدة بأمور كثيرة، كما مرت بي أحداث تثير القلق والاضطراب. أول من أمس، زارني بيكوف. كنت عندئذ وحدي في البيت، لأن فيدورا كانت قد خرجت. فتحت له الباب، فلما رأيته انتابني رعب وذعر، حتى أنني لم أستطيع أن أقوم بأية حركة. وشعرت بوجهي يصفر. دخل وهو يطلق ضحكة صاخبة مدوية على عادته، وتناول كرسياً بنفسه فقعد عليه. لبثت مدة طويلة لا أستطيع أن أثوب إلى نفسي وأن أملك شعوري. وأخيراً مضيت أعتصم بركن من الغرفة، واستغرقت في شغلي فما لبث أن كفَّ عن الضحك. أغلب الظن أن مظهري قد فاجأه. كنت قد نحلت نحولاً شديداً في الآونة الأخيرة. خداي خاسفتان، وعيناي

غائرتان، ووجهي شاحب شحوباً شديداً. لا شك أن الذين عرفوني منذ سنة يصعب عليهم أن يعرفوني الآن. أنعم النظر إليَّ مدةٌ طويلة بانتباه شديد، ثم عاد إلى مرحه وضحكه. أبدى ملاحظة لا أتذكرها الآن، ولا أدري بماذا أجبته، ولكنه استأنف ضحكه حين سمع جوابي. مكث عندي ساعة كاملة يلقي عليَ الأسئلة تلو الأسئلة. وأخيراً، لحظة همَ أن ينصرف، أمسك يدي وقال لي (وأنا أنقل إليك أقواله بنصها): «فرفارا ألكسييفنا، يجب أن أعترف، بيني وبينك، ان آنّا فيدوروفنا التي هي قريبتك والتي تربطني بها صداقة، هي امرأة حقيرة دنيئة شريرة». (استعمل لفظة أخرى أيضاً، ولكنها لفظة غير لائقة) «لقد دفعت ابنة عمك الصغيرة في طريق سيئة، وأدّت بك أنت أيضاً إلى الضياع. أما أنا فقد سلكت في ذلك الظرف سلوك رجل جبان. ولكن ما العمل؟ تلك قصة مبتذلة شائعة». قال هذه الكلمات وانفجر ضاحكاً. كان يقهقه ملء حنجرته. وقال أخيراً انه لا يجيد القاء خطب طويلة، وأنه ذكر الشيء الأساسي الذي أملى عليه ضميره أن يذكره، لأن الشرف يقضي بذلك، وأنه سيوجز في ما سيضيفه من قول. وشرح لي عندئذ، بغير إسهاب ولا لفٍّ ولا دوران، أنه يريد أن يتزوجني، وأنه يرى أن من واجبه أن يرد اليَّ اعتباري وشرفي، وأنه غنيّ، وسيأخذني بعد الزواج إلى أراضيه، وأنه ينوي أن يفرغ هناك لصيد الأرانب. وأضاف إلى ذلك أنه لن يعود إلى بطرسبرج أبداً، لأن بطرسبرج مدينة مملة مضجرة موبوءة، وأن له هنا ابن اخ هو في رأيه ولد حقير، لذلك آلى على نفسه أن يحرمه من ميراثه، حتى أن هذا السبب الذي يحرص من أجله على أن يتزوجني، وذلك ليكون له ورثة شرعيون. فذلك هو الباعث الأساسي الذي دفعه إلى القيام بهذا المسعى عندي. ولفت نظري بعد ذلك إلى أنني أعيش حياة

فقيرة جداً، وأنه ليس بالمستغرب أن أمرض وأنا أقيم في مثل هذا الكوخ الحقير الذي أسكنه. وتنبأ لي بموت وشيك إذا أنا أصررت على البقاء هنا ولو شهراً واحداً آخر. وقال إن البيوت في بطرسبرج سيئة، وسألني أخيراً هل أنا في حاجة إلى شيء؟.

بلغت من الانشداه لهذا العرض أنني أخذت أبكي، لا أدري لماذا، فظن أنني أذرف دموع العرفان بالجميل. فقال إنه كان دائماً يعدّني فتاة طيبة القلب، رقيقة العاطفة، حساسة الشعور، مثقفة، ولكن ما كان له أن يقدم على ما يقدم عليه لولا أنه سال عن سلوكي الراهن فعرف تفاصيله. قال إنه مطلع على كل شيء، وأنك رجل فاضل الأخلاق، وأنه لا يريد أن يبقى مديناً لك عن كل ما صنعته في سبيلي؟ فلما قلت له أن خيراتك عليَّ هي من تلك الخيرات التي لا يمكن أن يكافئها أي مبلغ من المال، صاح يقول ان هذا كله سخافات، وأن هذا كله من باب الروايات، وأنني ما زلت شابة، وأحب قراءة الشعر ولا شك، وأن الروايات تضيع الفتيات وتفسد أخلاقهن، وأنه يحتقر جميع الكتب على وجه الإجمال. ونصحني أن أنتظر أن أكبر بضع سنين أخرى حتى أصدر أحكاماً صحيحة في حق الناس. وأضاف قائلاً: «سوف تتعلمين عندئذ كيف تعرفينهم». وسألني بعد ذلك أن أفكر فيما عرضه عليَّ متمهلة غير متعجلة، لأنه سوف يؤلمه كثيراً أن أتخذ قراراً خطيراً هذه الخطورة من دون أن أفكر في الأمر تفكيراًعميقاً. وقال إن الخفة والطيش والاندفاع مع الهوى تؤدي بالشباب الذين لم يخبروا الحياة إلى الضياع، ولكنه، من جهته، يتمنى من أعماق قلبه أن يجيء جوابي بالموافقة على عرضه. أما اذا رفضت هذا العرض فسيجد نفسه مضطراً أن يتزوج تاجرة من سكان موسكو،

لأنه آلى على نفسه أن يحرم ذلك الوغد ابن أخيه من ميراثه. وترك لي خمسمائة روبل أجبرني على قبولها إجباراً، لأستطيع أن أشتري لنفسي بها حلوى... كذلك قال. وأكد أنني لن البث أن أسمن في قريته وأتربل، وأنني سأعيش عنده في وفرة وبحبوحة. وأضاف إلى ذلك أنه كان في هذه الأيام الأخيرة مشغولاً جداً، فهنالك أمور كثيرة يجب أن يسويها، وأنه جاءإليَّ عابراً، منتهزاً فرصة بين موعدين هامَّيْن. وانصرف بعد ذلك. فأخذت أفكر ملياً. قلبت الأمر على وجوهه المختلفة، ولبثت أتأمل ساعات وساعات إلى غير نهاية، عانيت من اضطراب الفكر ما عانيت، حتى انتهيت أخيراً إلى اتخاذ قرار. لقد قررت يا صديقي أن أتزوجه. لا بد أن أقبل ما عرضه عليَّ. إنه الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يغسل عاري، وأن يُصلح سمعتي، وأن يجنبني البؤس وأنواع الحرمان وصنوف الشقاء في المستقبل. ما الذي يمكن أن أطمع فيه بعد الآن؟ ما الذي أستطيع أن أنتظره من القدر؟ فيدورا تقول إن على المرء أن يعرف كيف يمسك السعادة من شعرها؟ هي تؤكد أن... ولكن ما هي السعادة بعد كل حساب؟ أما أنا فلا أتصور مخرجاً آخر على كل حال، فاعلم ذلك يا صديقي الغالي. ما العمل؟ لقد أضنيت صحتي بالعمل، ولسوف يستحيل عليَّ أن أواصل هذا العمل دائماً. أما أن أوظف لدى أسرة، فإن ذلك سيميتني حزناً وأسى. وما من أحد يريدني على كل حال. إنّ جسمي عليل، وسأكون لذلك عبئاً على الآخرين. طبعاً ليس ما اخترته هو الجنة. ولكن ماذا يجب أن أعمل يا صديقي؟ ماذا أستطيع أن أعمل؟ الحق أنني ليس لي في الأمر خيار.

لم أسألك نصحاً. أردت أن أزن جميع جوانب القضية بنفسي.

والقرار الذي أبلغتك إياه منذ هنيهة قرار مبرم لا رجوع عنه، وسأبلغ بيكوف هذا القرار فوراً، فهو يصر على أن أبلغه قراري الحاسم. وهو الآن يستعجلني، قائلاً إن أعماله لا تمكنه من الانتظار، وان عليه أن يسافر، وأنه لا يستطيع أن يرجئ سفره لأسباب تافهة. لا يدري إلّا الله هل سأجد السعادة هنالك! إن مصيري رهن بإرادة الله المقدسة. ولكنني عزمت أمري، واتخذت قراري. يقولون إن بيكوف رجل شهم. سوف يحترمني، وقد أتعلم ان أحترمه أيضاً. هل يمكن أن نرجو من زواجنا أكثر من ذلك؟

ها قد أطلعتك على الوضع يا ماكار ألكسييفتش. أنا واثقة أنك ستفهم ما أنا فيه من حزن. لا تحاول أن تثنيني عن عزمي، فسوف تضيع جميع جهودك في هذا السبيل سدى. حاول أن تزن في قرارة نفسك جميع الأسباب التي دفعتني إلى اتخاذ هذا القرار. لقد تعذبت كثيراً في أول الأمر، ولكنني هادئة كل الهدوء الآن. إنني أجهل ما يخبئه لي المستقبل. فليكن ما يكون، ولتتم مشيئة الله!... ها قد وصل بيكوف، لذلك أقطع الرسالة قبل إكمالها. هناك أمور كثيرة كان يجب أن أقولها لك أيضاً.

23 أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا، فرفارا ألكسييفا!

أسارع إلى الرد على رسالتك يا ماتوشكا. أبادر فأقول لك يا ماتوشكا إنني قد ذهلت. كل هذا غريب متناقض... أمس دفنّا جورشكوف. نعم يا فارنكا. الأمر كذلك إذن. هو كذلك إذن يا فارنكا. لقد تصرف بيكوف تصرف رجل شريف. وقبلت أنت دفعة

واحدة يا صديقتي... ولكن... صحيح أن مقاديرنا بيد الله... هي بيد الله... أنا أعرف ذلك... ولا بد أن يكون الأمر كذلك... أريد أن أقول إن مشيئته هي العليا، ولا بد أن تنفَّذ مشيئة الله. ولله العلي القدير مشيئة لا تجحد عدالتها ولا يجحد عمقها، ولكننا لا نستطيع أن ننفذ إلى سرها... ومصائرنا كمشيئة الإله أيضاً. إنّ بيكوف يريد لك السعادة... أنا واثق من ذلك. واضح أنك ستسعدين الآن يا ماتوشكا، وأنك ستعيشين في يسر ووفرة وبحبوحة يا يمامتي، يا ملاكي الصغير المعبود، يا طائري اللطيف... ولكن يا فارنكا لم هذا التعجل كله؟ الأعمال.. نعم.. الأعمال.. السيد بيكوف مشغول.. قد يكون السيد بيكوف مشغولاً جداً. لقد لمحته لحظة خروجه من عندك.. إنه رجل مهيب، مهيب جداً.. ولعله مهيب أكثر مما ينبغي.. ولكن هذا كله ليس واضحاً وضوحاً كاملاً.. ليست القضية قضية هيئته المهيبة الآن.. ثم إن فكري مشوش مضطرب في هذه اللحظة.. فأنا لا أهتدي إلى أفكاري ولا أعرف ماذا أريد أن أقول. هناك نقطة هامة بوجه خاص: ما الذي سنعمله من أجل أن نواصل التراسل؟ وأنا؟ أيجب أن أبقى وحيداً بعد الآن؟ لقد وزنت كل شيء يا ملاكي الرقيق... نعم وزنت كل شيء.. نظرت في كل شيء كما طلبت مني ذلك... وزنت كل شيء في قرارة قلبي، وزنت جميع البواعث التي تذكرينها. كنت على وشك الانتهاء من نسخ الصفحة العشرين من المخطوطة، فإذا بهذه الأحداث كلها تسقط على رأسي فجأة. ستسافرين إذن يا ماتوشكا. ستحتاجين إلى أشياء كثيرة استعداداً للسفر: أحذية، ثوب.. أعرف مخزناً في شارع جوروخوفايا. هل تتذكرين حديثي الذي وصفت لك فيه ذلك المخزن؟ ولكن لا.. لا.. ما هذا الذي تقولين يا ماتوشكا؟ هلا فكرت في الأمر قليلاً؟ إنك لا

تستطيعين أن تسافري الآن... مستحيل... مستحيل استحالة مطلقة! هناك أشياء كثيرة يجب أن تشتريها قبل السفر، وستكونين في حاجة إلى عربة، إلى مركبة خاصة. ثم إن الجو قد ساء. انظري إلى المطر كيف ينهمر غزيراً في هذه اللحظة! إنه مطر رديء، والجو رطب... سوف يصيبك برد يا ملاكي الرقيق، وسوف يصيبك برد روحي. أأنت، يا من تخشين الناس كل تلك الخشية، تقررين أن تسافري بهذه السرعة؟ وأنا؟ مع من أبقى، أأبقى وحيداً؟ فيدورا تقول إن سعادتك هناك! إنها امرأة قاسية عنيفة، لا تفكر إلّا في إيجاد طريقة لضياعي. أأنت آتية إلى الكنيسة لصلاة الغروب هذا المساء يا ماتوشكا؟ سوف يطيب لي أن آتي لأراك هناك. ذلك صحيح كل الصحة يا ماتوشكا، صادق كل الصدق: أنت فتاة فاضلة الخلق، حساسة الشعور مثقفة. ولكنني أرى أن زواجه بتاجرة موسكو خير له... ألا ترين هذا الرأي يا ماتوشكا؟ إن من الأفضل أن يختار تلك التاجرة، فليتزوجها إذن. سأثب إليك يا فارنكا الطيبة متى هبط المساء فأقضي عندك ساعة أو بعض ساعة. إنّ الغسق يهبط مبكراً في هذا الفصل. سأجيء إليك. أنت تنتظرين الآن بيكوف. فمتى انصرف، سنرى... انتظري زيارتي يا فارنكا. سأجيء في هذا المساء.

ماكار ديفوشكين

27 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ماكار ألكسييفتش

يرى السيد بيكوف أن من الواجب حتماً أن يكون عندي ثلاث دستات من القمصان المصنوعة من الحرير الهولندي. فلا بد لنا إذن

من خياطين لتفصيل دستتين أخريين من القمصان، لأنه لم يبق أمامنا إلّا وقت قصير. إنّ السيد بيكوف يستعجلني نافد الصبر، وهو يقول إن حكاية الحزن هذه قد طالت كثيراً. وسيتم زواجنا بعد خمسة أيام ثم نسافر في الغداة. إنّ السيد بيكوف يقول إن علينا أن نسرع، يقول إن علينا أن لا نضيع الوقت في الترهات. أنا مهدودة القوى بسبب هذه الهموم. فلا أكاد أستطيع الوقوف على ساقي من الإجهاد. هناك أشياء كثيرة يجب أن أسوّيها، أشياء كثيرة تغمرني حتى الرأس؛ وإني لأتساءل: ألم يكن من الأفضل أن أعدل عن هذه الحكاية كلها أساساً. بالمناسبة: ليس عندنا ما يكفي من النسيج المخرم والقماش المشبك، فيجب أن نشتري من هذين النوعين، لأن السيد بيكوف يقول إنه لا يطيق أن تكون ثياب زوجته كثياب طباخة، وأن عليَّ أن «أُخرس جميع نساء المالكين في الأراضي المجاورة لأراضيه»، تلك هي كلماته. لذلك أرجوك يا ماكار ألكسييفتش أن تذهب إلى مدام شيفون بشارع جوروخوفايا، فتوصيها أولاً بأن ترسل إلينا خياطات، وتوصيها ثانياً بأن تتكرم بالمجي إليَّ. لأنني متعبة اليوم. فالبرد شديد في مسكننا، وكل شيء في البيت فوضى. إنّ عمة السيد بيكوف متعبة وهو يؤكد أن الأمر بسيط، وأنها ستسترد قواها. كل ما في البيت مقلوب رأساً على عقب. السيد بيكوف لا يعيش معنا، حتى أن الخدم يتغيبون كثيراً، فلا أدري أين يعثر المرء عليهم. وكثيراً ما يتفق أن لا يكون في خدمتنا أحد غير فيدورا. أما وصيف السيد بيكوف الذي كان ينبغي أن يشرف على كل شيء، فقد انصرف منذ ثلاثة أيام من دون أن يقول شيئاً. السيد بيكوف يزورنا كل صباح، فما ينفك يلوم ويقرّع ويؤنب، حتى لقد أخذ بالأمس يضرب ناظر المبنى ضرباً مبرحاً نشأت عنه مصاعب مع الشرطة... لا أدري بمن أستعين

لإيصال هذه الرسالة إليك، لذلك أبعثها بواسطة البريد. ها... نعم... نسيت الشيء الأساسي: قل لمدام شيفون أن عليها حتماً أن تبدل المخرمات وفقاً للعيّنة التي درسناها أمس، وأن تجيء بنفسها إليَّ لتريني خيارات جديدة. قل لها أيضاً إنني غيرت رأيي فيما يتعلق بالصدار، فأنا أرى الآن أن يُحاك بالإبرة. ثم إن الأحرف الأولى من الاسم يجب أن تطرَّز في المناديل على الطارة، هل فهمت ما أقول؟ على الطارة لا بالتقليب. انتبه إلى ما أقول. إياك أن تنسى أنني أريد تطريزاً على الطارة. ها... كدت أنسى أيضاً: أوصها، ناشدتك الله، أن تخيط الأوراق عالية جداً على رداء الكتفين، وأن تقوّيها بصفائح وأن تخيط الياقة بشبيك أو بتخريج عريض. لا تنس أن توصيها بهذا يا ماكار ألكسييفتش، أرجوك.

صديقتك

ف.د

حاشية: يعذب ضميري أنني أزعجك بهذه المهمات. لقد ظلت أول أمس تجوب المدينة طوال الصباح من أجلي. ولكن ما حيلتي؟ ليس في منزلنا نظام، وأنا نفسي مريضة. فلا تؤاخذني يا ماكار ألكسييفتش. ما عسى يخرج من هذا كله يا صديقي الشهم الطيب ماكار ألكسييفتش؟ إنني أتهيب أن أسال المستقبل. إنني أوجس خيفة وأعيش فيما يشبه الضباب.

حاشية: ناشدتك الله يا صديقي، لا تنس شيئاً مما عهدت به إليك. أخشى أن تخطىء أو أن تختلط عليك الأمور. تذكر جيداً: على الطارة لا بالتقليب.

ف.د

27 أيلول (سبتمبر)

المحترمة جداً فرفارا ألكسييفنا!

نفّذت تنفيذاً دقيقاً جميع التوصيات التي كلفتني بها. تدّعي مدام شيفون أنها فكرت من تلقاء نفسها في التطريز على الطارة، فذلك أكثر لياقةً، إذا صح ما فهمته، لأنني في الواقع لا أعرف على وجه الدقة ماذا قالت لي في هذا الموضوع. وهناك أيضاً مسألة التخريج ولكنني يا عزيزتي لا أستطيع أن أتذكر ما شرحته لي بشأن التخريج هذا. كل ما أستطيع أن أقوله هو أنها أفاضت عليه في الكلام وأسهبت.

امرأة عجيبة، ما هو الموضوع تماماً؟ على كل حال ستردد على أسماعك ما قالته لي. يجب أن أعترف لك يا ماتوشكا أنني كالتائه. حتى لقد فوَّتّ عملي اليوم. صدّقيني يا عزيزتي إذا قلت لك أنك مخطئة في ما تحسينه من حزن. ثقي أنني، في سبيل تهدئة خاطرك، مستعد لأن أجوب جميع مخازن المدينة. تقولين إنك تخشين المستقبل. فلماذا هذه الخشية ما دمت ستعرفين كل شيء ففي الساعة السادسة من هذا المساء سوف تجيئك مدام شيفون بنفسها. فلا تقلقي، وأمّلي خيراً يا ماتوشكا. لسوف ترين أن جميع الأمور سترتب على أحسن وجه، كما أقول لك. أما التخريج، ذلك التخريج اللعين، فسحقاً للتخريج والتخريم والتطريز جميعاً. كان يمكن أن أزورك يا ملاكي الرقيق، كان يمكن أن أثب إلى بيتك لحظة، كان يمكن أن أجيء إليك حتماً... حتى لقد دنوت من أبواب منزلك مرتين اثنتين.. ولكن هذا الرجل بيكوف، عفواً، أقصد السيد بيكوف متجهّم الوجه جداً... لذلك لم أجازف...

ماكار دييفوشكين

28 أيلول (سبتمبر)

السيد العزيز ماكار ألكسييفتش!

أتوسل إليك أن تركض فوراً إلى الصائغ، فتقول له إنني عدلت عن قرطَي الأذنين اللذين أوصيته بصنعهما من لآلئ وزمرّد. إنّ السيد بيكوف يرى أن هذا إسراف في البذخ، وأن الثمن باهظ جداً. إنه غضبان غضباً شديداً. يقول إننا نبالغ في الإنفاق، وإننا ننهبه نهباً. حتى لقد صرح أمس بأنه لو كان يتنبأ بجميع هذه المصاريف لتجنب ولوج هذا الطريق أساساً. وهو يقول أننا سنسافر فوراً بعد الزفاف، ولن يكون هنالك مدعوون، ولا يجب أن أتوقّع أن أرقص وأتسلى، فما تزال أعياد نهاية العام بعيدة. انظر كيف يتكلم، والله يعلم مع ذلك هل كنت أنا في حاجة إلى هذا كله! إن السيد بيكوف نفسه هو الذي حرص على أن يوصي بها في البداية. ولست أستطيع أن أرد عليه بشيء، لأنه سريع الغضب. ترى كيف ستكون حياتي؟

ب.د

28 أيلول (سبتمبر)

يمامتي فرفارا ألكسسفنا!

إنني أقول- أقصد إن الصائغ يقول إنه قد نفذ أمرك. أما أنا فقد أردت أن أذكر لك في بداية هذه الرسالة أنني مريض لا أستطيع أن أبارح سريري. لقد جاء المرض اللعين في غير أوانه... جاء في الوقت الذي يجب عليَّ فيه أن أسوّي أموراً كثيرة... في الوقت الذي أنت فيه محتاجة إليّ، قاتل الله الزكام... يجب أن أخبرك أيضاً أن

خاتمة الرزايا أن صاحب السعادة رأى من اللازم اليوم أن يظهر شيئاً من القسوة، فصبَّ غضبه الشديد على إيميليان ايفانوفتش، وبلغ من ذلك أن قواه خارت أخيراً حتى تقطعت أنفاسه. مسكين! هأنذا أخبرك بكل هذة المزعجات. وكنت أريد أن أبلغك شيئاً آخر، ولكنني أخشى أن أزعجك وأعكر صفوك، لأنني يا صديقتي، لست إلّا رجلاً بسيطاً بغير ثقافة، أكتب ما يخطر ببالي هكذا بغير تكلف. وقد تجدين هنا وهنالك ما... الخلاصة... ماذا بعد؟

صديقك

ماكار دييفوشكين

29 أيلول (سبتمبر)

رأيت اليوم فيدورا يا يمامتي. قالت لي إن الزفاف سيتم غداً، وانك مسافرة بعد غد، وأن السيد بيكوف قد هيأ الخيول. أما صاحب السعادة فقد حدثتك عنه في رسالتي الأخيرة. ها... نعم... لقد دققت فواتير مخزن شارع جوروخوفايا: الحسابات صحيحة، ولكنني أرى أن الأسعار باهظة. لماذا يوجه إليك السيد بيكوف هذه الملامات؟ كوني سعيدة يا ماتوشكا. أنا أغتبط لك! نعم! وسيبهجني دائماً أن أعرف أنك سعيدة. كنت أود لو أجيء إلى الكنيسة، ولكن ذلك مستحيل لأنني أشعر بآلام في خاصرتي. أعود إلى مسألة التراسل بيننا. إنّ هذه المسألة تقلقني وتقضّ مضجعي. من تُرى سيتولى نقل رسائلنا يا ماتوشكا؟ بالمناسبة، لقد كنت كريمة جداً مع فيدورا يا صديقتي العزيزة: وقد أحسنتِ بذلك صنعاً يا عزيزتي، أحسنت جداً. ذلك منك عمل طيب خيّر، وسيجزيك الله جزاءًا حسناً على جميع

ما قدمت من خيرات وحسنات. إنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. هذه عدالة الرب.. عاجلاً أم آجلاً. ماتوشكا، هناك أمور كثيرة أود لو أكلمك فيها. أحس أنني أستطيع أن أكتب إليك كل ساعة، بل كل دقيقة، فأقص عليك كل ما يخطر ببالي، وأسر إليك بكل شيء. ما زلت محتفظاً بكتابك (أقاصيص بيلكين). لا تستردي مني هذا الكتاب يا ماتوشكا! اهده إليّ يا يمامتي! لا لأنني أشتهي قراءته كثيراً، بل لأن الشتاء يدنو، وليالي الشتاء طويلة كما تعلمين، وسأشعر بسأم، وقد أشعر بحزن، فأتسلى عندئذ بقراءته. قررت يا ماتوشكا أن أترك غرفتي التي أسكنها، وان أنتقل إلى بيتك القديم مستأجراً عند فيدورا. لن أرضى أن أنفصل عن هذه المرأة الشهمة بعد اليوم أبداً. ثم إنها صاحبة همة ونشاط في العمل؟. لقد طفت أمس بكل ركن من أركان بيتك المهجور المقفر، أمعن النظر في كل شيء تفصيلاً. ما يزال كل شيء في مكانه. منضدة الخياطة لم تتزحزح، والشغل الذي كنتِ قد بدأته ما يزال عليها في زاوية الغرفة. نظرت في الشيء الذي كنت تخيطينه. إنّ قصاصات من القماش مبعثرة هنا وهناك. كنت قد لففت خيطاً على إحدى رسائلي أيضاً. وفي درج طاولتك عثرت على ورقة كتب عليها «السيد العزيز ماكار ألكسييفتش أسارع فـ...» ـ هذا كل ما كتب على الورقة. لا شك أن أحداً قطع عليك الكتابة في هذا الموضع. وفي ركن آخر وراء حاجز، رأيت سريرك الصغير... أواه يا يمامتي، أودّعك الآن، أودعك!... ناشدتك الله، أجيبي على رسالتي هذه، أجيبي بأي شيء، ولا تدعيني أنتظر طويلاً...

ماكار ديفوشكين

30 أيلول (سبتمبر)

ماكار ألكسييفتش، صديقي العزيز!

تحققت مشيئة الأقدار. تقرر مصيري. أنا أجهل ما سيكون هذا المصير. ولكنني أذعن لإرادة الرب. سنسافر غداً. أودّعك الآن آخر مرة يا صديقي العزيز، يا من أحسنت إليّ وكنت لي بمثابة أب! لا يؤلمك سفري! عش سعيداً. تذكّرني. أسأل الله أن يباركك وأن يحيطك برعايته. سأفكر فيك كثيراً، كثيراً جداً، وسأدعو لك في صلواتي. لقد انتهت الآن، انتهت تلك الفترة من حياتي. لست أحمل إلى حياتي الجديدة كثيراً من الذكريات السعيدة. وهذا يجعل ذكرى ما صنعته في سبيلي أجمل وقعاً في نفسي، ويجعل منزلتك في قلبي أرفع مكاناً وأعظم شأناً. أنت صديقي الوحيد. أنت وحدك أحببتني هنا. لقد رأيت كل شيء، وعرفت كم كنت تحبني. كان يكفيك أن أبتسم حتى تصبح سعيداً. كان سطر واحد من رسائلي قادراً على أن يملأ نفسك فرحاً. سيكون عليك أن تتعود فراقي. ما عسى أن تكون حياتك المنعزلة بعدي؟ من عسى يعتني بك يا صديقي العزيز، يا صديقي الوحيد؟ أترك لك كتابي، وأترك لك منضدة خياطتي، وأترك لك الرسالة التي بدأت كتابتها ولم أكملها فوجدتها في دُرجي. حين ستنظر إلى هذه الأسطر التي لم تُكمل، سوف تستطيع أن تكملها بخيالك من عندك وأن تضيف إليها كل ما كنت تود لو تقرؤه، كل ما كان يمكن أن أكتبه لك في الواقع، والله أعلم ماذا كنت أود لو أكتبه إليك اليوم!... أذكر من حين إلى حين صديقتك المسكينة فارنكا التي أحبتك كثيراً. رسائلك جميعها بقيت في خزانة فيدورا، بالدرج الأعلى. تقول إنك مريض، ولكن السيد بيكوف لا يريد أن أخرج

الآن. سأكتب إليك يا صديقي، أعدك بذلك. وأودّعك إذن إلى الأبد يا صديقي، يا صديقي العزيز، يا أخي، إلى الأبد،... آه... ما أكثر ما كان يمكن أن أقبلك في هذه اللحظة! وداعاً يا صديقي، وداعاً، وداعاً، كن سعيداً، وأسأل الله لك العافية. سأظل أدعو لك ما حييت. ما أشد حزني في هذه اللحظة! ما أثقل الحمل الذي أحسه جاثماً على صدري. السيد بيكوف يناديني.

صديقتك التي ستحبك دائماً

ف.د

حاشية: روحي تفيض حزناً، نفسي تطفح دموعاً... النحيب الذي أكتمه في صدري يخنقني خنقاً. وداعاً. رباه! ما أقسى الفراق! لا تنسى أبداً صديقتك الشقية فارنكا!

فارنكا، عزيزتي ماتوشكا، يمامتي، معبودتي فارنكا!

لقد أخذوك وسوف تسافرين. لو انتزعوا قلبي من صدري لكان ذلك أهون عليَّ من بعدك عني. كيف أمكن هذا؟ انظري: إنك تبكين، ومع ذلك سوف تسافرين. لقد استلمت رسالة منك منذ هنيهة، رسالة مبللة بالدموع! معنى هذا أنك لا تحبين أن تسافري، معنى هذا أنهم يأخذونك عنوة. معنى هذا أنك ترحمينني وتشفقين علي! معنى هذا أنك تحبينني! كيف ستعيشين الآن ومع من؟ لسوف يذوب قلبك الصغير هنالك حزناً وضجراً وشعوراً بالعزلة الروحية. لسوف تهدُّ الكآبة قلبك الصغير هذا، ولسوف يحطمه الأسى تحطيماً. سوف تموتين، وسوف يدفنونك عندئذ في تلك الأرض الرطبة الباردة في ذلك المكان النائي الغريب، ولن يكون ثمة أحد يبكيك. السيد بيكوف

لن يتسع وقته للبكاء. السيد بيكوف لن يفكر إلّا في صيد الأرانب. أواه يا ماتوشكا! أواه يا ماتوشكا! لماذا اتخذت ذلك القرار؟ كيف أمكن أن تعزمي على هذا الأمر؟ ماذا صنعت بنفسك، ماذا صنعت بنفسك؟ ما هذا الذي جنيته على نفسك. إنّ القبر هو ما ستجدينه عندهم، سوف يميتونك يا ملاكي الرقيق!... ذلك إن جسمك ضعيف واهن يا ماتوشكا! أين كنت أنا الأحمق في هذه الآونة؟ أين كانت عيناي؟ انني بدلاً من أن أعارض معارضة حاسمة... نعم.... بدلاً من ذلك كنت أبله لا يفكر، وأعمى لا يرى... كأن كل ما حدث كان عدلاً لا اعتراض عليه وضرورة لا مناص منها، وكأن ذلك كله لا يعنيني في شيء! وكنت أثناء ذلك أذهب وأجيء هنا وهناك بحثاً عن تخريمة أو تخريجة... لا يا ماتوشكا لا، لن أسمح بهذا، سوف أنهض من سريري. قد أبلّ من مرضي غداً فأستطيع أن أخرج... فألقي بنفسي تحت عجلات العربة، ولا أدعك تسافرين. هلا فكرت في الأمر قليلاً؟ بأي حق، بأي حق يفعلون هذا؟ سأسافر معك، سأركض وراء العربة إذا رفضت أن تأخذيني، سأظل أركض وراء العربة إلى أن ألفظ آخر أنفاسي وتزهق روحي. هل تتصورين ماذا ينتظرك هنالك، ماذا ينتظرك في ذلك المكان الذي تسافرين إليه يا ماتوشكا؟ إذا كنت تجهلين ماذا ينتظرك، فاسأليني أنا. أنا أعرف. لن تري من حولك إلّا فيافي مقفرة يا صديقتي، إلّا فيافي مقفرة، وسهولاً جرداء ممتدة إلى غير نهاية، وأرضاً عارية كراحة الكف. الفلاحات اللائي يعشن في تلك البلاد قاسيات القلوب، لا حس لهن ولا شعور. والفلاحون غلاظ جفاة سكارى في معظم الأوقات. الأشجار ذهبت عنها أوراقها في هذا الفصل، والسماء ممطرة، والبرد قارص، فهل إلى هذا المكان تسافرين؟ للسيد بيكوف أن يسافر إذا

شاء. فإن له هنالك ما يشغله. سوف يعيش مع أرانبه. أما أنت، أنت ما عساك تفعلين؟ لن يكون هناك من دور إلّا دور زوجة مالك كبير يا ماتوشكا؛ فانظري إلى نفسك: أأنت امرأة من هذا النوع؟... كيف أمكن أن يقع هذا كله يا فارنكا؟ إلى من عساني أكتب الآن يا ماتوشكا؟ هل ألقيت على نفسك هذا السؤال يا ماتوشكا: «إلى من سيرسل رسائل بعد الآن؟» من ذا الذي سأناديه هاتفاً ماتوشكا؟ على من سأطلق هذا الاسم العذب الرقيق؟ وأين عساني أراك بعد ذلك يا ملاكي الجميل؟ لسوف يميتني هذا يا فارنكا، سوف يميتني حتماً، لن يحتمل قلبي عذاباً كبيراً كهذا

العذاب. لقد أحببتك أكثر من ضوء النهار، أحببتك كما لو كنت ابنتي، أحببت فيك كل شيء يا ماتوشكا، ومن أجلك إنما كنت أعيش على كل حال، من أجلك أنت وحدك كنت أعمل، وأنسخ وثائق، وأمشي، وأتنزه، وأكتب مشاعري على الورق رسائل صادقة، كل هذا لأنك كنت تسكنين قبالتي على مقربة مني. لعلك تجهلين هذا، ولكن الأمر كان كذلك. ولكن لا، أصغي إلي يا ماتوشكا، فكري قليلاً يا يمامتي: كيف يمكنك أن تسافري، كيف يمكنك أن تتركينا؟ مستحيل هذا يا صديقتي، مستحيل هذا، لست قادرة على القيام بهذه الرحلة. لا تستطيعين أن تقومي بها، مستحيل... يجب استبعاد هذا الأمر... يجب استبعاده استبعاداً كاملاً. المطر ينهمر الآن، وأنت ضعيفة واهنة، وستصابين ببرد، سوف تتبلل عربتك، وسوف ترشح إلى داخلها مياه الأمطار. هذا أكيد. ثم إنها ستتحطم، هذه العربة ستتحطم متى اجتزتم المدينة إلى الضواحي. ستتحطم حتماً. أأنت تجهلين أن العربات التي تُبنى الآن في بطرسبرج متداعية الهياكل؟

إنني أعرف هؤلاء الذين يصنعون العربات: يكفيهم أن تكون المركبة جميلة المنظر، وأن تشبه دمية حلوة المظهر، ولا يعنيهم بعد ذلك أن تكون متينة أو متهالكة. يميناً إنها تتحطم لأيسر سبب. سوف أركع أمام السيد بيكوف يا ماتوشكا، فأبين له ذلك، وأبرهن له عليه. وأنت أيضاً يا ماتوشكا، سوف تبرهنين له ذلك، سوف تشرحين له بحجج معقولة دامغة حاسمة أن عليك أن تبقي هنا، وأن من المستحيل عليك أن تسافري. لماذا لم يتزوج تلك المرأة، تاجرة موسكو؟ لقد كان من الأفضل أن يتخذها امرأة له. إن تاجرة موسكو خير له منك. ذلك أحسن له كثيراً. أنا أعرف هذا، أعرفه حق المعرفة، وأعرف لماذا! أما أنت فكان يمكن أن أحتفظ بك هنا قريبة مني. ما هو عندك بيكوف هذا؟ ما الذي أرضاك فيه على حين فجأة؟ ألأنه اشترى لك كل ذلك التخريج؟ أيكون هو هذا السبب؟ ولكن ما قيمة التخريج؟ ما نفع التخريج؟ ذلك كله ترهات يا ماتوشكا... الأمر أمر حياة إنسان يا ماتوشكا! أما التخاريم فما هي إلّا خرق حقيرة يا ماتوشكا. تلك هي التخاريم: خِرَق لا أكثر. إنني أنا أيضاً، أنا نفسي، سأشتري لك تخاريم. سأشتري لك تخاريم متى قبضت راتبي. نعم نعم سأشتري لك تخاريم. إنني أعرف مخزناً تباع فيه التخاريم.

انتظري حتى أقبض راتبي فقط يا ماتوشكا، يا طفلتي المعبودة! رباه رباه! أأنت مصرة قطعاً على السفر مع بيكوف إلى الفيافي؟ هل قررت قراراً لا عودة عنه، أن تسافري بغير رجعة؟ آه يا ماتوشكا! لا... لا... سوف تكتبين إليَّ: سوف تبعثين إليَّ برسالة تصفين لي فيها كل شيء تفصيلاً... وحين تكونين بعيدة، ستكتبين إليَّ من هنالك أيضاً. وإلا، يا ملاكي الصغير المشع المشرق، فإن هذه

الرسالة ستكون الأخيرة... مستحيل، لماذا تكون الأخيرة؟ لماذا هذه الرسالة بعينها؟ أهكذا، فجأة؟ لا... لا... سوف أكتب إليك أيضاً، وسوف تكتبين إليَّ أنت كذلك... هل تلاحظين أن أسلوبي أخذ يتحسن؟ آه يا صديقتي، أنا لا أعبأ بالأسلوب، ولا أحفل به! في هذه اللحظة نفسها، أصبحت لا أعرف ماذا أكتب، نعم أصبحت لا أعرف ماذا أكتب، وأنا لا أعيد قراءاة ما أكتب، ولا أصحح عباراتي ولا أنقّحها. إنما أنا أكتب لأكتب فحسب، لأحدثك أطول مدة... آه يا يمامتي، يا بنيتي، يا ماتوشكا...

الفُقَراءُ

دوستويفسكي

إن الوجوه التي نراها في هذا العمل الذي هو أوّل أعمال دوستويفسكي، سنقع عليها في أعماله الأخرى. إنها وجوه "الفقراء" وأشكال عيشهم. فنشاركهم عذابهم بقدر ما ندرك ما تختزنه تلك النفوس من قدرة على الحب والتضحية. وفي هذه الرواية ستتلمّس الأغوار العميقة التي سينفذ اليها دوستويفسكي، والأعماق الميتافيزيقية التي ستذهب إليها رواياته في الغوص عميقاً في أبعاد الشخصية الإنسانية، وخاصة في تصوير حياة الفقراء والمهمَّشين والدخول إلى عوالمهم النفسية التي ستدور حولها معظم رواياته.

فالبَطلان في هذه الرواية مضطهَدان معذَّبان مذَلّان مهانان، يوقع فيهما الأشرار كل أنواع الظلم، ويتحملان من الفقر ما لا يُطاق. فيتحمّل ماكار الذّل والجوع ويضحّي بكل ما يمكنه الحصول عليه، وهو قليل جداً، في سبيل الفتاة المسكينة التي لا يكاد يراها، ولا يجرؤ أن يزورها مخافة النمائم. إنه يرتضي لنفسه الحرمان من أجل إسعادها فيرسل اليها هداياه الصغيرة متحمِّلًا البرد والجوع والإذلال.

عبر الفقر الذي يعانيه ماكار ديفوشكين يكشف دوستويفسكي عن كل الفقر الذي يحيط به، وحين يهمّ الرجل أن يشكو ويتذمر من العذاب الذي يقاسيه الخيرون في هذا العالم، نراه يعود ليتراجع عن الشكوى والتذمر، مسلّمًا بالواقع، مذعناً لمشيئة القدر، همّه فقط أن يسعد غيره بسذاجة تحمل ببساطتها روحاً إنسانية مدهشة.

ISBN 978-977-6483-83-5



التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس